منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

أمين الزاوي

نُزهَة الخاطِر

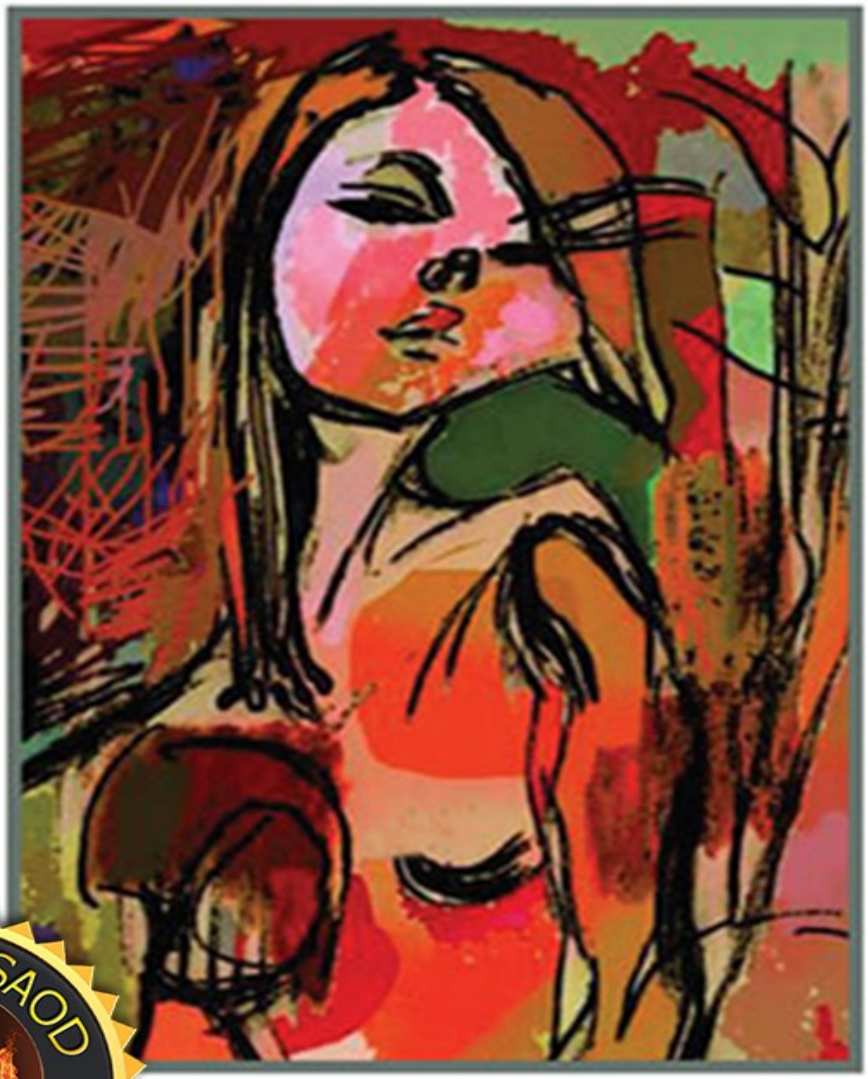

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

رواية

نُزهة الخاطِر

رواية

أمين الزاوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى
1434 هـ- 2013 م
ISBN:978-614-02-0975-6
جميع الحقوق محفوظة
منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة- الجزائر
هاتف/فاكس: +213 21676179
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com
منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef
هاتف الرياض: +966509337722
هاتف بيروت: +9613223227
editions.difaf@gmail.com
إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إهداء:

إلى:
عبد القادر وإدريس وعبد الله وحليمة
أبناء عمتي ميمونة،
رحلوا جميعًا، واحدًا بعد الآخر،
في صمت هشاشتهم العالية.
أمين

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)
(سورة التكوير: 22)

1

بـي مرض غريب، فأنا أحلم كل ليلة، وإن كثيرًا من أحلامي هي عبارة عن كوابيس تُعرّق، تحاصرني في شكل حكايات مزعجة وملتوية وغير ذات نهاية. ومع كل صباح أجد نفسي أسعد خلق الله، لا لشيء إلا لأن الذي شاهدته لم يكن سوى منام، ولكن الأغرب من كل ذلك هو أنني كلما حاولت أن أقص ذلك على من أصادفه في طريقي الصباحي، وخاصة هذه المرأة التي تعيش معي في هذه الشقة المعلقة في الطابق الخامس من هذه العمارة الكولونيالية المتهالكة، وسط هذه المدينة الساحلية الغامضة التي كأنما ضربها الطاعون، امرأة يحدث أن أنسى اسمها لأيام، ثم أستعيده لأيام أخر، تسامحني وتضحك. كلما جلسنا في المطبخ لشرب قهوة الفطور، وأهمُّ بأن أقص عليها تضاريس سفري المرير في السرير؛ أجدني قد نسيت كل شيء، يضيع مني الكل وتتداخل التفاصيل في رأسي، أحزن لحالي وأقول: كيف لي نسيان نصف حياتي؟ أردد بيني وبين نفسي هذه الصورة المدهشة الواردة في كتاب الله:

".. يُكَوِّرُ الليلَ عَلَى النَّهارِ ويُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى الليلِ..".

وأحتسي قهوتي في صمت.

أعترف بأنني عشت بنصف حياة فقط، أما نصفها الآخر فقد ضيعته في دهاليز النسيان، فالحياة التي لا تستطيع حكايتها هي موت من نوع آخر؛ للموت إخوة وأخوات.

الحكاية هي مرآة الحياة.

مع ذلك قررت أن أحكي لكم ذلك النصف من الحياة الذي لم أعشه، أن أكور الليل على النهار.

2

أحب مربى المشمش!
.... تحت سقف البيت الكبير ذي العماد المتين، يعيش ويتعايش أفراد عائلتنا الكبيرة: الجد والجدة، والعمان والعمة، وأبناؤهم وبناتهم، وأبـي وأمي وأخواتي، وأنا الذي أحب مربى المشمش كثيرًا.
خلق كثير، ولا أحد من هذا الخلق الكثير فكر يومًا في مغادرة البيت الكبير إلا إذا كان ذلك إلى المقبرة، وحتى من قد تخول له نفسه الأمارة بالسوء التفكير في ذلك، لا يسمح له بارتكاب معصية من هذا القبيل.
ما دام الجد على قيد الحياة فلن يغادر أحد العتبة الكبيرة، جد لم أعرفه منذ فتحت عيني إلا بلحيته الحمراء، المصبوغة على الدوام بحناء مائل لونها إلى الاحمرار، مما يعطي وجهه قوة بياض ناصع، يعبق منه عطره الخفيف، مخلوطًا على الدوام برائحة الصابون الحلبـي الأصيل، التي تصعد من ثيابه البيضاء النظيفة.
كان أنيقًا، كأنما خلق للنساء والأسفار.
كنت دائمًا أشبه صورة جدي وهو على مثل هذه الهيئة والجلسة والتأمل واللحية بصورة أحد أنبياء الله، لست أدري لماذا كلما لمحته يذكرني وبشكل مباشر بالمسيح عليه السلام!
جدي اسمه عبد المؤمن، سُمّي بهذا الاسم، كما يحلو له أن يردد ذلك دائمًا، نسبة إلى أحد أجداده العظماء، وهو عبد المؤمن بنعلي الكومي الندرومي، ابن صانع الأواني الفخارية، والذي ترك مدينته ندرومة مهاجرًا إلى تلمسان ثم بجاية، التي استقر فيها بعد أن عدل عن مواصلة رحلته إلى الحج؛ إذ فضل البقاء إلى جوار ابن تومرت ليصبح ملازمًا له، ليغادر بجاية بصحبة ابن تومرت متوجهين إلى المغرب الأقصى. وفي منطقة السوس تتم بيعة ابن تومرت مهديًّا للموحدين، وكان هذا الجد شاهدًا على المبايعة، ثم بعدها فُتحت الحرب على دولة المرابطين، وبموت ابن تومرت تولى عبد المؤمن بنعلي قيادة جيش الموحدين؛ فخاض حربًا دامت سبع سنوات فتح أثناءها مدنًا وبلدانًا، من ندرومة إلى تلمسان ووهران ووجدة وفاس ومكناس وإشبيلية بالأندلس، ومليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة، وتونس والمهدية والقيروان وصفاقس، وسوسة وطرابلس وقابس...
كان جدي فخورًا بجده، يقرأ لنا من كتب التاريخ عنه وعن سلطانه العظيم، وهو يحلم في عز القيلولة باستعادة مملكته الضائعة وعرشه الممتد من ليبيا إلى سجلماسة.
وأنا أحب مربى المشمش.
هي عادة جدي، يوميًّا، عند ساعة العصر يأخذ كتاب "روض القرطاس" لابن أبـي الزرع، ويقرأ فيه بصوت عال هذه الفقرة التي تصور ملامح جده، يقرؤها وهو ينظر إلى نفسه في المرآة التي تنصبها أمامه جدتي، ليرى ملامحه في تلك الصفات التي كان عليها جده السلطان عبد المؤمن الكومي:
".. كان أبيض اللون مستويًا، بحمرة، أكحل العين، أجعد، تام القد، أزج الحاجبين، قويم الأنف، عريضه، مستدير اللحية، فصيح اللسان، فقيهًا... إمامًا في النحو واللغة والأدب والقراءة... حسن السيرة، نافذ الرأي، ذا حزم وسياسة وشجاعة وإقدام في الحرب... لم يقصد بلدًا إلا فتحه..".

كان جدي يقرأ هذا عن جده الأول، وعينه على وجهه في المرآة فلا يرى نفسه إلا في هذا الوصف، فتبتسم جدتي...
تصب له فنجانًا من قهوة العصر.
لم يكن جدي يحب الحرب، كان يحب قراءة القرآن والشعر، ويعشق ركوب الخيل والنساء والأسفار.
أراقب حركات جدي، وأغمس أصبعي في بوقال مربى المشمش.
أحب مربى المشمش.
جدتي الحاجة البتول، على كل هي لم تحج يومًا، ولكن الناس ألحقوا باسمها هذه الصفة، فقبلتها على مضض؛ لأنها تعتقد بأن كل من يناديها باسم "الحاجة" لا ينتظر سوى موتها، فالحاج هو من شاخ وانتهت جميع رغبات الحياة لديه، أما جدتي فكانت امرأة حياة، تعض على الدنيا بأسنانها التي ما فقدت منها ولا واحدة، عدا سن العقل! تحب الأكل والحديث ومخاصمة الناس ومحاسبة أمي وزوجة عمي حسابًا دقيقًا، وتعتني بدجاجها العناية القصوى، تعد الرؤوس واحدًا واحدًا، حين مغادرة الخم، ومثله عند العودة مع سقوط الليل، ولا تفرط في مربعات نعناعها وقزبرها النابت في اخضرار مدهش، عند مدخل البيت الكبير العامر ذي العماد المتين، تسقيه وتقلب الأرض حوله باستمرار.
كانت جدتي البتول ثخينة، بكّاء، شكّاء، لا تستطيع لمَّ لسانها في فمها، تعاني مرض السكر الذي يرافقها من سنوات، ومع ذلك لم تكن قادرة على الكف عن تناول الحلويات وجميع أنواع السكريات. يقال عنها إنها، ومنذ صغرها، لم تكن تعشق سوى ما هو محرم عليها، متمردة وملحاح، لذا فزواجها بجدي الحاج عبد المؤمن له حكاية قد تطول روايتها، في كل مرة تحكيها وبتفاصيل مختلفة وغريبة.
فقد تزوجها هذا الأخير بعد أن عشقته؛ إذ شاهدته يركب حصانه ويلعب الفانتازيا في عرس أحد شباب القرية، كان وسيمًا من سلالة الأمراء، فهو حفيد القائد عبد المؤمن الكومي، فما كان منها إلا أن تدبرت حيلة تنقذها من زوجها الذي كانت معلقة في رقبته، والذي له معها ولد وبنت وبطن ممتلئ بقادم على الطريق، إذ ذهبت عند شيخ الجامع الكبير يوم الجمعة، وكان هذا الإمام معينًا من قبل الإدارة الفرنسية، فمنحته بعض ذهبها من خواتم وحلق وأساور وبكت حالها إليه، طالبة منه أن يتدخل للسماح لها بخلع زوجها، متهمة إياه بعجز في أداء واجب الفراش، وهي التي تحب الفراش كثيرًا، تحب سُكَّر الأكل وعسل الفراش، والثاني أحب إلى قلبها من الأول، فما كان من الشيخ إلا أن أذن لها بذلك، فكان الذي رغبت فيه.
في أيامها الأخيرة، كانت لا تتوقف عن ترديد هذه العبارة: "الحياة سُكَّر أكل، وعسل فراش". تقول لنا ذلك وقد أصابها مرض الكآبة، وهزمتها الشيخوخة اللعينة التي هجمت عليها مبكرًا؛ فانهار جسدها الذي كان جميلاً، والذي مع ذلك كان لا يزال يحتفظ بأطلال تحيل وتذكر بجمال ولّى واختفى.
لم يكن أحد بالبيت الكبير يحب جدتي، ومع ذلك لم يكن أحد من ساكنيه يمكنه تصور هذا الفضاء العائلي بدونها، فهي من يملؤه صخبًا وشتمًا وأمرًا ونهيًا وكلامًا بذيئًا. الجميع يدعي أنه يغلق أذنيه حين تفتح جدتي فمها، ولم أر أحدًا يفعل ذلك، على العكس تمامًا فالجميع كان يحب سماع وقاحتها

مقهقهًا. كان الجميع يتحاشى لسانها ولكن لا أحد كان يحمل كلامها على محمل الجد، وقد بدأت تهذي كثيرًا ولا تتردد في أن تخرج في قيلولات الصيف القائظ شبه عارية أمام الجميع.
أحببت جدتي البتول لشيء واحد وغريب، أحببتها حين علمت أنها اصطفت من كل دجاج الخم ديكًا أعطته اسمًا هو "ميمون"، وقالت عنه: "إنها حررته"! ما معنى "الديك المحرر" في منطق جدتي؟ لقد قررت جدتي ألا يُذبح هذا الديك ولا يُباع، وهو بالفعل ما كان، وقد كبر وأصبح له عرف بطوابق حمراء وقائمتان بأظافر كبيرة كحوافر الدواب، وريش كريش الطاووس. كان يأكل من يدي جدتي ويشرب من إناء خاص به، وكانت لا تنسى أن تحممه بزيت الزيتون الأصلي مرة كل ثلاثة أشهر، تمسّد له الأطراف وتدهن له الرأس، وتتركه لساعات أمام الشمس. وفي الشتاء يقضي ليله في الغرفة التي تتقاسمها مع جدي، كان له فراشه الخاص به، لا أحد منا نحن الصغار كان ليتجرأ على إزعاج هذا الديك المحرر، بل كنا نخاف لمسه؛ إذ كانت جدتي تؤكد لنا أن من يمس الديك بأذى يصيبه الله بأن يسلط عليه مرضًا اسمه "بورجاف"، حيث يعيش بيدين مرتجفتين طوال عمره. كنت أهرب كلما صادفت الديك في الساحة، ومثلي كان يفعل الجميع من أقراني، كنت أخاف أن ألمس ريشه فأصاب بمرض البورجاف. كان ديك جدتي ميمون يعرف اسمه، فبمجرد أن تناديه جدتي بهذا الاسم يسرع إليها، وكانت تحتفل بعيد فقْسه، أي اليوم الذي خرج فيه من البيضة، أي عيد ميلاده، كان ذلك في الثامن من أبريل، وحين بلغ عامه الثامن بدأ يفقد ريشه وأيضًا قوة بصره، وكانت جدتي لا تتوقف عن دهن ريشه حتى لا يسقط، ووضع نوع من العقار السائل في عينيه حتى يرى، وهو نفس العقار الذي كانت تستعمله هي نفسها، وتقطر منه في عيني جدي أيضًا. والعجيب في الأمر أن جدتي وميمون، ديكها المحرر، بدآ يفقدان السمع والبصر بشكل متواز وبذات الوتيرة، حتى إنه لم يعد يسمع صوتها إذ تناديه لتناول قمحه أو شرب مائه، فكانت تنادي عليّ كي أنادي بدوري عليه وبصوت عال، وكنت أقوم بذلك، وفي كل مرة أحقق انتباه ميمون تمنحني جدتي بيضة مسلوقة بالملح والكمون، كم كان بيضها لذيذًا يالإلهي، وكنت أتمنى أن يظل ميمون على صممه كي آكل كل مرة بيضة مسلوقة!
يعجبني بيض جدتي المسلوق المغمس في الكمون والمرشوش بالملح، لكني أحب فوق ذلك مربى المشمش.
لم ألمس في حياتي الديك ميمون إلا مرة واحدة، يومها وقعت الواقعة، كنت بجوار جدتي أساعدها في تنظيف الإناء الذي تضع له فيه حفنات القمح أو النخالة المبلولة بقليل من الماء، جاء الديك وبكل طمأنينة مر بيني وبين جدتي فلامست ريشه، أو على وجه الدقة هو من لامسني بريشه، وعلى إثر ذلك انطلقت مسرعًا، حتى دون أن أخبر جدتي بالواقعة التي وقعت، إلى غرفة والدي في الجناح الآخر من البيت الكبير، أخرجت كيس صابون الغبرة أومو، وبدأت في فرك يدي سبع مرات بالتراب أولاً ثم مثلها بالماء والصابون، وفي كل مرة كنت أغسل فيها يديّ أشعر بهما ترتجفان؛ فأقرأ الفاتحة وأشعر برغبة متواصلة في التبول. قضيت النهار ويداي في جيبي، في الليل لم أستطع أن أنام إذ كنت أشعر بيدي اليمنى ترتجف فأنام عليها، أتوسدها فلا تتوقف عن الارتجاف، وعند الصباح نسيت ارتجاف يدي، ومع ذلك قررت ألا أعود لمساعدة جدتي في الشؤون المتصلة بالديك ميمون.
كان لميمون الحق، كل الحق، في أن يدخل جميع الغرف دون أن يزعجه أو ينهره أحد، بل من دخل غرفته يكون سعيدًا؛ لأنه، كما تقول جدتي، حامل للحظ والشفاء وبشارة خير كثير، وكانت

أمي مؤمنة بذلك إيمانًا عميقًا، فما يكاد يدخل غرفتها أو غرفة أخواتي حتى تسرع لتنثر له بعض حفنات قمح، وترشه بالملح وتتمتم بعض الدعوات، وترفع يدها إلى جبهتها وكتفيها وتقوم بصلاة في حركات من يديها على شكل رسم صليب، تشبه صلاة المسيحيين وهي تقرأ الفاتحة وآية الكرسي.

لا أحد كان يمكنه أن يتصور البيت الكبير خاليًا من ميمون الديك؛ فهو الكائن الجامع بين أفئدة الناس، وهو القادر على رفع كل خصومة أو مقاطعة أو كراهية قد تنشب بين أهل البيت، وما أكثرها، فما أن يدخل غرفة إلا وتسرع صاحبتها إلى إخراج خبزة مطلوع، تقسمها قطعًا صغيرة في طبق من الحلفاء، ثم توزعها على ساكنة البيت الكبير، الكبار والصغار دون استثناء، وبالتالي تمسح كل الخصومات، وتعود الحياة إلى مجراها الهادئ. كان ميمون وسيط سلام بين أهل البيت الكبير، وعامل مصالحة بين المتخاصمين والمتخاصمات.

3

وبالبيت الكبير يقيم أيضًا العمان الصافي وسليمان، الأول متزوج، أما الثاني فأعزب لا يفكر في الزواج البتة. وعمي الصافي لا نشاهده إلا شهرًا واحدًا في السنة، يكون ذلك في شهر رمضان، إذ إنه يشتغل عاملاً مهاجرًا في فرنسا.

يعد العم سليمان آخر عنقود جدتي، رجل من عسل، هو الوحيد الذي كان قادرًا على أن يسخر من بركة الديك ميمون، وتلك قوة لا يملكها غيره، وكثيرًا ما تجرأ بالتفوه بالعبارة الساخرة التالية أمام جدتي: متى نستلذ بلحم هذا الميمون ياحاجة، متى يدخل الطنجرة؟ مرقه هائل!! فتغضب جدتي غضبًا كبيرًا وتصرخ لاعنة هذه الذرية الفاسدة، وتتهمه بالكفر وبأن الله سيعاقبه على أفكاره الخبيثة في هذه الدنيا قبل الآخرة. كان عمي سليمان يتناول السكين بين يديه، سكينًا كبيرًا مخصصًا لأضحية العيد، يشهره ويمشي مختالاً قبالة جدتي قائلاً وهو يقهقه كالطفل: أين ميمون ياحاجة؟ تغلق جدتي باب غرفتها عليها، ثم تستسلم للبكاء والصلاة والدعوات، وسليمان من خلف الباب يضحك ويقهقه.

كان عمي سليمان يحب الموسيقى الشعبية، ويؤدي رقصة العلاوي الفلكلورية بطريقة مدهشة في الأعراس وفي الأفراح العائلية. كان له صوت غير جميل ولكنه متميز وهو يؤدي أغنيته المفضلة، أغنية الباسبور لخضر لصاحبها الشيخ التينساني، والتي شاعت كثيرًا في منطقتنا، كلما تذكر أخاه الصافي، أغنية تصور رغبة الشباب في الهجرة إلى ما وراء البحار؛ هروبًا من الفقر والحاجة وتلبية متطلبات العشيقة، أغنية يرددها الرجال والنساء على السواء في كل مناسبة، تقول الأغنية:

لو كان الباسبور عَنْدي- نَمْشي لَ فْرَنْسا نْولّي لاباس
مْنين الباسبور والو- ما عَنْدي ما نْدير يابَنْت الناس
لو كان الباسبور عَنْدي- نَرْكَبْ فَ الطّايْرَة ونَـكُطَعْ لَبْحور
نَخْدَم ونْدير المْلايَنْ- نَشْري لوطو نْجيبْها فَ الْبابور
لو كان الباسبور عَنْدي- نَـكُطَعْ لَ فْرَنْسا ونَخْدَم فَ النّور

في الحفلات والأعراس، كانت عين عمي سليمان التي لا تنام مسلطة على النساء الجميلات، وعيونهن عليه، لا تراه إلا مقهقهًا، لم يفقد الطفل الشقي فيه، لا يحسن كتابة حتى اسمه، يعرف من حروف الأبجدية كتابة حرف "بَ" بالفتحة دائمًا، لماذا بالفتحة دائمًا؟ لا أحد يعرف ذلك، حتى هو لا يعرف لماذا يكتبه هكذا، وما هذا الذي يكتبه هكذا!

كره المدرسة من صغره، فلم يدخلها إلا يومين اثنين لا ثالث لهما، نفر منها ثم قاطعها نهائيًّا، لم يعد إليها مطلقًا، على الرغم من إلحاح جدي عبد المؤمن مزيان الكومي وجدتي البتول، ولم يجلس على حصير مدرسة الكتّاب، يعرف الحساب إلى عدد تسعة وتسعين وبعده تختلط عليه الأعداد، لكنه يدرك وبذكاء خارق حساب فلوسه؛ فالأوراق النقدية لا تفوته قيمتها وعدها، هو لا يخطئ في ذلك أبدًا، مع إنه ميال إلى الحياة أكثر من ميله إلى الفلوس، كان رجل إحساس لا رجل حساب.

كان عمي سليمان هو من يحضر لاجتماعات الحزب الحاكم، فحين يجيء أصحاب الخطب العصماء من تلمسان أو وهران، "ناس الهدرة" كما كان يسميهم، كان هو من يعد لهم المنصة في الأسواق الشعبية، ويدعو الناس إلى الاستماع، بل كان يدعوهم إلى التفرج. كانوا يسمعون ما لا

يفهمونه، يجلسون لساعات أمام الخطيب لا لشيء إلا لأن عمي هو من طلب منهم ذلك. كان الخطباء يتحدثون عن الاستقلال والجزائر المتحررة حين يكون الصيف، وعن العدالة والاشتراكية حين الخريف، ويغيبون في الشتاء ليظهروا مع الربيع لينشدوا الحرية والسلم، والناس تعرف أن لا عدالة تحققت؛ فالناس لا تزال تستعمل الأحمرة التي استعملوها أيام الاستعمار الفرنسي، ولا تزال الطريق الوحيدة المعبدة التي يسلكونها هي تلك التي عبّدها الاستعمار لأجل أرتال سيارات عسكره وجهاز قمعه.

يتحدث الخطباء عن الثورة والبارود والشهداء حين يكون الخريف، نسي الناس الشهداء إلا حين إعادة دفن بعض رفاتهم، كان عمي هو من يحفر قبور الشهداء الذين دفنوا على عجل من قبل رفاقهم في قبور منتشرة في السهول والسهوب والجبال، يجمع ما تبقى منها في كفن أبيض، يلم العظام، يصففها بعناية وصلاة، يضعها في صندوق كي يعاد دفنها في مقبرة الشهداء. المقبرة هي المؤسسة الوحيدة التي تم تدشينها في قريتنا منذ الاستقلال، وكانوا حين يحل الربيع يتحدثون عن "سيسي لوفو" (توقيف النار) الذي أفضى إلى الاستقلال. كان عمي يحفظ الخطب من كثرة ما سمعها من أفواه أصحاب الحزب والحكومة، كان يحفظها دون أن يفهم شيئًا منها، منهم أيضًا حفظ بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن الشهداء، من كثرة ما كرروها على منصات الأسواق الشعبية.

من كثرة إعادة دفن الشهداء التي تكون ثلاث مرات في السنة، في عيد الثورة وهو الفاتح من نوفمبر، وعيد النصر الذي هو يوم 19 مارس، وعيد الاستقلال الذي هو يوم 5 يوليوز. ولكثرة ما تتكرر قراءة بعض الآيات، ولأن عمي كان مجبرًا أن يكون في الصف الأول مع المسؤولين الكبار الذين يجيئون في مرات من العاصمة والله أعلم؛ فقد اضطر إلى حفظ آية الكرسي التي تقرأ في كل إعادة دفن وفي كل عزاء، وحتى في استقبال الحجاج، وحين أصبح متيقنًا من حفظها عن ظهر قلب، لم يكن يتردد في أن يرفع صوته فوق أصوات الجميع كي يؤكد لهم بأنه حافظ كتاب الله:

بسم الله الرحمن الرحيم: "اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" (صدق الله العظيم).

كان يقرأ آية الكرسي في كل مناسبة، وهي كل ما يحفظ من كتاب الله، وبها يحفظ ماء وجهه أمام الجميع من الغرباء أو من أبناء البلد.

كان عمي سليمان سعيدًا ذاك اليوم وقد جاءه خبر مفرح، وهو أن المسؤولين القادمين من مدينة تلمسان سيكرمونه، كان ذلك بمناسبة الاحتفالات بذكرى العشرين لثورة أول نوفمبر، استعد عمي لذلك اليوم أيّما استعداد، وكما هو المعتاد فقد رفع المنصة ونصب الطاولة والكراسي والبوق الذي فيه ينفخ النافخون، وكان يسميه صُورَ الجنة، ولكن شيئًا ما اختلف لدى عمي في هذا اليوم، فهو المشرف على تحضير الحفل، وهو أيضًا من المكرمين. لبس أجمل ما عنده من ملابس، وحلق لحيته مرتين، مرة عند الفجر والثانية عند مطلع الشمس قبل أن يغادر البيت الكبير. ولأول مرة شعر بنوع من التردد والخوف والقلق، ولأول مرة أيضًا سقطت القهقهة من على شفتيه فبدا متجهمًا، وجاء المسؤولون وصفق لهم الناس الذين اجتمعوا في السوق الشعبي، وعلا الغبار

الخريفي المكان، ونفخ المسؤولون في الصور الواحد بعد الآخر مرددين نفس الكلام الذي سبق وأن قالوه منذ عشرين احتفالاً، ثم شرعوا في النداء على المكرمين، وحين جاء دور عمي صعد المنصة وهو يقرأ آية الكرسي دون أن يعرف لماذا كان يقرأ آية الكرسي المرة بعد المرة. وحين تسلم عمي شهادة التكريم من يد المسؤول الكبير الذي أشبعه مدحًا، وعدد خصاله الحميدة وبلاءه الحسن أيام الثورة؛ تناول عمي الشهادة ثم اختفى.

حين انتهى الحفل وعاد الخطباء في سياراتهم السوداء من حيث جاؤوا، وعاد عمي إلى البيت الكبير حزينًا؛ وضع "شهادة مجاهد" الملفوفة بخيط أخضر قبالته، ظل صامتًا زمنًا أمامها، لم يعرف ما هو مكتوب عليها، ولم يكن يهمه ذلك، ثم قال بينه وبين نفسه وبمرارة: "هذا ثمن المجاهد وجزاؤه!"، ترحم على الشهداء من رفاقه، ثم استرجع قهقهته وابتسامته، وخرج إلى الساحة ليشرب القهوة مع جدي.

جلست قبالته وأنا أغافل جدتي كي أغمس أصبعي في بوقال مربى المشمش.

كان عمي سليمان حريصًا على الطاولة الكبيرة، والإزار الأحمر المصنوع من القطيفة الذي يوضع عليها ساعة الحفل، والبوق الذي ينفخ فيه الخطباء، إلى جانب المحمل الذي يستعمل في نقل الأموات وآلة حفر القبور. كان يركم كل ذلك في ركن من أركان مصلى جدي الذي يظل مغلقًا طوال أيام السنة، باستثناء شهر رمضان والعيدين، فلا وجود لقرية باب القمر بدون هذا العتاد الخاص بالموتى وبالخطب عن الموتى. كل هذا كان تحت مسؤولية عمي.

وكان عمي سليمان هو من يتولى الإشراف أيضًا على ضرب خيام الأعراس، فلا عرس إلا إذا كان عمي حاضرًا، وتحديد موعد الأعراس لا يكون إلا بمشورته وموافقته، فهو من يوزع أيام الصيف لأعراس الشباب، وهو من يتكفل بدعوة الفرقة الفلكلورية والراقصة وهو من يناقش معها ثمن الحفل، وهو وحده من يرفع سعر فرقة أو ينـزله، وهو من ينتقد راقصة ما أو يمدحها، وكلامه نافذ في الأسواق وبين الناس.

وهو من يتكفل بنصب خيم العزاء؛ إذ بمجرد أن يكون هناك موت في أسرة، أول من يخبر بذلك هو عمي سليمان الذي يسرع لخيمة العزاء، وهي خيمة سوداء مصنوعة من شعر الماعز لا تستعمل إلا في هذه المناسبات، ولا يمكن أبدًا استعمالها في ليلة فرح أو عرس، وهو من يُحضر العجوز المكلفة بفتل الكسكس وتحضير عشاء العزاء، لا يُناقش أبدًا في ما يختاره أو في ما يفعله في مثل هذه المناسبات.

وعمي سليمان هو من يشرف على سفر الحجاج واستقبالهم، ولذلك طقوس أخر، من خيام وفنتازيا وقراءة القرآن، ومراسيم توزيع ماء زمزم على الكبار والصغار، فهو من يتولى توزيع الماء المبارك على الجميع بالقطرة، لا ينسى أحدًا ولا يُغضب أحدًا.

كان عمي سليمان سعيدًا أيضًا باستقباله للطلبة المتطوعين صيفًا وخريفًا وربيعًا، القادمين من وهران والعاصمة، وهم يتحدثون كلامًا لا يفقه منه شيئًا، عن الماركسية والاشتراكية والتأميم والإقطاعية وو وو.. كان يعتقد بأن هذه الكلمات هي أسماء لمدن، بعضها يسكنها أشرار، وبعضها يقطنها ناس طيبون. كان معجبًا بسذاجة الطالبات المتطوعات، اللواتي يغرقن طوال النهار في كتابة التقارير عن الاجتماعات التي لا تنتهي مع الفلاحين ورؤساء البلديات ورؤساء التعاونيات الفلاحية للتسيير الذاتي، وكأنهن كن يكتبنها ليقرأها خطباء احتفالات عيد الثورة في الخريف القادم، أو عيد النصر في الربيع القادم، أو عيد الاستقلال في الصيف الذي على الأبواب. ما

يتحدث عنه الطلبة يقوله أيضًا مسؤولو الحزب والوزارة والولاية ورئيس البلدية، سبحان الله.. الجميع يشبه الجميع! يقولون نفس الكلام، ولكن عمي لم يكن يعرف لمن يتوجه هؤلاء بخطبهم وتقاريرهم؟ مع ذلك كان عمي يحب الطالبات ويعطف عليهن ويخدمهن، وكان جدي يحذره من مغبة ما قد يحصل له إذا ما ظل ملتصقًا بهن.

4

أحب مربى المشمش، وأحب أخي مازار أيضًا..
في غفلة مني، يلمحني جدي بطرف عينه وأنا أغمس أصبعي في بوقال مربى المشمش، يقول لي بنوع من السخرية المليئة باليقين: إن هناك نوعًا من شجر المشمش يثمر علب المربى! حيث تعطي الشجرة بدلاً عن حبات المشمش التي تباع في الأسواق علبًا صغيرة، ثم تكبر وتكبر، حتى تستوي فتقطف كما تقطف الفاكهة، وكما حبات المشمش، فمن العلب ما هو صغير وبعضها متوسط وثالثها كبير.
كنت أصدق كل هذا الكلام، وأنا أغطس أصبعي في البوقال وأقول لجدي: لماذا لا نغرس بدل شجرة التين شجرة مشمش تثمر لنا علب المربى؟
وكان يضحك.
كنت أفكر في أصبعي المغطس في بوقال مربى المشمش، وأنا أتبع أخي مازار الذي يسير أمامي، بيني وبينه متران أو أقل، كان سريع الخطى، كالحمَل الوديع، مترددًا، خائفًا كنت أمشي، أجر قدمي في الغبار جرًّا، أمشي خلفه طورًا وإلى جنبه طورًا آخر، كنا نتقدم في اتجاه مدرسة القرية المركزية التي تبعد حوالي ستة كيلومترات عن بيتنا الكبير، بيت الطاعة والكبائر.
هي المرة الأولى التي أقطع فيها هذا الطريق الفاصل بين قريتنا "باب القمر"، والقرية الرئيسية التي تحوي عجائب الدنيا جميعها؛ ففيها: بقالية تفتح مرتين في الأسبوع، يومي الاثنين والخميس، وإضافة إلى ما توفره من حاجيات لفلاحي المداشر، فإنها تقوم مقام البريد؛ إذ تمثل نقطة إيداع جميع الرسائل التي تصل إلى الأهالي من ذويهم وأقاربهم في المهاجر، وكذا بعض الحوالات الشهرية القادمة من مؤسسات التأمينات موجهة للعمال المتقاعدين، الذين لفظتهم آلات العمل الوحشية الفرنسية، والذين عادوا إلى القرية ينتظرون الموت تحت الشمس. يتولى حمل هذا البريد مساعد سائق الحافلة التابعة لشركة الدولة لنقل المسافرين، والتي تعبر القرية مرة كل يوم، وفي مواعيد مختلفة، فساعة مرورها مرتبطة بأعطابها الميكانيكية المتكررة، وبسلامة الطريق التي تقطعها من مدينة تلمسان إلى آخر نقطة لها هي محطة قرية مرسى بنمهيدي، حيث تقضي الليل هناك لتقفل راجعة فجر اليوم التالي. كثيرًا ما كانت الحافلة تغيب لأيام، خاصة في فصل الشتاء، حين يفيض وادي التافنة بماء مجنون بلون التراب، فيخرج عن سريره، جارفًا معه المواشي وبعض البشر والدور والشجر، في مثل هذا الوضع يتعذر على الحافلة عبور المجرى الهائج، وحين تغيب الحافلة لا يقلق ناس قرية باب القمر أبدًا، بل يعدون ذلك من كرم السماء على الأرض، وعلامة من علامات صيف قادم سيأتي بغلة وافرة وخير مديد.
وتضم قرية باب القمر مقرًّا صغيرًا للبلدية، عبارة عن بناية مهترئة تعود إلى زمن الاستعمار، كانت مقرًّا ومخفرًا لحرس الحدود من العسكر الفرنسيين، وبعد الاستقلال اتخذ منها حارس الغابة مسكنًا قبل أن يخليه، لتتحول إلى بلدية حسب التقسيم الإداري الجديد لدولة الاستقلال. أما رئيس البلدية الشيخ سليمان (غريب، كل الناس هنا اسمها سليمان!) فهو الشخص الوحيد في القرية الذي يناسبه هذا الاسم، لما له من قوة خارقة تفوق قوة سيدنا سليمان الذي كلم النمل والجن وكان يعرف لغة الطير و... فرئيس بلديتنا، كما يروي بعظم لسانه، شارك في حروب كثيرة لا تعد ولا تحصى،

إذا ما صدقنا قصصه وجمعنا سنوات حروبه وأسفاره، يكون عمره قد جاوز القرن بكثير؛ فهو قد شارك مع جيوش نابليون في حربه على روسيا، وشارك قائدًا كبيرًا في الحرب العالمية الأولى على جبهة حلب في بلاد الشام، وقاد حربًا ضروسًا مع الحلفاء في منطقة نورماندیا في الحرب الكونية الثانية، وشارك في حرب ديان بيان فو... يمشي في القرية يوم السوق الأسبوعي بكثير من النياشين على صدره، وقد أطلق عليه مساعد سائق الحافلة اسم: بريجنيف، لا أحد في القرية يعرف معنى هذا الاسم، ولكن الجميع يناديه به، وحتى هو قبل بذلك، ولم يعد يحرجه هذا الاسم.
كان بريجنيف يخطب في شعبه من الأهالي كلما أتيحت له الفرصة، يستعد لذلك أيّما استعداد، في اللباس وحلاقة الرأس والشوارب، لهذا الغرض يسافر حتى مدينة مغنية، وحين يعود وبه بقية من عطر رغوة صابون الحلاقة يمر على الجميع كي يشتموا تلك الرائحة المثيرة. خطبته كخطبة طارق بنزياد الجميع يحفظها، فهو يكرر نفس العبارات مرات عديدة في السنة، في الأعياد الوطنية والدينية والمدنية، وفي كل خطبة يقسم أنه سيحرر فلسطين كاملة غير منقوصة، كما حرر الجزائر من فرنسا، وقبلها حرر فرنسا من ألمانيا!! يمسك على نياشينه ويعيد العبارة مرات، ويصفق الناس له كثيرًا، ويفرح كثيرًا حين تمتلئ ملامحهم بشحنة الفرح، ويصبح شبيهًا بطفل خجول.
وبالقرية المركزية توجد مطحنة تُشَغَّلُ يومًا واحدًا في الأسبوع، كل يوم خميس، وهو يوم السوق الأسبوعي، يوم المطحنة يوم لا يشبهه يوم آخر، تلتقي الأحمرة والبغال في ساحة كبيرة، تربط إلى أوتاد أو إلى جذوع بعض أشجار الصفصاف العتيقة، تترافس وتتناهق في غزل أو في عداوة، تصفف أكياس القمح والشعير في خط طويل، ويتطلب تشغيل محرك المطحنة وقتًا طويلاً، يشرع في ذلك منذ الصباح الباكر، إذ يتم السحب على حبل طويل تتعاون عليه كثير من أيدي الزبائن، مرة وأخرى ثم ثالثة وأخرى إلى أن تدور العجلة فيستيقظ المحرك، يزأر قليلاً، ثم ما يفتأ أن يسكت، ليعاد السحب على الحبل من جديد، وفي ذلك للرجال متعة وضحك وتسلية وتعاليق وقحة...
أتبع أخي مازار الذي أحبه وأحب مربى المشمش، حين دخلتُ القرية المركزية أول مرة، بدت لي قريبة من بيتنا الكبير مقارنة بما كنت أتصوره، كنت أعتقد أنها موجودة على مسافة يوم أو أكثر، مشيًا على الأقدام؛ لأن الذين يزورونها لقضاء أمر ما أو للتزود بالبضائع هم من الكبار فقط، أو لربما لأنني كنت أتمناها بعيدة لخوف سكنني هذا الصباح مصحوبًا بألم في البطن، وأنا أستعد لأمشي لأول مرة في ساحة المدرسة.
كان على أخي الأكبر مازار أن يتولى مهمة تسجيلي في المدرسة الابتدائية، وهذا بأمر من جدي، الرجل الذي يحكم البيت الكبير بابتسامة دائمة وهدوء عميق، لا تزعجه ريح ولا يعكر خاطره أمر، لا يُرى إلا وهو يحتسي قهوته المفلفلة، فنجانًا بعد فنجان فوق فنجان، فناجين عليها رسوم الطواويس وطيور الجنة وبعض الكائنات الملونة الغريبة، أو يرتل القرآن الكريم بقراءة أندلسية ناعمة، تشبه إيقاع أداء قصائد الموشحات التي كان يعشق سماعها ساعة القيلولة على أمواج محطة إذاعية إسبانية، ورغم أنه كان يحسن الحديث بالفرنسية، إلا إنه كان فصيح اللسان يتكلم لغة عربية راقية، ولا يفوته شيء أو واقعة إلا علق عليها ببيت من الشعر أو بمثل شعبـي أو بحديث نبوي.
كان جدي الحاج عبد المؤمن مزيان حفيد عبد المؤمن بنعلي الكومي يقرأ الكتب كثيرًا والمخطوطات أيضًا، تعلم اللغة الصومالية والحبشية والسواحلية والأمازيغية، لا يُرى إلا حاملاً

مجلدًا بين يديه، جالسًا تحت دالية عتبة باب البيت الكبير التي ضخم جذعها وتفرعت أغصانها، لتظلل الواجهة الكبيرة ولتمتد حتى سطوح الجيران. في البداية كان يقرأ دون نظارة، ولكن ومع تقدم السن، اضطر في السنوات الأخيرة إلى اقتناء نظارة من ذاك البائع المتجول، الذي يمر بالقرية على بغلته الشهباء التي كان يطلق عليها اسم "الأميرة"، محملة بكل أنواع السلع، من السكر والسميد والزيت والقهوة بأنواعها الثلاثة، والصابون وأغراض الزينة للنساء، وصبغة خاصة بلحية جدي. كان البائع الجوال "صاحب الأميرة"، هكذا كنا نسميه، يقايض سلعته بحبات البيض، وبمكاييل القمح والنخالة والشعير والفول والجلبان، وما توفر من غلل فلاحية أخرى.
بمجرد اقتناء جدي لزوج النظارة، تضاعفت ساعات القراءة لديه، وزاد اهتمامه بالموسيقى الأندلسية التي كان يفقه في طبوعها من الحوزي والغرناطي والصنعة والمالوف، وعاد ليقرأ بعض الكتب بلغة الرومي، ولم تعد عيناه تتعبانه، وارتاحت جدتي البتول فلم تعد تقطر له ذلك العقار الذي كان يتقاسمه مع الديك ميمون المحرر عند العصر، وبعد انتهاء وقت القراءة وقبل النوم، لقد تخلص من التقطير وعاد إلى بهجة الكتب، وعادت الابتسامة لترتسم من جديد على وجهه، وقد صغر عدة سنوات من عمره. القراءة تُكبر الروح، وتقاوم الخرف، والفرح الذي تمدنا به يسقط من العمر سنوات، القلب الفرح لا يترك الجسد يهوي إلى ظلمة الشيخوخة بسهولة، الفرح طاقة مقاومة في الجسد المتماهي مع الروح.
وحين شاهدت التحسن الذي طرأ على صحة جدي نفسيًّا وجسميًّا جراء استعمال النظارة؛ قررت جدتي البتول اقتناء زوج نظارة للديك ميمون، لكنها تراجعت خوفًا من أن يقال عنها بأنها ضيعت عقلها وهي التي تصغر جدي بعشرين سنة أو أكثر.
مشيت خلف أخي مازار وأنا أفكر تارة في مربى المشمش والأشجار التي تثمر علب مربى المشمش، وتارة أخرى في جدي، في لون لحيته، وفي لغاته الكثيرة، وفي ابتسامته التي لا تذبل.
كانت ساحة المدرسة التي عبرناها خالية من التلاميذ، لا حركة فيها، صمت وجهنم، الشمس حادة تسقط أشعتها الرصاصية مباشرة على رأسي الذي تولى جدي جز شعره بالشفرة على آخره. أشعر بمخي يغلي داخل الجمجمة، وأبحث عن ظل فلا ظل إلا ظلي الذي أسحبه صغيرًا بجواري، ظل منتصف النهار، وذباب عنيد يتبعني ويحط على قمة رأسي وعلى أذني فأنشه بعصبية. يطير ثم يعود، ذباب ملحاح يثير الأعصاب. ونحن نتقدم من باب الإدارة، أو هكذا تصور لي الأمر، شعرت بثقل في مثانتي، وبرغبة ملحة في التبول، وازداد مغص بطني، فجأة لاحظت على أخي مازار بعض التردد قبل أن يدق الباب، كان هو الآخر خائفًا، أو هكذا بدا لي، ولكنه لم يكن يريد أن يَظْهرَ أمامي بهذه الحال من الخوف، لذا حين التفت إلي وأدرك بأنني استشعرت خوفه، ولاحظت التغيير على مزاجه، وهو على خطوتين من هذا الباب العجيب، تشجع ودق الباب برفق وتردد، ثم دقها ثانية بعد أن لم يسمع ردًّا من الداخل، ولم يطل بنا الانتظار حتى فُتح الباب، كان على عتبة الغرفة رجل قصير، بالغ القصر، بطول أخي أو أصغر، حاد النظر، كثير الالتفات، كأنما يرتقب أمرًا أو شخصًا تأخر، يرتدي بذلة شتوية رمادية اللون بربطة عنق مزهرة، وهو يتصبب عرقًا، دون مقدمة، قال لأخي بصوت حاد متناسب وطوله:
- هل أحضرت جميع الأوراق الضرورية لتسجيل هذا الجحش؟
شعرت بمثانتي تزداد ثقلاً.
ثم بدأت أفكر في شجرة المشمش التي تثمر علب مربى المشمش.

لم تكن في حوزة أخي سوى ورقة واحدة، مطوية بعناية، أخرجها من جيبه وأفردها أمام السيد صاحب البذلة الشتوية في عز الصيف القائظ، ورقة هي شهادة الميلاد، تناول السيد القصير بتأفف الورقة، رفع نظارته ووضعها على أرنبة أنفه ودقق النظر في شيء ما في الورقة، ثم نطق باسمي: مزيان أنـزار. قلت: نعم. نظر إليّ أخي مستهجنًا تصرفي، ثم قال: نعم هو هذا أخي الصغير أنـزار.
نظر الرجل القصير الغارق في عرق إليّ وابتسم، وقد بدا على ملامحه لطف سقط فجأة من السماء، وظهرت أسنانه المغلفة بذهب أصفر لماع في ابتسامة ناعمة.
شعرت بخفة في مثانتي، وتمنيت لو أنني أغمس سبابتي في بوقال مربى المشمش.
ثبت سيجارة دون مصفاة بين شفتين غليظتين، سحبها من علبة، أخرجها من جيب معطف شتوي كبير كان معلقًا على ظهر كرسي مجاور، أشعل القداحة، بمجرد أن التهبت ضفيرتها عبق المكان برائحة البنـزين الحاد، سحب نفسًا عميقًا، عاد وجلس خلف مكتبه. كان أخي مازار واقفًا قبالة المكتب دون حراك كتمثال من البرونـز، تناول السيد ذو الأسنان المذهبة ريشة، بعناية وهدوء أغمدها في محبرة موضوعة على طرف المكتب الخشبـي العتيق، ثم خط شيئًا على سجل كبير، من مكاني هذا توقعت أن يكون ما كتبه هو اسمي، على كل أنا أحسن كتابة اسمي بالعربية وبالفرنسية على السواء، حتى قبل أن أدخل المدرسة، علمني ذلك جدي. كنت أكتب اسمي من اليمين إلى اليسار مهما كانت اللغة التي أستعملها عربية كانت أم فرنسية، أبدأ كتابة اسمي بالفرنسية من آخره إلى أوله، وكان جدي يضحك كثيرًا لطريقة كتابتي الغريبة، على الرغم من محاولاته المتكررة لم يستطع تصحيح اتجاه الكتابة عندي.
لم يطل بنا المكوث في مكتب السيد القصير، الذي أعتقد أنه لم يكن سوى مدير المدرسة، أكد لي ذلك أخي مازار لاحقًا ونحن في طريق عودتنا.
بمجرد أني شاهدت، وبأم عيني، أخي مازار يتكلم مع مدير المدرسة، فقد كبر في ذهني كثيرًا، أصبح من عالم الرجال، وازداد خوفي منه درجات، وشعرت بأنه يستحق أن يكون قائدًا كبيرًا، وأن من حقه أن يهذبني ويعيدني إلى سواء الطريق إذا ما خرجت عنه.
ومن يومها أحببت أخي مازار كما أحب مربى المشمش.
أمام أخي أنا لست سوى أنـزار الصغير.. بقة، حشرة.
قبل أن نغادر المكان، والذي تمنيت الإفلات منه بسرعة، نظر إلي المطقم وقال: يبدو لي وكأنك أصغر سنًّا مما هو مثبت في شهادة الميلاد هذه.
وضحك فظهرت أسنانه المذهبة.
لم يرد أخي مازار على استفسار المدير، معتبرًا ذلك من باب المزح، ولكني عرفت فيما بعد، حين وصلت مرحلة اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية، بأنني كنت مسجلاً، ومن يومي الأول، باسم ابن عم لي كان يحمل نفس الاسم "أنـزار"، وهو أكبر مني بسنتين، وقد توفي عن عمر السنتين، بعد مرض مفاجئ لم يطل به سوى ثلاثة أيام، ولم يتم شطب اسمه من قائمة أحياء الحالة المدنية في البلدية، فقد نسي عمي القيام بذلك، ولم يكن ذلك بهَمٍّ ولا بمُهِمٍّ، فكثير من الأحياء من أبناء الدشور وبناتها غير مسجلين، وكثير من الأموات غير مشطوبين من القوائم. مرات فكرت في أن أرفع طلبًا للمدير لتصحيح الخطأ الوارد في اسمي، والمطالبة بتغيير اسم الوالد وسنة ميلادي، باعتبار

أن ما ورد في الأوراق الثبوتية للمدرسة هو اسم عمي وابنه أنـزار المتوفى، لكن والدي وعمي وجدي، الجميع اعتبر ذلك من ضياع الوقت.
فأنا هو أنا كنت ابن أبـي أو ابن عمي في الأوراق الثبوتية، الأمر سيان. كان عليّ إذن أن أعيش منذ تلك اللحظة باسم ابن عمي، وبالتالي أن أكون رسميًّا ابن عمي الصافي لا ابن أبـي يحيى.
ومنذ ذلك اليوم لا زلت أحمل في أوراقي الرسمية اسم ابن عمي أنـزار.
هكذا بدأت مغامرتي مع المدرسة باسم غير اسمي، دخلت المدرسة باسم ميت وبنسبة إلى عمي، ولا زلت أحتفظ بذلك حتى اليوم.
مرات كثيرة أقول: الأسماء كذبة، والانتساب إلى الأب مشكوك فيه دائمًا، المهم أنا ابن أمي، هذا الأمر لا شك فيه.

5

كانت أختي الكبرى هاجر حكيمة وهادئة، تبدو أكبر من عمرها بكثير، امرأة في العشرين أو تخطت ذلك بقليل، لكنها قادرة على قيادة الجميع من آل عبد المؤمن بنعلي الكومي الصنهاجي الأمازيغي، جميع من بالبيت، الكبير مثل الصغير، يحترمها ويقدرها ويمشي بأوامرها، الذكور مثل الإناث، كلمتها مسموعة، فوق كل كلام.
من أين جاءت هاجر بكل سلطة الاحترام هذه؟ مصدر ذلك يعود دون شك إلى تعاطف الجميع معها نتيجة ذلك التشوه الذي أصابها في ساقها الأيمن، والذي تحاول باستمرار إخفاءه عن عيون الناس بارتداء جوارب سوداء على طول السنة، أو فساتين تصل حد الكعبين أو سراويل طويلة. هو التعاطف الذي تحول إلى احترام وصل حد الطاعة.
لقد أصيبت أختي هاجر منذ طفولتها المبكرة، كان عمرها آنذاك لم يتجاوز السابعة، بمرض خبيث يسميه أهل القرية بـ"مرض الخنـزير"، من أين جاء الأهالي بهذا الاسم؟ لا أحد يدري! من جراء مرض الخنـزير هذا يتعفن لحم المصاب ويتفسخ، ينتهي المصاب به إلى الموت، حيث يقرض الوباء الجسد قرطًا قرطًا، ولا شفاء منه، آخر الدواء الكي، قد يبرأ بالكي، وحين يكوى الموضع المصاب في الجسد بواسطة نصل حادة، يسخن حتى يحمر ثم يتم شفط الجزء المقيح منه، يترك هذا الحرق بعد شفاء المرض آثار تشوه بادية على الجلد واللحم وقد يصل إلى العظم. وعلى الرغم من حرص أختي على ستر تشوه ساقها، إلا إن الجميع كان على علم بمرضها، وكنت كلما رأيت ساقها بكل ذاك التشوه أرتجف وأصاب بتنمل في ساقي. ومع أنها كانت جميلة الوجه، بعينين سوداوين، وسالف طويل، مربوعة القد، مبتسمة دائمًا، إلا إنه لا أحد من أبناء قرية باب القمر أو القرى المجاورة والذين يعدون بالعشرات، تجرأ على نسيان مرضها وتشوه ساقها، وتقدم إلى خطبتها.
كان تأخر زواج هاجر بالنسبة لأمي لعنة سقطت على الأسرة بأكملها، فبمرضها، وعدم تقدم الشباب لخطبتها، تكون قد قطعت طريق الزواج أمام أخواتي الأخريات واللواتي عددهن أربعة: فاطمة وعائشة وزهرة وسكينة، وهن جميعًا أصغر منها، وقد بلغن سن الزواج الذي يبدأ في الخامسة عشرة وينتهي قبل بلوغ سن العشرين حسب التقاليد، من تجاوزت العشرين بيوم واحد، بمنطق الأهالي؛ أصبحت في عداد العوانس، في عداد الكوارث البشرية!
كانت هاجر ذكية جدًّا، فتاة استثنائية، حفظت جزءًا غير يسير من القرآن الكريم دون أن تدخل مدرسة الكتاتيب، حفظت كل ذلك من جراء جلوسها المستمر إلى جوار جدي الذي لا يتوقف عن ترتيل كتاب الله صيفًا وشتاءً، وأصبحت أيضًا قادرة على كتابة اسمها بالعربية وبالفرنسية ثم لاحقًا كتابة فقرات وآيات وأبيات شعرية. كانت تتفنن في كتابة اسمها باللغتين: مزيان هاجر أو Meziane Hadjer، وحفظت أيضًا بعض الأناشيد الوطنية والمحفوظات من الكتب المدرسية دون أن تجلس على كرسي في مدرسة عمومية ولو ليوم واحد، لقد تلقفت كل ذلك من فم ومن كتب ودفاتر أخي مازار الذي كان يكبرني بأربع سنوات.
شيئًا فشيئًا وبهدوء، أصبحت هاجر قائدة البيت الكبير كله، نصبها الجميع ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، دون أن يعرفوا لماذا ومتى، رئيسة لا يشاركها أحد في الرياسة واتخاذ الرأي. الجميع

يستمع إلى رأيها الحكيم، من الجد إلى أبناء العم وأخواتي وأخي، مرورًا بأمي وأبـي وزوجة عَمّي وعمتي فاطنة، وصولاً إلى البائع الجوال "صاحب الأميرة"، لا أحد يتجرأ على معارضة رأيها أو نقضه، الجميع يستمع بانتباه شديد إلى صوتها الذي كان خافتًا دائمًا، ولكنه مسموع من كل الآذان، لم ترفع صوتها يومًا في شخص ما، ولا تعرف طريقًا إلى ذلك، لم أشاهدها ولو لمرة واحدة في حالة غضب.

في عيني والدي تربعت هاجر على عرش كان لأمي لزمن طويل، ورضيت أمي بذلك وتنازلت لهاجر على ذلك طواعية؛ فأصبح والدي لا يقوم بشيء إلا بعد استشارتها، وكانت لا تخطئ في إسداء الرأي، كان أبـي يستمع إليها كالطفل، لست أدري من أين جاءت أختي بكل هذه القوة والهيبة التي فرضتها على كل من يعيش تحت سقف البيت الكبير؟!

وحدها جدتي البتول لم تكن تحب هاجر، تخالفها في كل ما تقول، ولكن هاجر لم تكن لترد على جدتي، تخفض رأسها وتسكت. من شدة حقدها كانت جدتي لا تتردد في تذكير أختي، وفي كل مرة، بالتشوه الذي في ساقها؛ مما يجعل هاجر تنسحب إلى غرفة توجد في أقصى ساحة البيت الكبير، مخصصة لتخزين مؤونة العام من قمح وشعير وبرسيم وعدس، وفاصولياء وجلبان وثوم وبصل، ولحم خليع مجفف وفلفل أخضر وأحمر ومواد أخرى، تغلق فيها على نفسها لبعض الوقت، وتبكي وحيدة، مرات شاهدتها تبكي، فبكيت معها دون أن أعرف لماذا كنتُ أبكي، ولا لماذا هي تبكي؟ كانت ترفض أن تكشف عن ضعفها أمامنا، إنها الأصلب منا جميعًا بهشاشتها وبصمتها وتعففها، لم أسمعها ولو لمرة واحدة ترفع صوتها في وجه أحد ناهرة أو غاضبة، مبتسمة هي هاجر دائمًا، وكأنما في ابتسامتها تخفي آثار ألم حاد يعصرها من الداخل.

ذاك اليوم كان طويلاً وتراجيديًّا!

ذاك اليوم بكت أمي، بكت ولا أحد عرف لماذا كانت تبكي وبتلك الحرقة وبذلك الغموض؟ انهارت بمجرد أن دق باب البيت الكبير ناس غرباء، كانت على علم بمجيئهم، جاؤوا طالبين يد أختي فاطمة للزواج من ابن لهم، كانت فاطمة تصغر هاجر بسنة وبضعة شهور، وهي في منطق الزواج تعد قرونًا. لم يكن باستطاعة أمي إخفاء حزنها ودموعها، وهي التي لا تستطيع إخفاء شيء من ملامحها الملائكية، كانت لحظة تخطي هؤلاء عتبة البيت الكبير لخطبة فاطمة هي بمثابة بداية تنفيذ حكم الإعدام في حق هاجر الكبرى، قبول خطبة الصغيرة قبل الكبيرة، هي نهاية حلم هذه الأخيرة بالزواج الذي تنتظره كل عاتق منذ أن تظهر بشارة الدم بين فخذيها، وربما حتى قبل ذلك.

أبـي يحيى الرجل الحساس الرقيق الذي، على سنة والده عبد المؤمن، يحب العطور وركوب الخيل والصلاة، ويعشق أمي عشقًا لم يطرأ عليه صدأ ولا ملل؛ لم يكن قادرًا على مواجهة هذا الموقف، لذلك تحاشى استقبال أسرة الخطيب، فكان على جدي، عاشق القهوة، والذي لأول مرة نسي أن يصبغ لحيته؛ فظهر فيها بعض الشعر الأبيض، أن يستقبل الضيوف بما يليق بهم، مع ما كان عليه هو الآخر من تأثر بالغ، لقد تولى جدي الذي كان يحب هاجر المهمة العسيرة، القرار المزلزل، فقبل ودموعه على خده تزويج أختي فاطمة بذلك الخطيب.

مع أن أيام الخطوبة هي أيام أفراح، إلا إن ذلك اليوم كان على البيت الكبير يوم محنة لا يشبهه سوى يوم عزاء في موت عزيز لا يُعوض، ومع ذلك كانت هاجر تحتضن فاطمة وتمسد على شعرها، تقبلها وتهنئها، بل إن هاجر هي الوحيدة من كل ساكنات البيت الكبير التي أطلقت سيلاً من الزغاريد فرحة لخطوبة فاطمة، كانت تشعر كأنما هذا اليوم، حتى وإن كان يوم حزن عليها إلا

أن فيه تحررت الأسرة من عقدة "البنت الكبرى"، وفتح الباب أمام إمكانية قبول زواج أخواتي وبنات عمي وعمتَيّ.
بعد أسبوع شرعت الأسرة في تحضير شؤون زواج أختي فاطمة، لم تتوقف أمي عن البكاء، أما أبـي فقد اختفى نهائيًّا عن الأنظار، ولم يعد جدي يجلس إلى ظل الدالية، يشرب قهوته بكتمان وسرية. كان جميع أفراد الأسرة الكبيرة حزانى، باستثناء جدتي البتول التي ظهرت عليها ملامح فرح بعد أن كانت عبوسة باستمرار، ولم تعد تعاني من مرض السكر الذي سبب لها انهيارًا ونقصًا كبيرين في الرؤية.
وبشجاعة نادرة، تولت هاجر تحضير أمور عرس أختها فاطمة، فمنذ اليوم التالي لقبول الخطوبة، لم تتوقف عن متابعة كل صغيرة وكبيرة تخص شأن العرس، من اختيار أنواع الأثواب وتعديس البلوزات وتزويقها، إنها هي من اختارت الخيّاطة الماهرة، ورافقت فاطمة لأخذ المقاسات الأولية والنهائية. كانت تريد أن ترفع عن فاطمة كل شعور بالذنب، لقد دخلت في حالة من الكآبة لأنها شعرت وكأنما بهذه الخطوبة كانت السبب في غلق الباب عن كل زواج محتمل لأختها الكبرى هاجر.
كانت هاجر سعيدة لزواج فاطمة، لقد حررت أخواتها وتحررت هي معهن، وقد أصرت أن ترافقها، ليلة فرحها، حتى بيت أهل العريس، كانت أكثر عناية بها من أمي التي دخلت في حالة من الهذيان تارة، والصوم عن الكلام تارة أخرى، حتى إنها ومن لحظة إخراج فاطمة في اتجاه بيت زوجها، أصبحت تكلم نفسها ولا تتوقف عن دندنة أغان دينية باللغة الأمازيغية تارة وبالعربية أخرى، وقاطعت الأكل ودخلت في صيام الدهر، وأقسمت ألا تضع كحلاً على حواف عينيها، وألا ترتدي الأبيض وألا تأكل حلوًا، هي التي كانت دائمة الزينة والتعطر والبياض والابتسام.
وما كدنا في البيت الكبير ننسى يوم فاطمة ونعتاد على غيابها، حتى حل على البيت الكبير يوم آخر أكثر تراجيدية؛ ففي الصيف التالي دق باب البيت الكبير خطباء جدد، جاؤوا في طلب يد أختي الصغرى عائشة، والتي تصغر فاطمة بسنتين، وتصغر هاجر بأربع سنوات تقريبًا، فكان أن تعمقت عزلة أمي درجات وأكثر، ونحف وجهها وفارقت ملامحها الابتسامة نهائيًّا، وازداد هذيانها وارتفع صوتها بالغناء الديني عند الصباح والمساء؛ فكانت تجلس في مجلسنا لتشرع، دون سابق إنذار، في ترديد أغان ومدائح نبوية بصوتها الجميل، تارة بالعربية وأخرى بالأمازيغية، ومرات تقوم وتبدأ في رقص الإخوانيات، رقص الحلولية والدراويش، فتُجلسها هاجر والدمع في عينيها.
وما أن علم جدي بمجيء هذا الخطيب طالبًا يد عائشة الصغرى، وهو الذي يحب هاجر حبًّا لا مثيل له، قرر أن يتوقف نهائيًّا عن صبغ لحيته بالحناء، أو بذلك المعجون الدقيق الذي يستخرج من جذور نبات لا أحد كان يعرف اسمه، والذي كان يقتنيه من عند البائع المتجول، الذي كان هو الآخر حزينًا لأخبار العائلة ومتأثرًا بما رآه من حال أمي، يجلس إلى ظل بغلته الشهباء التي لا تكاد ترى من كثرة ما تحمله من أكداس السلع المختلفة والغريبة على ظهرها، وبعضها يتدلى على جنبيها، وقد نسي تسجيل تفاصيل المقايضات على دفتره الكبير، الذي دأب على تثبيت الديون فيه، والتي يسترجعها بمجرد بيع أول كيس قمح أو شعير من محصول السنة.
أما أبـي، ابتداء من يوم خطوبة عائشة، فقد قرر أن يتخذ من المصلى الفارغ سكنًا له، فيه كان يقضي سحابة يومه يقرأ القرآن الكريم، وبذلك أتقن الترتيل إتقانًا، وحسَّن من صوته الذي كأنما قُدَّ على هذا النص المقدس. كنت أدخل عليه في المصلى فأجده محاطًا بكتب كثيرة، موزعة بفوضى

على الحصير المصنوع من حلفاء عليها رسوم باللون الأخضر والأحمر والأصفر، كتب ومخطوطات في السيرة النبوية وفي تفسير القرآن، وبعضها للأمير عبد القادر الجزائري، وبعض دواوين في المدائح النبوية والآجرومية وألفية ابن مالك التي كان يملك منها عدة طبعات. كان أبـي عاشقًا للنحو العربـي، يحب فيه تلك الاستثناءات وذلك المنطق الذي يحكمه، منطق يشبه لعبة الشطرنج، ما عاد والدي يَقيل في البيت، وهو ما زاد من شدة هذيان أمي التي كانت تعشق القيلولة، أيام الصيف وأيام الشتاء بكل ما فيها من جنس وحميمية، وقاطع طقوس شرب قهوة العصر التي كان لا يفرط في موعدها، يشربها صيفًا بصحبة جدي تحت الدالية التي تغطي نصف باحة الحوش الكبير، وشتاء قبالة باب غرفة نومه التي هي في الوقت نفسه مكتبة وديوان، كان يحرر فيه عقود بيع الأراضي والحيوانات وديون أهالي قرية باب القمر.

ليلة حفل العرس، وكما فعلت مع فاطمة، رافقت هاجر أختها الصغرى عائشة حتى منـزل زوجها، ورقصت الليل كله، كان رقصها غريبًا ومثيرًا، رقصت كما يرقص الطير المذبوح حتى أغمي عليها ثلاث مرات، في كل مرة كانوا يسحبونها إلى غرفة مجاورة، ليضعوا في راحة كفها الأيسر مفتاحًا ويرشوا وجهها بالماء البارد، ويغرقوا قدميها الصغيرتين في سطل ماء بارد أيضًا، لحظات ينتفض فيها قلبها وترتجف عضلاتها وتستعيد قوة عقلها، تشرب ماء كثيرًا وتعود إلى الرقص.

في المرة الثالثة حين فتحت عينيها، وجدتني بجوارها أراقب عودتها إلى الوعي شيئًا فشيئًا، احتضنتني، قبلتني، وحاولت أن تغفو قليلاً إلا إن النوم هرب من عينيها. نظرت إليّ، لم تكلمني، دفنت وجهها في الوسادة فتصاعد سيل من شهيق بكائها المختنق. كانت تتنفس بصعوبة، وشعرت أنا أيضًا بالاختناق، أحسست بطوبة ملح كبيرة تسد حنجرتي الصغيرة.

بكيت... لست أدري لماذا بكيت؟!

6

كانت هاجر متعلقة بشكل غريب بعمي سليمان، وكان هو الآخر يحبها حد الجنون والهوس، لا يُرى إلا ملتصقًا بها أو مقهقهًا في أذنها كالطفل، وحده عمي سليمان كان فرحًا لزواج فاطمة وعائشة، ويتمنى صباح مساء التحاق الزهرة وسكينة الأخيرة بهما، وكأن زواج هذه الأخيرة هو الحكم ببقاء هاجر إلى جنبه دائمًا وإلى الأبد.

رفض العم سليمان أن يتزوج، لا أحد استطاع أن يفسر لماذا يعرض سليمان عن الزواج؟ ولموقفه هذا ظل عرضة للسخرية ولكثير من التعليقات الوقحة من قبل شباب القرية والضواحي، خاصة في سهرات حفلات الأعراس، إذ يذكرونه دائمًا بتأخره في الزواج، ويعيرونه على أنه لا يملك ما يملكه الرجال، ذلك الشيء الغليظ الصلب ما بين الفخذين، فكان لا يتردد في إنزال سرواله وإخراج عضوه وسط الجميع، قائلاً: إذا كنتم تريدون البرهان فهذا دليلي، ثم يقهقه ولا يعيد قضيبه إلى سرواله إلا إذا سكت الجميع.

كان عمي سليمان إذا قام الصبح أول من يسأل عنه هي هاجر، ولا يشرب قهوته إلا بصحبتها ومن يديها، وإذا أراد مغادرة البيت الكبير لا يخبر أحدًا إلاها، وإذا سقط زر من قميصه أو معطفه، أو احتاج إلى من يرتق له سرواله أو معطفه فلا أحد غير هاجر من يقوم بذلك، وإذا لم تكن متوفرة أو كانت منشغلة في شأن آخر تراه ينتظرها كالطفل، واقفًا أمامها والزر أو المعطف أو السروال في يده، حتى تنهي ما بين يديها ثم يطلب منها ما يريده، ولم تكن هاجر لترده أو ترفض له طلبًا، بل كانت تجد في ذلك نوعًا من التفضيل لها على الأخريات. كانت يدها ناعمة، وكانت خدومًا صبورًا، مبتسمة على الدوام للناس وللحياة، مع أن الحياة لم تبادلها سوى العبوس والتجريح والمرارة.

مرات كنت إذ أشاهد أختي هاجر والعم سليمان جالسين في كامل الانسجام والتناغم، وإذ أراها في قمة فرحها وهي تحادثه، وألحظ عينيه وهما تشعان نورًا وهو يستمع إليها بصلاة، ويجيبها بعفوية طفل، أمام هذا الذي أرى، أتساءل قائلاً بيني وبين نفسي: لماذا لا يتزوجها ويرتاح ويريحها ويريح أمي المسكينة التي نحف جسدها وخف عقلها منذ أن تزوجت فاطمة ثم عائشة؟ حين قلت ذلك لأمي صفعتني بقوة على وجهي، وقرصتني من فخذي، وقالت لي بعنف وبصوت خافت خوفًا من أن يسمعنا مَنْ حولنا، ولم يكن هناك أحد من حولنا، وكأنما كانت تتستر على شيء غريب قد ينفجر في أي لحظة: لا تقل ذلك أبدًا؛ فهذا حرام، من يتزوج عمه؟!

لم أصدق كلام أمي، لم يقنعني منطقها وهي التي بدأت تهذي في الليل والنهار.

رجل مثل العم سليمان لن يكون سوى الزوج المناسب لهاجر.

مع ذلك، وفي خلوة هادئة، بعيدًا عن عيون أهل البيت الكبير، لكم صادفت ولمرات عديدة أختي هاجر وهي تحضن بدفء يد عمي بين يديها الصغيرتين، وتكلمه بهدوء وكأنما تفضي إليه بسر لا تريد أن يشاطرهما في سره آخرون.

مع ذلك لم تكن علاقة أختي بعمي سليمان لتغضب جدتي ولا حتى جدي، لم يكن الأمر يثير لديهما أي قلق، على الرغم من أن بعض الألسنة بدأت تندلق في القرية، وتهمس وتقص حكايات لا تنتهي عن هذه العلاقة.

بضغط من والدي وبإيعاز من أمي، وذلك لإطفاء هشيم الحكايات التي بدأت تطول وتتلون في الحارات والأسواق حول علاقة هاجر بعمي سليمان؛ سافر هذا الأخير إلى مدينة وهران، حيث تدبر له أبـي عملاً في ميناء المدينة، وتنفس الجميع الصعداء وسكتت الألسنة. وزاد حزن هاجر وخافت أن يعود إليها دود مرض الخنـزير ليأكل ما تبقى من لحم ساقها.
كانت هاجر تنتظر بشغف عودة سليمان من ديار الغربة الوهرانية القاتلة، ربما بدرجة تفوق تلك التي كانت تنتظره عليها جدتي وجدي، وكان حين يحل بالبيت الكبير لقضاء شهر عطلته في الصيف أو رمضان، فعمي كان يفضل قضاء شهر رمضان في قرية باب القمر، مع إنه لم يقم في حياته صلاة ولكنه كان شديد الالتزام بطقوس رمضان؛ كانت أختي هاجر هي أول من يستقبله عند رأس القرية، وكانت تفضل أن تستقبله حافية حتى يدرك كم هو انتظارها عميق وشوقها كبير. وهي من تتولى توزيع الهدايا الكثيرة التي يحضرها معه لكل أفراد الأسرة الكبيرة واحدًا واحدًا، من جدي إلى أصغر طفل في البيت الكبير. كانت الهدايا عبارة عن ملابس جاهزة للكبار والصغار، وقطع أثواب نسائية وحلوى وبعض علب المصبرات، لا ينسى عمي سليمان أحدًا، لكل هديته بالمقاس وباللون الذي يفضله، أما هاجر فكانت في إشرافها على توزيع الهدايا كالمايسترو لا تخطئ حركة، كل شيء فيها موزون بميزان الذهب، لا أحد ينتقد حركاتها أو يحتج على ما يصدر منها من تعليقات ونكت خفيفة، الجميع، باستثناء جدتي البتول، كان ينتظر أن تقوم بذلك وبتلك الطريقة، وأن لا أحد يقوم بذلك سواها، كأنما وُجدت في هذا البيت الكبير لاستقبال عمي والاحتفال به ولتوزيع هداياه، كانت في كل ما تقوم به سعيدة أكثر من أي شخص آخر.
كانت هاجر تعد أيام عطلة عمي يومًا بعد يوم، وتحزن لانقضاء الأيام يومًا يومًا، ومع غروب يوم تسكنها موجة كآبة. كانت لا تتركه دقيقة لوحده، تلبـي جميع طلباته من السحور إلى السحور، عدا ساعة الفراش حين يأوي إلى غرفته، فلتحق به جدتي التي بدأت تتكلم لوحدها، مما اضطر جدي إلى إصدار فتوى ترخص لها بالإفطار. لا أحد يهتم لما تقوله باستثناء هاجر التي كانت تجلس إليها، وتحضر لها أكلها عند منتصف النهار، وإبريق القهوة عند الزوال.
وكانت أختي هي الأخرى تصاب بحزن عميق؛ إذ تظهر عليها بعض حالات من التوتر الذي يعصف بها ثلاثة أيام قبل موعد سفر العم سليمان، ثلاثة أيام من جحيم. كانت تخاف عليه ركوب الحافلة وتخشى عليه من رطوبة تلك المدينة البعيدة، ومن وحدة العيش وجفاف الروح هناك في وهران التي يقال عنها إن النساء فيها تبلع الرجال أحياء.
كانت هاجر هي من يرتب له حقيبته ليلة السفر، تضع له فيها قمصانه التي تكويها بمكواة حديدية تسخنها على الجمر، تقضي يومًا كاملاً في عملية الكي، تبكي وتغني وتقاطع الأكل والشرب والكلام، تدندن أغنية لا تغنيها إلا مرة واحدة في السنة، تغنيها حين تشرع في كي ملابس عمي سليمان، أغنية غريبة عن الغريب والغربة.
وكانت تسلق له بيضًا وتضع له لوزًا وعسلاً حرًا وزيتونًا وكأنما هو ذاهب إلى بلاد الواق واق، أو إنه سيعبر الصحارى الواسعة الموحشة. كانت توصيه كما توصي أم ابنها الصغير: إن بلاد وهران باردة ببحرها، عليك أن تلبس جيدًا وأن تأكل كثيرًا. وكان عمي سليمان يضحك فتبين بعض بقايا تبغ الشمة بين أسنانه التي بدأ ينخرها السوس.
لم تكن أختي هاجر تنتظر من عمي أن يعود ذات يوم إلى قرية باب القمر يقود سيارة من نوع بيجو 403، أو بجيوب ملأى بالفلوس، لكنها كانت تريد أن تستبقيه في البيت الكبير طوال العمر.

غاب عمي سليمان عامين وتسعة أشهر، ومع بداية العاشر قرر العودة، استغرب الجميع منه ذلك إلا هاجر؛ فكأنما كانت تنتظره أن يدق الباب بين اللحظة والأخرى، بين الليلة والأخرى. جلس بين جدي وجدتي، أخرج وثائقه ثم مزقها أمامهما، وأقسم ألا يغادر قرية باب القمر إلا إلى المقبرة. وبالفعل من يومها لم يضع له قدمًا في سفر ولو إلى مدينة قريبة، كان أبعد ما تصل إليه قدماه هو المداشر المحيطة بقريتنا باب القمر. وكان لا يتأخر عن الأسواق الأسبوعية الشعبية، خاصة بعد أن أصبح مشرفًا على ترتيب ساحات الأسواق، فهو الذي يوزع الأماكن ويحفظ النظام ويحل الخلافات بين الباعة والزبائن، أو بين الباعة أنفسهم حينما يختلفون عن أحقية أماكن عرض بضاعتهم.

ويوم عاد العم سليمان من وهران كان الفرح باديًا على هاجر التي غيرت من تسريحة شعرها لأول مرة، وبدت أصغر سنًّا، أصغر حتى من أصغر أخواتها سكينة.

لا أحد عرف كيف نسجت هذه العلاقة الغريبة خيوطها الحريرية ما بين هاجر وعمي سليمان، وكيف تطورت وتعمقت وتفرعت حتى أصبحت بكل هذا اللهب، وبكل هذه الحكايات على أفواه الناس، والتي تزيد من عطرها ومن خوفها أيضًا!

وبمجرد أن عاد العم سليمان إلى القرية عادت لتورق شجرة حكاية علاقته مع هاجر بين ليلة وضحاها، وعاد والدي إلى قلقه وأمي أيضًا إلى كآبتها وخوفها الحدسي من أي فضيحة قد تطلع من فراش البيت الكبير.

لم يعلق جدي ولا جدتي عن عودته، فهما لم يكونا أصلاً راضيين عن رحيله إلى وهران المدينة المخيفة ببحرها وهرجها ونسائها، بل إنهما أبديا كثيرًا من الراحة والاطمئنان لعودته.

في اليوم التالي لعودة العم سليمان إلى البيت الكبير حدث ما سأرويه لكم، وبالتالي نسي الناس حكاية العشق بينه وبين هاجر:

... دقت باب البيت الكبير عائلة من الضواحي تطلب يد أختي الزهرة للزواج من واحد من أبنائهم، هي الرابعة في ترتيب الإناث تنازليًّا، تم الاتفاق بعد أن تشاور أبـي مع جدي، ولكن الكلمة الأخيرة كانت لأمي، على الرغم من حالتها الصحية والنفسية في مثل هذه المواقف؛ فأمي هي كل شيء، ولكنها لا تفصل في أمر إلا إذا استشارت بدورها هاجر الكبرى.

وكالسابقتين تولت هاجر ترتيب الحفل وتحضير جهاز العروس، وصاحبتها في طقوس الحمّام وأشرفت على تقديم الدعوات دون نسيان اسم أو تقديم أحد على آخر؛ فالناس مراتب!

ومع عرس أختي الرابعة في الترتيب، ازداد تعلق العم سليمان بهاجر حتى أصبح يتبعها كظلها أينما حلت. وفجأة بدت على جدي ملامح العجز والإنهاك، بين عشية وضحاها زاد عمره قرنًا، فجأة تقوس ظهره، وشاخ شعر لحيته وبدأ ينسل. لم أكن أعرف أن اللحى تشيخ كما يشيخ أصحابها، من ليلة خروج الزهرة في موكب عرسها لم يغادر غرفته، ظل ممددًا على سريره ثلاثة أشهر متتالية، ولم يصم رمضان الذي جاء في عز الصيف. كان يشرب القهوة متتبعًا بعينيه الزرقاوين من خلال النافذة تارة ومن الباب تارة أخرى الشمس وهي تعبر السماء فوق رأسه، من طلوعها وحتى مغيبها، حيث يسرع الناس لمائدة الإفطار.

هذا الصباح، وكان يوم ليلة القدر، نادى جدي على والدي، وشعر هذا الأخير بأن في الأمر أمرًا، بدأ جدي الحديث عن مكان دفنه، وقد استغرب أبـي مثل هذا الكلام الذي يشبه الهذيان أو الحكمة، فجدي لا يرغب في أن يدفن في مقبرة موحشة، إنه يريد أن يواصل حياة الميت في البيت الكبير،

يسمع أصوات أهله ويعرف عن قرب أفراحهم وما قد يصيبهم من أسى؛ لذا طلب من والدي وبصيغة تشبه الترجي، أن يدفن إلى ظل شجرة التين المغروسة بزاوية الحوش، والتي كانت تعطي تينًا عجيبًا بشكل مكعبات! وكان الناس لا يأكلون منها إلا لمداواة مرض ما، فهم يعتقدون بأنها تشفي جميع الأمراض، تلك التي تصيب الصغار والكبار، النساء كما الرجال، لا جدي ولا والدي كان مؤمنًا بمثل هذه المعتقدات. عدَّل من جلسته وشرب من فنجانه مشروبه الأسود المفضل، ثم قال لوالدي مكررًا ذلك ثلاث مرات: أوصيك يايحيى ياولدي أن تحفر على شاهد قبري سورة "التين"، وقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5).

ثم بدأ يتحدث بصوت يكاد لا يُسمع وإذا سمع لا يُفهَم، عن آدم الذي حين عصى وفقد ثيابه تستر بورق التين، ويروى في كتب التفاسير أنه لما نـزل الأرض مطرودًا من الجنة كان متزرًا بأوراق التين، وإذ وجد نفسه وحيدًا في الخلاء وشعر بنوع من الوحشة والوحدانية، جاءه سرب من الظباء فاستأنس بها، وأعطاها من ورق التين فأكلت، فمنحها الله الجمال والملاحة والمشية الفاتنة.

أنا أيضًا ياولدي أريد أن أتستر بورق التين، وأن تكون لي مددًا ضد الوحشة والوحدانية.

وطلب أن يرى السورة بعينيه الحيتين مكتوبة على الرخامة قبل موته، وقد استجاب والدي لرغبة جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي، ونـزل في اليوم نفسه، وهو يوم ليلة القدر، عند صانع شواهد القبور، وطلب منه حفر السورة المطلوبة على شاهد من رخام أصيل. وقد سلم له السورة مكتوبة على ورقة حتى لا يخطئ فيها؛ فيثير غضب جدي الذي كان يزعجه أن يقرأ خطأ على شاهد قبر، وكلما وقف عند شيء من هذا القبيل يقول: عاش في الخطأ، وينام اليوم متوسدًا الخطأ، ويقابل ربه الجالس في عرش السماء بالخطأ، اللهم استرنا من الخطأ يوم نتوسد حفنة من تراب!

وفي اليوم التالي أحضر والدي الرخامة/الشاهد منقوشًا عليها سورة التين بخط مغربـي أندلسي كما أرادها جدي، سحبها من كيس خش ووضعها أمام جدي الذي كان ينام ممددًا على ظهره في الليل وعلى جنبيه في النهار، لا يحرك سوى عينيه، بهما يتكلم وبهما يحقق ما يريد، أدار جدي زوج عينيه وأرسل نظره في اتجاه الرخامة، وبعد أن مر على الكتابة صرخ في والدي: في الكتابة خطأ يايحيى، سأنام تحت خطأ يايحيى وأنا في انتظار ساعة اللقيا مع من على عرش السماء استوى!

ثم مات، أسلم الروح وعيناه على خطأ تسرب إلى كتابة سورة التين على الشاهد الرخامي.

قال أبـي: لعن الله نقاش الشواهد.

تفاجأ الناس بخبر موت جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي؛ ففي الوقت الذي كان الجميع ينتظر موت جدتي البتول، نظرًا لتدهور حالتها الصحية منذ فترة طويلة، إذ زاد وزنها ولم تعد تستطيع الحركة، ها هو جدي يرحل ليترك فراغًا مهولاً في البيت الكبير الذي برحيله سيفقد جلسات قهوة العصر، وصمت قيلولات شهر غشت.

بعد موت جدي بدأ أبـي يشعر بالذنب، وكأنه هو الذي اغتاله بأن وضعه أمام شاهد قبره بخطأ في كلام الله، وقد بدأ هو الآخر يدخل حالات من الهذيان وصام عن ملاقاة الناس، وأمام ذلك فقد فضل البقاء ليلاً ونهارًا في المصلى، لا يغادره إلا للضرورة، يجلس في ركن لا يقرأ ولا يتحرك.

7

بعد موت جدي ما عادت جدتي تغادر سريرها، وكالعادة تولت أختي هاجر مساعدتها على قضاء حاجتها، وتكفلت بنظافتها وغسل شعرها وتسريحه، وإطعامها من يدها لقمة لقمة، وإشرابها جرعة جرعة.

أصبحت جدتي البتول تخاف من الليل، تعيش حالة كابوسية مستمرة، تهذي فتذكر أسماء رجال لا يعرفهم أحد في البيت الكبير، وتذكر نساء لا علم لأحد بنساء بهذه الأسماء، أسماء غريبة!!

معتصمًا في مصلى والده الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي الليل والنهار، مكفرًا عن ذنب ارتكبه بسبب خطأ ورد في كتابة كلمة بآية من ذكر الله نقشها حِرفيٌّ على رخامة؛ كان والدي ينتظر خبر نهاية جدتي مع طلوع كل شمس، وقد تهيأ بشكل واضح لموتها، حتى إنه، وتحسبًا لموتها، اشترى خفية عنها كفنًا وإبرة كبيرة لخياطته، واقتنى أيضًا بعض معدات العزاء، إلا إن جدتي قامت ذات صباح وهي في كامل خفتها وابتسامتها الماكرة، مشطت شعر رأسها لوحدها دون مساعدة من هاجر، ووضعت الكحل الفاسي في عينيها، ولبست أجمل ما لديها ووضعت جميع ذهبها في معصميها وفي أذنيها، ولبست خواتمها وغادرت البيت الكبير. لم ينتبه أحد لخروجها باستثناء هاجر التي لا تنام عينها عن ملاحقة الجدة البتول، قالت وقد استغربت خفة مشيتها: ستعود بعد ساعة أو بضع ساعات. ومضت الساعة والساعات، وسقط الليل، ودارت الأيام، ولم يسأل أبـي عن أمه، وكأنه كان يعتقد بأن مصيرها كان يجب أن يكون هكذا! لكن هاجر أختي بدأت تشعر بالذنب وكأنما هي التي سمحت لها بالخروج والرحيل والاختفاء.

نسي الناس في قرية باب القمر جدتي البتول، وسقطت من أحاديثهم، وكأنها لم تكن سوى مسافرة لأيام وستدق باب البيت الكبير، وحدها أختي هاجر كانت حزينة، وقد شعرت لأول مرة بالوحدة وبالخوف أيضًا، وكأنها كانت تملك مفتاح سر اختفائها، وتملك أيضًا مفتاح إمكانية عودتها.

عادت أختي لتعتني بأبـي الذي أخذ مكان جدي، وشرع ومن يوم أربعينية جدي في إطلاق لحيته وصباغتها على طريقة والده، وأصبح شعرها أحمر، وبدا بها جميلاً يشبه صورة بابا نويل في كتاب نصوص القراءة الفرنسية الموجهة. كانت هاجر تمشط له شعر لحيته، وكان يستحسن حركاتها تلك، وكنت أدخل عليه فأجلس بالقرب منه أنتظر متى تقدم له القهوة التي أصبح يحبها أكثر من حب جدي لها، أو هكذا بدا لي. وكنت أنا الآخر أعشق القهوة السوداء وأستمتع بأريجها، وأنتظر وأحلم أن تنبت لي لحية ذات صباح فأمشط عليها وأصبغها كما يفعل الكبار!

ذاك اليوم، كنت جالسًا إلى جوار والدي على حصير من الحلفاء أشرب معه القهوة من ذات الفنجان، وإذ نظرت إلى الباب الرئيسي للبيت الكبير، رأيت شبحًا يدخل، لم يلمحه والدي الغارق في قراءة مخطوط عن "تاريخ البلدان والعلماء من شواهد قبور النساء والأولياء"، ارتجفت، التصقت به وصرخت: جدتي عادت.. عادت جدتي ياأبـي!

لقد مضى على غيابها سنة وأربعون يومًا.

قام والدي وقد هاله حالي، تفقد المكان جيدًا، فتح أبواب الغرف جميعها، وتفقد اسطبل المواشي واسطبل البغلة، ولم يعثر على شيء يدل على عودة جدتي الغائبة الكبيرة.

عاد أبـي إلى مكانه، جلس على هيدورة الخروف ذات الصوف الناعم التي يستعملها للصلاة، نظر إليّ، قرأ سورة الفاتحة ثم آية الكرسي بصوت عال، كان فنجان قهوته قد برد فلم يشربه، فأبـي يفضل قهوته ساخنة. خفضت رأسي خجلاً وشعرت بنظر والدي ينـزل علي شهبًا، وحين رفعت عيني شاهدت جدتي تدخل غرفة جدي في أقصى البيت الكبير، فصرخت: ها هي جدتي عادت، هذه المرة لم يستغرب أبـي كلامي، فربما يكون هو الآخر قد لمحها، أو ربما قد تأكد له إصابتي بخلل في عقلي.

ابتسم وقال لي: كنت أعرف بأنها ستعود، ثم سكت. ولأول مرة شرب رشفة من سائله الأسود باردًا؛ مما استدعى هاجر التعجيل بتسخين ما بقي في الإبريق.

عادت جدتي بالفعل إلى البيت الكبير، بعد أن لم يعد أحد ينتظر عودتها، تيقنت من ذلك بما لا يدع للشك مكانًا من خلال تغير بارز ومفاجئ في الحبال الصوتية لأختي هاجر.

أخرجتْ جدتي من الدولاب كفنها الأبيض، فرطته أمامها فسقط من بين ثناياه قطعة صابون وقنينة عطر رخيص، وكأنما كانت على علم بكفنها الذي اشتراه والدي منذ مدة، طوته ثانية وأدخلت بين طياته قطعة الصابون وقنينة العطر بلوم بلوم، حملته بين يديها وعادت لتجلس معنا وتشرب القهوة التي سخنتها هاجر. كانت صامتة، ومثلها كان أبـي صامتًا، أما أنا فلأول مرة شعرت بالخوف من جدتي التي ازداد وزنها كثيرًا، ونبت لها شارب ولحية صغيرة على وجهها المنتفخ الحنكين، لحية لا تشبه لحية الرجال؛ إذ إن شعرها يشبه وبر فرخ الطير في أول أيامه.

صب لها أبـي فنجان قهوة دون أن يوجه إليها كلمة واحدة، وضعه على طرف المائدة الصغيرة، قربته منها هاجر التي بدت عادية وثابتة وكأنها لم تستغرب وجود جدتي معنا بهذا الوضع، وكأن جدتي البتول لم تغب يومًا، ربما كانت تشعر من خلال عودتها بانـزياح الشعور بالذنب الذي رافقها منذ أن شاهدتها وهي تغادر البيت الكبير دون أن تخبر أحدًا.

تكلمت أختي هاجر موجهة الحديث إلى جدتي قائلة: كيف وجدت جدي ياحنة؟!

نظر أبـي إلى هاجر وقد هاله سؤالها!

ارتشفت جدتي جرعة سحبتها مع نفس طويل، كاد يشبه الصفير أو الشخير ثم قالت: إنه أفضل حال منا ياهاجر، وهو ينتظرنا عند عتبته يشرب القهوة ويدهن لحيته بالحناء ويكتب الشعر، وابتسمت، كانت أسنانها قد سقطت جميعها.

قالت أختي: ما كنت أعتقد أن جدي يكتب الشعر، صحيح إنه كان يحفظ الكثير منه، قديمه وحديثه، شعبيه وفصيحه، ولكن أن يكتب الشعر فهذا شيء جديد.

شعرتُ بأن أختي ارتاحت لحديث جدتي الغامض والذي في المقابل أقلق أبـي، وكأنما أسعدها قولها بأن جدي في انتظارنا، أي في انتظارها هي، ولأول مرة أحسست بأن أختي هاجر لا تخاف من الموت؛ فكبرت في عيني كثيرًا، حتى أصبحت أكبر من أبـي الذي على العكس كان متشبثًا بالحياة وبركوب الخيل التي كان يعشقها كما يعشق أمي، ولا يخفي ذلك ولا يتحرج في التشبب بها أمامنا. كانت أمي جميلة، كثيرة العناية بنظافتها وبشعرها وأيضًا بلباسها، وتحسن الرقص، لا حفلة كاملة دون رقصة أمي: رقصة الحميمة، حين تشرع في الرقص يتجمع الحاضرون حولها بما فيهم والدي الذي يبتهج لمثل هذه اللحظات، وهو يراقب حركات يديها وجسدها الذي يمور كما الشعر، تحك جدتي بين الحين والآخر لحيتها فيقشعر جسدي، أشعر بخوف لا أعلم مصدره، في حين لم تكن هاجر لتنـزل عينيها المفتوحتين على وسعيهما من على لحية جدتي، وكأنما أعجبها شكلها بهذا

الوبر على ذقنها وشواربها، وبر أعطاها وقارًا، ومنحها شيئًا غامضًا قرأته في تململ والدي في جلسته على هيدورة الخروف التي ورثها عن جدي.
كنت أنتظر متى تغادر جدتي المكان حتى أستمتع بفنجان قهوة ثان، وبصوت والدي وهو يرتل كتاب الله أو يقرأ شعرًا في الغزل أو في مدح الرسول عليه السلام، لكنها لم تتحرك، بل إنها طلبت من أختي أن تصب لها فنجانًا آخر ساخنًا، هروبًا من صمتها الإسمنتي فتح والدي كتاب الله وقبل أن يشرع في القراءة، التفتت إليه جدتي ونطقت قائلة: هل أنت على وضوء يابن أمه؟ سكت قليلاً، لم يرد عليها، ثم باشر القراءة، كان صوته رخيمًا، يسقط في القلب كالماء الزلال، أبعد عني الخوف قليلاً، لكنه ذكرني ولأول مرة بطريقة جدي في الترتيل، حتى إني خفت أن يكون هذا الذي أجلس بجواره ليس أبـي، إنما هو جدي الذي توفي قبل سنتين تقريبًا، ودفناه إلى ظل شجرة التين التي بدأت تشيخ وقد أكلت أسراب نمل غريب الشكل واللون والحجم قلبَ جذعها، ثم قلت في نفسي وقد تنمل جسدي كاملاً وتشوك شعر رأسي: ربما سيعود جدي هذا المساء كما عادت جدتي بعد أن اختفت طويلاً، حتى اعتقد الجميع أنها ماتت وارتاحت من آلام مرض السكر وأمراض أخرى.
قامت جدتي من مكانها بمجرد أن شرع والدي في قراءة الشعر بعد أن انتهى من تلاوته اليومية للقرآن الكريم، تلاوة لا يفرط فيها أكان الجو حارًّا، باردًا أو ممطرًا، كانت تحمل كفنها المطوي بين ذراعيها، تبعتها أختي على الفور، لكن جدتي، إذ لاحظت التصاق هاجر بها، نظرت إلى ظلها ثم إلى أختي وقالت بصوت آمر، أو هكذا بدا لي: لا تقلقي ياهاجر، أعرف الطريق جيدًا إلى مصيري دون عكاز ولا نظارة. لم تهتم هاجر لتعليق جدتي وكأنها لم تسمع كلامها، فواصلت الالتصاق بها، وهو ما جعل جدتي ترضخ لعناد أختي وتقبل بوجودها إلى جوارها كظلها الثاني.
اختفت جدتي، تسللت إلى الغرفة التي تقاسمتها مع جدي مدة نصف قرن أو أقل بقليل، لم يدم مكوثها في الغرفة أطول من زمن قراءة قصيدة الحمى للمتنبـي، والتي كان يقرؤها جدي منذ أن مرض وواصل والدي عادة قراءتها، وكأنما كان يخشى أن تسكنه حمى المتنبـي.
عادت جدتي إلى مكانها، وقد لاحظت وهي تتجه نحونا بأنها تعرج قليلاً، عرج بساقها الأيسر، بدت لي نحيفة وهي التي كانت تعاني، منذ أن جئت إلى هذه الحياة، من سمنة زائدة أقعدتها الفراش شهورًا عديدة. كانت هاجر، كالعادة، تتبعها كظلها الثاني، جلست في مكانها صامتة، سحبت الكفن من تحت إبطها، ثم فردته أمام والدي قائلة: هذا لباس عرسي اليوم، لفت قطعة الثوب البيضاء على جسدها، أعرف بأنك اشتريته لأجلي منذ أزيد من السنتين احتياطًا لموت مفاجئ قد يزورني، شكرًا لك يابني يايحيى لأنك كنت تحتاط لموتي، تحسبًا لتفسخ سريع قد يجيء على جسدي الثخن، خاصة وأن حرارة الصيف قاتلة وقادرة على إذابة الشحم بسرعة.
بهدوء وبإيمان، لبست جدتي كفنها، استدارت نحو والدي قائلة: يمكنك الآن أن تقرأ عليّ سورة "التين"، أو ما تراه مناسبًا من كتاب الله العزيز الحكيم.
تردد والدي، ارتبك، لكنه سرعان ما أنقذ الموقف، فاستجاب لأمه البتول وهي ملفوفة في كفنها، بعد أن قرأ الموافقة في عيني هاجر التي كانت تراقب المشهد بكثير من الدقة، أما أنا فسارعت إلى الخارج وقد سالت نصف بولتي في ملابسي، بلت ما بقي منها على جدار الحوش الخارجي الذي تملح جزء كبير منه جراء التبول عليه من قبل الكبار والصغار. كان صوت موسيقى ما تبقى من البولة الطويلة وهي تسقط على الجدار الأحرش مخففة لقلقي من منظر جدتي وهي مرتدية كفنها،

شعرت بتحرري من هذا المجلس الذي اختلط عليّ فيه الميت بالحي، وفكرت ألا أعود، وقد بدأ الليل ينـزل من السماء مصحوبًا ببرودة منعشة، لكني فجأة سمعت بكاء أختي هاجر موازاة مع تصاعد صوت والدي في ترتيل سورة "التين" للمرة الثالثة. قفزت إلى باحة البيت الكبير فإذا بجدتي البتول ممددة على الأرض، رأسها في حجر أختي التي أسندت رأسها إلى جذع شجرة الدالية، بجوارها كان والدي متماسكًا أو هكذا بدا لي، يقرأ القرآن بصوته الجميل وقد ازداد نغمًا.
أسلمت الروح بهدوء يشبه نوم الأطفال، كانت تبدو وهي تغادر هذا العالم سعيدة، ومثلها أبـي كان سعيدًا؛ لأن ظهور جدتي من جديد وبشكل غريب في حياة أفراد البيت الكبير، ولو كان لبعض الساعات، قد أثار الاستغراب والخوف.
فجأة، دون أن أنتبه، وجدت أمامي في ساحة البيت الكبير كلاًّ من أمي وزوجة عمي الصافي، ووجوهًا أخرى لم أستطع تمييزها في حالة من الدهشة والاستغراب، وهم يشاهدون الجدة البتول ممددة رأسها في حضن هاجر المفجوعة من هول الحال، ملفوفة في كفنها الذي اشتراه لموتها والدي وهو ينتظرها منذ أزيد من السنتين، وكأنما عادت للنوم فيه وقد اختارت ساعة ومكان موتها، رافضة أن يقرر أحد توقيت موتها كما يريده.
ماتت جدتي كما أرادت أن تموت، بالطريقة التي تمنتها، كفنت نفسها بنفسها، ماتت تحت قراءة القرآن، تحت سورة "التين" التي اختارتها والتي أخطأ نقش كلمة منها على الرخامة صانع الشواهد الأبله، أخطأ في كلمة من كلام الله الذي لا يدخله السهو ولا الخطأ، فكانت سببًا في تعجيل موت جدي، ربما.
توقف أبـي عن قراءة القرآن، وفجأة امتلأت باحة البيت الكبير بالناس، صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، جاءوا من المداشر المجاورة وكأنما كانوا ينتظرون هذا الموت وفي هذه الساعة، لا أحد أخبرهم بذلك، ربما أدركوا ذلك من طريقة القراءة التي تغيرت على لسان والدي. ظل جثمان الجدة ممددًا في مكانه، في حجر هاجر التي تيبست، كنت أنظر إليه وأنتظر أن تقوم جدتي في كل لحظة كي تسخر منا جميعًا وللمرة الثانية، بعدما سخرت منا في المرة الأولى حين اختفت واعتقد الجميع أنها ماتت. كنت أقول في نفسي: لن تموت جدتي إلا إذا ما رد عليها التراب وقفل عليها في قبرها بالإسمنت، إنها تحب الحياة.
إنها تعشق الحياة!

8

هذا الصباح شعرت بخمول مصحوب بدوار في رأسي، وبرغبة في التقيؤ، ربما لأنني لم أنم الليلة جراء ذلك الحلم الكابوسي الذي أرعبني؛ إذ رأيتني في المنام مثل سيدنا يوسف في قعر بئر، وإخوتي ينظرون إلي من عل وهم يضحكون لموتي بالتقسيط، بـي ما يشبه الحمى الساخنة تارة، والباردة تارة أخرى.

وأنا الذي لي أخ واحد فقط، مازار الذي كان السبب في وصولي إلى هذه الثانوية في هذه المدينة البعيدة تلمسان، ولي جيش من الأخوات بلغ عددهن خمسًا.

لا أحب درس النحو، وهو أول درس نبتدئ به دروس الأسبوع، مع أن أستاذ العربية سيد رقيق في سلوكه وفي معاملاته معنا، كأنما هو نازل لتوه من قصر الحمراء ليدخل قصرًا من قصور تلمسان، لا يشبه أساتذة العربية في شيء، أولئك الذين تعودنا على أصواتهم النكراء، وأشكالهم المنتفخة البطون من المصريين خاصة، والذين يدرسوننا الفقه والدعوة بديلاً عن دروس الأدب من شعر ونثر. أستاذ العربية هذا الذي يسمّى السيد شريف عازف على العود. هل شاهدتم أستاذ عربية له ذوق موسيقي؟! وهو إضافة إلى ذلك يرأس جمعية للموسيقى الأندلسية اسمها "الجمعية الغرناطية"، يقال إنه سجن أيام الرئيس أحمد بنبلة مدة شهرين؛ لأن فخامته كان يصنف الموسيقى الأندلسية في خانة الموسيقات البورجوازية التي يجب محاربتها، وعلى هذا الأساس أمر بإغلاق مدارس الجمعيات، وتمت ملاحقة بعض شيوخ الموسيقى الأندلسية من بينهم الموسيقار المعلم رضوان بنصاري، الذي هاجر إلى المغرب ليعيش حياة كاملة في المنفى، يواجه الشيخوخة والموت وحيدًا غريبًا في ستوديو بمدينة الرباط، التي التجأ إليها هاربًا من اشتراكية جزائرية، وربما سيدفن ذات يوم في مربع المجهولين بمقبرة شعبية.

كان السيد شريف يتحدث العربية بلكنة تلمسانية فيها كثير من الشعرية، تخرج الكلمات من فمه ممزوجة بموسيقى راقية، يحفظ كثيرًا من أشعار ابن زيدون وابن قرمز، الذي لم يكن يخفي إعجابه به، فيفصل لنا الحديث عن خصوصية شعريته وفضله في الاكتشاف والإبداع الشعبيين.

وكان زرياب مثاله في كل شيء، يقلده في لباسه وفي عمامته الطربوش التي يضعها على رأسه، وأيضًا في اختياره العطور التي يتعطر بها، وكان لا يمر درس إلا وتحدث لنا بألم وحسرة عن يحيى بنخلدون مؤرخ بني عبد الواد بتلمسان، مذكرًا بتفاصيل اغتياله في رواق من أروقة القصر الملكي خنقًا من قبل حساده. وكان معجبًا بفحول شعراء الجزائر الشعبيين لما قدموه للثقافة وللذاكرة الجزائرية، فيذكر لنا أخبار وأشعار كل من: سعيد المنداسي، وعبد العزيز المغراوي، وسيدي الأخضر بنخلوف، وعبد الله بنكريو، وابن قيطون... وغيرهم.

كنت مأخوذًا بثقافة أستاذ اللغة العربية.

أَحَبُّ الدروس إلى نفسي، إضافة إلى الأدب العربـي، دروس اللغة الإسبانية وآدابها، هذه اللغة تعجبني لأنها تلتقي في كثير من الشؤون بدروس العربية وبأناقة الأستاذ شريف، وربما أيضًا لأن أستاذة الإسبانية السيدة كستيللا امرأة جميلة، مثيرة، غاية في الأنوثة والإغراء، تمشي بشهاء. كنت أشاهد معلم العربية السيد شريف الذي يتحدث الإسبانية بطلاقة لا يتركها لدقيقة واحدة في أوقات الاستراحة، ما بين درس وآخر، وهو في كل لقاء يقرأ لها بعضًا مما يحفظه، وهو كثير، لشعراء

أندلسيين ويترجم لها ذلك بلغتها، كانت قليلة الضحك كثيرة الابتسام، كم مرة تساءلت: هل شغفي الكبير هذا هو بالإسبانية لغةً أم الإسبانية أستاذة أم بكلتيهما؟
كان أستاذ العربية يثير فيّ كثيرًا من الغيرة وهو يختلي بها ويحدثها حديثًا يشبه حديث العشاق.
لكن السيدة الفاتنة كاستيللا لم يطل مقامها بيننا في الثانوية سوى سنة دراسية واحدة، واختفت مع الدخول المدرسي الموالي. وقد تأسف الجميع على مقاطعتها التدريس، ومع مرور الزمن نسيها الجميع ولم يعد أحد يذكر اسمها أو يتحدث عنها، وظل طعم الإسبانية شهيًّا في فمي وفي قلبي.
كنت أفكر في هذه الأشياء جميعها، وأنا ممدد على السرير مشتت الذهن في هذا المرقد الواسع، مبيت التلاميذ، شعرت بارتخاء بمجرد أن خلا المكان من أقراني التلاميذ، ثم ما برح أن تحول إلى توتر تلاه صعود تنمل في ظهري، ثم ما يشبه التيار الكهربائي في صدري.
كان أريج القهوة يصلني حتى السرير فينعشني، صاعدًا من المطعم الذي يوجد في الطابق الأرضي للعمارة التي بها مبيت تلاميذ النظام الداخلي، والذي يتربع على كامل الطابق الثاني.
أعشق شرب القهوة منذ الصغر، هي عادة ورثتها عن جدي ثم بعدها عن والدي، أخي مازار كان يحب الشاي والليمونادا.
وأنا أتشمم بشهية ككلب الصيد المحترف رائحة القهوة، إذا بصوت ينبعث من جهاز راديو يجيء من آخر قاعة المبيت في المدخل الأقصى، عند السلم الرئيسي، محملاً بصوت المغنية نورة، ثم قليلاً قليلاً بدأت رائحة الجافيل والصابون تزاحم أريج القهوة في أنفي. لي أنف كبير والذي لطالما عيرتني به جدتي وأخواتي في لحظات الغضب، إنها ساعة مرور المنظفة، وهذا وقت كنس المرقد ومسح الأرضية وتنظيف المراحيض، قررت أن أفتعل وجعًا في بطني حتى لا تطردني المنظفة، وأظل في سريري لا أغادر المكان.
كانت المنظفة تمسح الأرضية وتردد مع نورة أغنيتها بصوت دافئ، دون أن تنتبه إلى وجودي، من على سريري كنت أراقبها منحنية، ردفاها منتصبان، تحركهما ذات اليمين وذات الشمال، تَحَرَّكَ فيَّ شيء شيطاني. أعجبتني مراقبتها واهتزاز جسدها، وهي بين الرقص وتنظيف الأرضية، كان جهاز الراديو صغير الحجم، أكبر بقليل من علبة السجائر، يتدلى فوق نهديها، مربوطًا بسلسلة حديدية أو فضية.
فجأة توقف بث الأغنية، غيرت من حركات ردفيها دون أن تتوقف عن مسح الأرضية، صعد صوت جهوري يقرأ الأنباء، هذا الصوت أعرفه، إنه للمذيع علاوة عثماني، موجز للأخبار، ثم عادت الموسيقى، أغنية لعبد الحليم حافظ، تغير إيقاع حركة الردفين، وبدت لي مؤخرتها تقترب أكثر فأكثر من سريري، وعبد الحليم حافظ يغني: "جانا الهوى جانا".
تنحنحت قليلاً، مرة ثم مرتين ثم مرات، استدارت وقد تفاجأت لوجودي في سريري وفي هذه الساعة، حيث غادر جميع التلاميذ المبيت، خفضت قليلاً من صوت المذياع، تركت ما كان بين يديها من مسّاحة ومكنسة، مسحت يديها في فوطة كانت معلقة في خصرها، مشت في اتجاهي، كان خطوها كرقصها، بدت لي نحيفة على عكس ما كانت عليه وهي منحنية تمسح الأرضية، قالت لي وهي تمد يدها لتقفل الراديو نهائيًّا: ما بك؟ قلت لها إن مغصًا يقطع بطني، يفعل بأحشائي كفعل السكاكين.
جلستْ على طرف السرير عند رأسي، وضعت يدها، باردة شعرت بها على جبهتي، ثم شعرت بها ساخنة جمرة!

ثم علقت: بك حمى، حرارتك مرتفعة.
نظرت إليها، شعرت وكأنما الحمى انتقلت فجأة إليها، احمر وجهها، مررت يدها على عنقي ثم نـزلت بها إلى صدري، وأنا أرتجف، شعرت بسقف غرفة المبيت يتضبب، سحبت بطريقة آلية مئزرها الوردي دون أن تفك أزراره، وتخلصت من جهاز الراديو المعلق حول عنقها، ثم تسللت بين الشراشف داخل سريري، شعرت بجسمها وهو يلتصق بجسمي ناريًّا، خلعت عني بيجامتي، وتجردت من ثيابها هي أيضًا، وأصبحنا جمرتين. تذكرت قصيدة الحمى التي كان يحب قراءتها جدي كلما شعر بضيق أو قلق.
في حضرة هذه الأنثى، لم أعرف كيف أفعل ذلك الأمر الذي يجب أن أفعله ونحن ملتصقان عاريان، هي أول مرة أجدني في سرير مع امرأة من لحم ودم، سحبتني إليها ثم وضعت قضيبـي المتصلب بين فخذيها، كان المكان دافئًا ونديًّا، ولجتها، فتنهدت، خفت أن أكون قد أخطأت المكان فآلمتها، لكنها شدتني إليها بعمق وقوة، شعرت بلذة لم أشعر بها ولا مرة واحدة من قبل، كانت المرأة تتلوى من تحتي كالأفعى، وتدخل أضافرها في ظهري وتقبل جسدي وتمص لساني وأنا بداخلها.
على قمة الشبق، وفي جنون الرعشة الكبرى، وإذ قذفت ماء لزجًا، فتحت فمي وصرخت ما بين اللذة والعذاب: أمي. ثم ارتخيت وملت على صدرها. شعرت بها بعد دقائق وهي تحك لي ظهري وتلعب بخصلات شعري.
انسحبت من بين الشراشف، ارتدت ثيابها وأعادت مئزرها وعلقت جهاز الراديو في عنقها، ثم قالت لي: سأنـزل لأحضر لك قهوة بالحليب قبل أن يغلق المطعم. كنت أتمنى ذلك فاستجابت لأمنيتي.
حين ابتعدت قليلاً نظرت إليها، كانت بعمر أمي، واشتهيتها أكثر. كان صوت حذائها يختفي قليلاً قليلاً في غرفة المبيت الواسعة ثم في سلم البناية، وأنا قليلاً قليلاً كنت أستعيد أنفاسي، قمت غسلت وجهي بسرعة، وقد نسيت بأنني مريض! ثم عدت إلى السرير أنتظر القهوة، لم يطل الوقت حتى سمعت خطواتها عائدة من الجهة الأخرى للمرقد، كانت تحمل صينية عليها إبريق قهوة وقطعة خبز، جلست بجواري، هذه المرة عند قدمي السرير، سحبت جسدي قليلا من بين الشراشف وتناولت منها فنجان القهوة وقطعة الخبز المحشوة بمربى المشمش.
لم أعرف ماذا يمكنني أن أقول لها، ثم تساءلت: ماذا يقول رجل لامرأة بعد أن يمارس معها هذا الذي مارسناه؟!
كان لمربى المشمش بعد ممارسة الذي مارسناه طعم غير الذي كان عليه في الأيام الخوالي.
من لحظتها أحببت مربى المشمش أكثر.
مربى المشمش بالخبز وموسيقى تصعد من المذياع، حركت فيّ رغبة إلى جسد منظفة مبيت التلاميذ لفعل ذلك الذي فعلناه، مرة ثانية، في ممارسة ذاك الذي مارسناه قبل لحظات والذي يشبه في حلاوته مربى المشمش.
أنا أحب مربى المشمش.
بعد أن تناولت قهوتي، ونسيت تمامًا بأنني مريض! مرة أخرى سحبت ثيابها وتسللت بين الشراشف. هذه المرة أنا الذي ذهبت مباشرة إلى المكان العجيب بين الفخذين، وكما في الأول

صرختُ وهذه المرة صرخت هي أيضًا، كان صراخها أكبر من صراخي، حتى خفت أنها جنت، أو أنني قتلتها، وأن أحدًا سيقبض علينا في هذه الوضعية.
سحبت جسدي النحيف من بين فخذيها السمينين، ارتديت ثيابي، وأسرعت إلى دورة المياه، غسلت وجهي ثانية، وحين تأملتُني في المرآة وجدت وجهي يكاد ينفجر حمرة، حين عدت إلى مكاني وجدتها قد رتبت أغطية السرير وأعادت إليه نظامه، وطلبت مني أن أتبعها إلى مصحة الثانوية، كي أقضي النهار هناك.
سرت خلفها كالجرو، وأنا أتأمل ردفيها وهي تمشي بخيلاء.
ثم انتبهت إلى وجودي، والتفتت إليّ وبدأت تحدثني عن زوجها الذي كان يحب الجزر! وحين مرض ونقلوه إلى المستشفى كانت تجلس عند رأسه فتقطع له رأس جزرة في شكل قطع صغيرة وتطعمه إياها، كان كلما بلع قطعة نظر إليها وابتسم.
ثم سألتني: هل تحب الجزر؟
قلت لها: لست أدري، أنا أحب مربى المشمش!
كانت تمشي وأنا أتبعها وهي تتحدث عن فوائد الجزر، وحبها للحارس الليلي لثانويتنا والمريض بالسياسة والمغرور بأفكاره.
سلمتني إلى ممرضة المصحة أو الطبيبة، لا يهم، قائلة: إن حرارته زائدة، وبه مغص بطني.
واختفت منظفة المرقد، مخلفة لي ابتسامة من نوع خاص.
ومن يومها أصبحت أحب ممارسة الجنس مع النساء اللواتي يكبرنني بسنوات عديدة، أحب من هن في سن أمي وجدتي.
وكنت كلما اشتقت إلى فعل ذلك الذي فعلناه، أفتعل المرض فأبقى في سريري، وأراقب ساعة منظفة مبيتنا.
ولا زلت أحب مربى المشمش، وأحب ممارسة الجنس مع النساء الأكبر مني سنًّا.

9

هي عادة غريبة لم أستطع التخلص منها: التبول في المغسلة بدلاً من فعلها في المرحاض كما عامة تلاميذ المرقد، لا أدري كيف تعلمتها ثم استحسنتها، ثم تربيت عليها ثم أصبحت لا يمكنني تجاوزها.
في المرقد، أتبول في المغسلة.
في الفندق، أتبول في المغسلة.
في المطارات، أتبول في المغسلة.
الواقع أنني أجد متعة في التبول في المغسلة أفضل من فعلها في قصعة المرحاض، كلما اقتربت من المغسلة أثارت فيّ رغبة في التبول، هو أنا هكذا، خلقت مفتونًا بالمغسلة!
وأحب مربى المشمش!
أحب التبوُّل في المغسلة لعاملين استراتيجيين: أولهما يعود إلى مستوى ارتفاعها المناسب تمامًا لطولي، طول قامتي متر و86 سنتيمترا، فبمجرد أن أفتح السحاب أجد قضيبي على حواف المغسلة، هم صنعوها كذلك! على قدي تمامًا بتمام. وثاني العاملين الاستراتيجيين هو أنني أجد لذة لا تضاهيها لذة جراء احتكاك عضوي بخصيتيه الكبيرتين بنعومة الرخام وببرودته صيفًا خاصة، كما إن المغسلة توجد دائمًا أقرب إلى غرفة النوم مقارنة بتلك المسافة التي تفصل سريري عن المرحاض، ومرات في الشتاء تبدو هذه المسافة طويلة تقاس بالكيلومترات، وأنا إنسان كسول لم أمارس في حياتي كلها ربع ساعة رياضة، لم أدخل في حياتي صالة للرياضة، ولم أضع إليتي على مدرج لملعب كرة القدم لمشاهدة مباراة.
مع بداية كل سنة دراسية جديدة، يتكرر معي هذا منذ السنة الأولى متوسط، أبحث لي عن طبيب أشتكي له كل أمراض الدنيا التي أعانيها! القلب وارتفاع الضغط ونزف الأنف المتواصل ومغص البطن والدوخة و... أكاذيب شتى أختلقها حتى أحصل على شهادة الإعفاء من مادة الرياضة البدينة، حتى إنني مرة قلت لطبيب بعد أن فحص دقات قلبي، وقال لي بأنني لا أشكو من أي شيء غير طبيعي، اختلقت له حكاية موت أبي الذي لا يزال حيًّا، إذ قلت له: إن والدي مات موتًا غريبًا، حيث إنه مات وهو يحاول أن يلحق بالقطار المتوقف على السكة، لا لشيء إلا لأنه جهد نفسه، وقد أجمع الجميع على أنه كان بصحة جيدة، وكان له قلب جيد كقلب العجل، ويبدو أن الموت بتوقف القلب من الإجهاد والجري خاصة هو مرض وراثي في عائلتنا، وقد قتل كثيرًا منا، بعضهم من جهة الأب، وبعضهم الآخر من جهة الأم. وأذكر أن الطبيب منحني إعفاء ومعه ورقة لمراجعة مصلحة القلب المتخصصة، وخرجت بالشهادة وأسرعت الخطى لتقديمها للإدارة.
كنت أقرأ كل ما يسقط بين يدي من كتب في الفلسفة والأدب والسير الذاتية والشعر، كل ذلك في الساعات التي كان زملائي من التلاميذ يمارسون حصة الرياضة البدنية. أختار مكانًا لي في قاعة فارغة، بصحبة بعض الفتيات اللواتي كن لا يرغبن في الرياضة، حتى إنني ومع كل سنة دراسية كنت لا أجد نفسي في مثل هذه الساعات إلا مع البنات، وكنت أشعر بنوع من الخجل مما كان يدفعني لطلب السماح لي بالذهاب إلى مكتبة الثانوية، التي يشرف عليها السيد ألفريد برانغير، وهو أحد الأساتذة الأوروبيين من رجال الدين المسيحيين، الذين حاربوا إلى جانب الثورة الجزائرية،

وبعد الاستقلال اختار الجزائر وطنًا له، ووجد له عملاً كأستاذ ومشرف على مكتبة الثانوية. ثلاث سنوات قضيتها مع هذا المناضل، بمعدل أربع ساعات في الأسبوع، وهي عدد ساعات حصة الرياضة البدنية، هذا الأستاذ هو الذي فتح عيني على كتب التاريخ والسياسة.
كان ألفريد برانغير إضافة إلى إشرافه على تسيير مكتبة الثانوية أستاذًا متطوعًا، يدرسنا الإسبانية والفرنسية، بعد اختفاء كستيللا الجميلة التي غابت دون إخبار الثانوية، والتي تركت فراغًا كبيرًا وحزنًا عميقًا في أستاذ اللغة العربية السيد شريف. إن غيابها حرك فيه ملكة الشعر، إذ أصبح لا يتحدث معنا إلا شعرًا غزليًّا.
كانت دروس السيد ألفريد برانغير متعة فكرية لا تضاهيها متعة، إنه مكتبة ناطقة باللغتين الفرنسية والإسبانية، يحدثنا عن تفاصيل حياة فرانكو وفي المقابل عن الشاعر غارسيا لوركا، وعن بيكاسو وعن الشعار المعقوف للنازية وأصله، وعن الرئيس أحمد بنبلة الذي كان صديقه في سنوات حرب التحرير وسنوات الاستقلال. قبعته الإنجليزية التي لا تنـزل من على رأسه، كان يقول لنا عنها: هذه هدية غالية وفريدة من الرئيس أحمد بنبلة. وكان السيد برانغير لا يتردد في الحديث عن صديقه الرئيس بكل صدق واحترام، ولا يخفي إدانته للانقلاب عليه من قبل العقيد هواري بومدين في 19 جوان 1965.
مجرد ذكر اسم بنبلة كان ممنوعًا في الثانوية. ممنوع أن يسقط هذا الاسم من فم تلميذ أو أستاذ أو ينـزل في أذن لهذا أو ذاك، وكل من خولت له نفسه ذكر هذا الاسم يعتبر من أعداء الثورة، وأن عمله هذا مس بأمن الدولة ومؤامرة ضد النظام والاشتراكية وخيانة لدم الشهداء. أذكر أن أحد التلاميذ كان يسمّى مصطفى بنبلة، وكان لاعب كرة قدم ممتاز، وهو الذي كان يرأس فريق الثانوية، والذي حصد عدة جوائز مدرسية محلية ووطنية، ونظرًا لتداول اسمه "بن بلة" المستمر وبالإشادة بين التلاميذ المشجعين لفريق ثانويتنا، وللحد من ذكر هذا الاسم الخطير في المدرجات والملاعب، فقد قررت إدارة الثانوية بعد اجتماع مهم حضره أعضاء محافظة الحزب في المدينة، وممثلو نقابة الاتحاد العام للعمال الجزائريين فرع أساتذة، وعمال التربية، وبعض العسكريين، ورجال غامضون، قررت تغيير اسم التلميذ مصطفى بنبلة، بالإجماع اتفقوا على منحه اسمًا فنيًّا يليق به ويمكن للجميع مناداته به: بيليه Pelé على اسم اللاعب البرازيلي الشهير بيليه، ومن يومها أصبح الجميع يناديه بهذا الاسم، ونُسي اسمه الأصلي أو كاد، وارتاحت الإدارة من وجع الرأس هذا، إلا إن التلميذ بنبلة أصيب بإحباط نفسي كبير وما عاد يستجيب لهذا الاسم المركب عليه تركيبًا، ويومًا بعد يوم أخذ يفقد فنيات اللعب، وتراجع مردوده في فريق الثانوية، وبدأ نجمه يخفت، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه مغادرة فريق الثانوية نهائيًّا، وانتهى بيليه.
في حالة إحباط، مسكونًا بهزيمة، ذهب بنبلة ليؤسس أول مصلى في الثانوية، وهو عبارة عن غرفة صغيرة كانت بالأساس مخصصة لتخزين أدوات عاملات النظافة، والتي ما عدن بحاجة إليها فأهملنها، وشرع منذ الأسبوع الأول في جمع التلاميذ من حوله، وكأنما كان يريد أن يظل في الصف الأول سيد الفرجة، وما لبثت أن تعددت وجوه مناصريه، جاء الذين كانوا يهتفون له في الملعب ليصلوا خلفه في هذا القاعة التي لا تتجاوز مساحتها عشرين مترًا مربعًا، ثم أخذت صفوف المصلين تتكاثر لتحتل الرواق وجزءًا من الساحة.
ثم ما لبث المصلى أن أصبح فضاء يقدم فيه مجموعة من الطلبة القادمين من جامعة وهران دروسًا في التوعية الدينية والأخلاقية، مملوءة بالشعارات المعادية للاشتراكية المادية الكافرة،

والغرب الاستعماري المسيحي.
وإذ أخذ المصلى بعدًا مثيرًا داخل الثانوية، مرة أخرى، وجد التلميذ بنبلة نفسه وباقتراح وضغط من بعض الطلاب القادمين من الجامعة مضطرًّا لتغيير اسمه، فمن جهة كان يراد له التخلص من اسم بنبلة؛ لأنه يشترك فيه مع رئيس كان اشتراكيًّا مبشرًا بفكرة "التسيير الاشتراكي للمؤسسات"، و"التأميم" وصديق كفار العالم من بريجنيف إلى شي غيفارا إلى كاسترو. ومن جهة أخرى حتى لا تجد السلطة تبريرًا من خلال هذا الاسم فتمنعه أو تضيق عليه بحجة ولائه، ولو اسميًّا، للرئيس السابق، وبالتالي يصنف في خانة المعارضة السياسية. وللخروج من هذا المأزق، فقد تولى اختيار اسم جديد له الطالب الجامعي مختار، الذي أصبح يتردد على الثانوية أسبوعيًّا وبشكل منتظم، فكان أن اختار له اسمًا غريبًا جدًّا، لم يُسمع به في الثانوية: "قطب".
لم نكن نعرف ما يعنيه هذا الاسم ولا ما يخفيه، وهو اسم غير شائع بين أسماء الجزائريين، وكنا نعتقد في البداية أنه اسم شاعر أو شهيد مغمور من شهداء الثورة الجزائرية، أو أحد الفنانين المشارقة من المغنيين أو ممثلي السينما، وقد تجاوب التلميذ مصطفى بنبلة مع هذا الاسم الجديد ولم يرفضه.

10

أوصلتني شهادات الإعفاء من حضور حصة الرياضة البدنية إلى أن أصبحت فأر مكتبة بامتياز، قرضت كتب مكتبة الثانوية جميعها تقريبًا، ثم أتبعتها بأرصدة المكتبة البلدية التي تعود إلى العهد الاستعماري، والتي عثرت فيها على عيون كلاسيكيات الآداب العالمية والفرنسية على وجه الخصوص. كنت منذ الصغر أفضل الروايات وكتب سير بعض الشخصيات الأدبية والفكرية، ولاحقًا بتوجيه من السيد ألفريد برانغير سقطت في قراءة كتب الثورات والتاريخ والحروب، وبقدر ما كنت أعشق قراءة المذكرات الشخصية للزعماء التي بدأتها بمذكرات الجنرال ديغول وتشرشل وكينيدي وهتلر وغيفارا، كنت أتجنب قراءة كتب الدين التي تتحدث بنظرة ازدراء للمرأة، وبعبثية وتساهل عن الدم وتراجيديا الحروب.

أوصلتني شهاداتي الطبية التي أعفتني من دروس الرياضة البدنية إلى التعرف على إحدى فتيات الثانوية، كانت تلميذة بالقسم النهائي علمي، كانت تريد أن تكون طبيبة حسب رغبة أسرتها، تكبرني بثلاث سنوات أو أزيد، لعدم توفر أستاذ ثان للرياضة البدنية، كانت هذه الحصة تجمع ما بين تلاميذ السنة الأولى والثانية والثالثة ثانوي في ساعة واحدة. لم يكن أستاذ الرياضة البدنية السيد خرشي ليخفي تذمره من كثرة التلاميذ، وهو الذي كان لا يجيء الثانوية إلا متأبطًا بعض المجلات والجرائد القديمة التي تعود إلى سنوات خلت، مزينة بصوره وهو يتوج بميداليات وطنية أو إفريقية في سباق العدو الريفي، لم أكن أفهم ما معنى العدو الريفي، وهل هناك عدو مديني؟ كان فخورًا بصوره في تلك المجلات، وكان يصور تلك المقالات التي تتحدث عنه في نسخ كثيرة ويوزعها علينا في الثانوية، ويعلق بعضها على سبورة الإعلانات الزجاجية، مع ذلك لم يكن يثيرني تفوقه الجسدي هذا.

الفتاة التي كنت أراها جالسة لا تبرح مكانها، مبتسمة دائمًا، بفم ذي زمة مائلة نحو اليمين قليلاً، كأنما بها حياء دائم، شعر يتسلق ظهرها شلالاً من ذهب ينـزل حتى أسفل إليتيها، لا تخفي استعراض جماله أمامي دون حرج وبأنوثة فائضة، لست أدري لماذا ومنذ البدء كنا نتحدث بالفرنسية، كانت بصوتها لكنة أنثوية مثيرة ومغرية، كنا نقضي ساعات حصص الرياضة في الحديث عما نقرأه من كتب، كانت مغرمة بشعر سان جون بيرس وتحفظ الكثير منه، صوتها المحمل بفيض من الإغراء جعلني أعود مرات لقراءة "أزهار الشر" لبودلير، و"السفينة الثملة" لرامبو، وبعض قصائد الحزن والكآبة لبول فيرلين، وقصائد الغزل لعمر بنأبـي ربيعة، و"طفولة نهد" لنـزار قباني.

هذه التلميذة بصمتها وشعرها المسدول قادتني إلى ضيافة الشعر، دون أن أتخلى عن كتب الثورات والسياسة والفلسفة والصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتارية، التي كان يقترحها علي باستمرار أستاذي ألفريد برانغير.

اسمها شفية، لم يعجبني اسمها، كنت أتمنى لو كان اسمها مونيكا، لا لشيء إلا لأنني حين تعرفت عليها كنت في هذه الفترة بصدد قراءة كتاب عنوانه: "مدينة الله" للقديس والفيلسوف سان أوغسطين؛ وذلك باقتراح من ألفريد برانغير، أعجبني هذا الاسم لما فيه من موسيقى، هو اسم والدة أوغسطين، وهي امرأة كان يبجلها ويضعها في مرتبة قريبة من مرتبة الآلهة، حتى إنني

كنت أشعر أن الشاب أوغسطين كان مصابًا بعقدة أوديب؛ فحبه لأمه لم يكن حبًّا عاديًا. كان يشتهيها كما أشتهي أنا منظفة مبيت التلاميذ كل صباح.
قررت أن أناديها باسم مونيكا، حين ناديتها أول مرة بهذا الاسم لم تستغرب، وكأنما كانت تنتظر مني مثل هذا الإبداع، ورحبت بذلك، ربما هي الأخرى لم تكن تحب اسمها، أنا أيضًا لا أحب اسمي، أجده مضحكًا كل ما ذكرته أمام الناس: أنـزار، مع إنه اسم إله السماء والمطر عند البربر، كما كان يشرح لي ذلك جدي الذي اختاره لي بافتخار.
قالت لي بابتسامة مثيرة وقد أدهشتني مرة أخرى، وككل مرة زمة فمها المائلة قليلاً نحو اليمين: من أين جئتني بهذا الاسم الغريب؟ من أي كتاب اختطفته؟ كانت تعتقد أنه اسم لمغنية أو شاعرة، أو ممثلة سينمائية أو فنانة تشكيلية، أو في أفضل الأحوال اسم لثائرة سوفياتية أو ألمانية، وحين شرحت لها من أين سرقت لها هذا الاسم، من أي بستان قطفته؛ تفاجأت بأن يكون اسمًا لامرأة جزائرية، ولم تكن تعلم أساسًا بأن سان أوغسطين جزائري ولد بطاغست، أي سوق أهراس حاليًا. أعجبها اسمها الجديد هذا الذي أطلقته عليها، ومن لحظتها لم أنادها إلا به.
كنا نجلس صامتين في مكتبة الثانوية، أقابلها وتقابلني، أرفع عيني عن كتاب بين يدي فأجدها تنظر إلي، ترفع نظرها عما بيدها فتجدني أحدق فيها. مع مرور الأيام واللقاءات بدأت أحاسيس جديدة تملأ صدري، وبت أجدني في السرير أفكر فيها، وأنا أراقب منظفة المرقد أفكر فيها، وأنا ألج منظفة المبيت أفكر فيها، وأنا أفكر في أخي مازار الذي قرر بعد الانتهاء من سنوات الجامعة، البحث عن هروب من هذا البلد أفكر فيها، وأنا أقرأ عن جرائم النازية أفكر فيها، وأنا أقرأ "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ أفكر فيها، وأنا أستمع لأغاني عبد الحليم حافظ أو أم كلثوم أفكر فيها، وأنا أحاول أن أفك ألغاز قراءة رأس المال لألتوسير دون أن أفهم شيئًا أفكر فيها... مونيكا تحاصرني من كل الجهات، تسكن تلافيف الرأس وتفاصيل الدقائق.
هذا اليوم، دعتني مونيكا إلى زيارتها في بيت والديها، هي أول مرة تدعوني لذلك، قبلت دون تفكير، على جمر انتظرت حلول يوم الأحد، وهو يوم العطلة الأسبوعي الوحيد الذي يسمح لنا فيه نحن تلاميذ النظام الداخلي بالخروج للتجول في المدينة، ولساعات محددة: من الساعة الثانية وحتى السادسة مساء.
تأخر حلول يوم الأحد كثيرًا، وكأنما الأسبوع دام أكثر من سبعة أيام! أسبوع بعمر شهر أو يزيد، اليوم تضاعفت ساعاته، والليل تضاعف ضعف طول النهار. لأول مرة أشعر بمعنى الزمن، وثقل الساعة التي تدوم أكثر من ستين دقيقة، واليوم الذي يطول أكثر من أربع وعشرين ساعة. صباح يوم الأحد، كان استعدادي لهذه الزيارة الاستثنائية، أول مرة في حياتي أمسح زوج حذاء استعرته مع علبة الدهن المُلمِّع من تلميذ لا يشبه الآخرين، كنا نطلق عليه اسم "البورجوازي الصغير"(le petit bourgeois) لشدة اهتمامه بشكله، وعلى وجه الخصوص بحلاقة وتسريحة شعره ونظافة قمصانه وحذائه الملمّع يوميًّا، وكان يقول لنا: الفتاة لا تنظر إلى وجه عشيقها أولاً، بل إلى شكل ولمعان حذائه. كنا نضحك ونرد عليه: إذن الرجل لا يتعدى وزنه في عين المرأة قيمة حذاء! كان البورجوازي الصغير جادًّا دائمًا، قليل الضحك، دقيق الموعد، يحب الموسيقى الأندلسية ويحفظ ريبرتوارها كاملاً، أنوثة ما طافية على حركاته وعلى طريقة حديثه.
وعلى الرغم من أن يوم الأحد تأخر كثيرًا إلا إنه حل أخيرًا، صباح ربيعي، تهيأت ولبست ما هو أجمل عندي، ونظرت إلى الحذاء المستعار الملمّع في رجلي وضحكت، وانطلقت في اتجاه

المدينة. الحي الذي تسكنه مونيكا أعرفه، فلطالما زرته وأنا متوجه إلى الحديقة العمومية التي كنت أختلي فيها؛ لإتمام قراءة كتاب أو مقال في مجلة باري ماتش أو ليسبري أو الكواكب أو الهلال، وتلك هي مجلاتي المفضلة.
تقيم مونيكا في حي الميموزا، هو حي راق نسبيًّا، تعجبني الحديقة التي نقطعها قبل الوصول إليه، إذا أردنا اختصار مسافة الطريق، فيها ظلال شجر السرو، أيام الصيف والربيع كنت آوي إليها للقراءة والاستماع إلى سيمفونيات العصافير التي كنت أعرفها وأسميها على أسماء أبناء قريتي طيرًا طيرًا، كلما جلست هناك أشعر بها وكأنها تعرفني، تحوطني في شكل أسراب، وبعضها يتجرأ ليحط على كتفي أو على صفحات الكتاب أو المجلة التي أطالعها... كانت تشاركني القراءة والكرسي الخشبي فلا تخشاني، ذات يوم قررت أن أكلمها، قلت في نفسي سأقول لها: إني أحبك كما أحب أخي مازار وأخواتي هاجر وفاطمة وعائشة والزهرة وسكينة، وكما أحب عمتي الراقصة والعم سليمان متيم أختي هاجر... وترددت؛ إذ إن لغة البشر لغة كاذبة ومليئة بالنفاق والغموض والدسيسة، فبحثت لي عن لغة أخرى، قلت سأخترع لغة أحمِّلها ما في قلبي من أحاسيس، تمنيت لو أنني أعرف لغة سليمان-الناي، ومع ذلك خاطبتها بلغة اخترعتها، أبدعتها، أسرعت جميعها إلي وبدأت تضحك معي وتلاعبني، وبعضها بدأ يقرأ معي في الكتاب، ويحاور أفلاطون في درس الفلسفة، ويصحح لكارل ماركس أخطاءه التاريخية عن مفهومه للشرق، وبعضهم يقول شعرًا بدأت أفهمه، والبعض الآخر يسخر من سطحية شعر المتنبي، وإنشائية أبي تمام وروني شار وبودلير ورامبو... شعراء لطالما افتخرت بهم وقضيت الليالي والأَنْهُرَ أحفظ أشعارهم وأرددها على مسامع مونيكا.
وقفت قليلاً في الحديقة، نظرت إلى حذائي الملمّع جيدًا، ضحكت من نفسي، جلست على المقعد الخشبي العمومي، كأنما أسترد أنفاسي قبل أن أصل بيت مونيكا. بحثت عن الطيور التي لطالما حدثتها قبل اليوم لم تكن هناك، لا شيء في الحديقة سوى حذائي الملمّع جيدًا، وأنا وشجر سرو لا يتكلم.
لماذا اختفت العصافير؟ ألأني استعرت شيئًا من البورجوازي الصغير، وبالتالي خنت نفسي؟
نظرت حولي لم أجد معنى لوقوفي ولا لجلوسي ولا لذهابي ولا لإيابي، نظرت ثانية إلى حذائي وقد بدأ يشد على قدمي؛ لأنني اكتشفت أنه أصغر من قياس قدمي برقمين. ونظرت أيضًا إلى المعطف الذي أرتديه والذي استعرته أيضًا من صديق لي حتى أكون في مستوى الموعد، موعد في حي الميموزا، فوجدته باهت اللون وأكبر مني بكثير، عريض على مستوى الكتفين وطول الكمين.
بحثت عن طعم مربى المشمش في فمي فلم أجده!
بحثت عن رائحة جافيل والصابون الصاعد من جسد منظفة المبيت فلم أعثر عليه!
بقيت هكذا في تردد، ثم قررت أن أغادر الحديقة وأعود أدراجي إلى الثانوية، سالكًا الطريق نفسه. كنت أشعر بأنني أسرع الخطى وكأنني هارب من شخص ما يطاردني، لم ألتفت خلفي وتحاشيت أيضًا النظر إلى الحذاء الملمّع، وكذا شعرت برائحة عرق مقرفة تصعد من المعطف المستعار، عرق صديقي، فجاءتني رغبة في القيء.
بمجرد تخطي عتبة بوابة الثانوية، سحبت زوج الحذاء من قدمي وقد حبس كل جريان الدم في قدمي من كثرة الشد عليهما، سرت حافيًا بعض الأمتار في الساحة التي تستعمل ملعبًا لكرة القدم،

تذكرت التلميذ بنبلة نجم فريق كرة القدم لثانويتنا، وشعرت بالراحة وما يشبه الدغدغة وأنا أسير حافيًا فوق الحصى الناعم البارد، أحمل في يدي حذاء صديقي "البورجوازي الصغير". كانت المؤسسة هادئة وقد غادرها جميع التلاميذ الداخليين في جولتهم الأسبوعية إلى المدينة، بـي رغبة إلى البكاء، وشوق لأخي مازار.
كلما شعرت بالحزن أو سكنتني حالة من الانطواء، كهذه التي هجمت علي اللحظة وبمجرد أن ارتميت على السرير مبحلقًا في السقف، أعود إلى بعض الشخصيات من بطلات الروايات لأتخذ منهن رفيقات، أتفرس ملامحن، وألاحقهن عبر الصفحات أو عبر خيالي. أحببت بعض البطلات في روايات هنري ميللر فقرأتها عشرات المرات، وحفظت كثيرًا من الفقرات المجنونة، وأحببت أنوثة شخصية سميرالدا في "أحدب نوتردام" لفيكتور هيغو، فقرأت الرواية أكثر من خمس مرات، وأحببت إيروتيكية لغة مراسلات جبران خليل جبران ومي زيادة المكبوتة؛ فقرأتها مرات ومرات، وحفظت بعض نماذج منها وكتبتها في كراريس خاصة، وضمنتها كثيرًا من رسائلي إلى مونيكا.
لماذا هربت من مونيكا وأنا الذي انتظرت على نار هذا اللقاء؟ في الحقيقة أنا لم أهرب، ولم تكن مونيكا هي السبب، بل إنني حين لم أجد الطيور التي تعودت محاوراتها في الحديقة العمومية، شعرت بضيق في التنفس، وأحسست كأنما هي بداية نهاية العالم.
تيقنت بأن نهاية العالم تبتدئ باختفاء الطيور وهروب الكلاب واختبائها تحت الطاولات.
فاختفيت لأنني من فصيلة إما الكلاب أو الطيور!

11

كنت حين أعود إلى بيتنا الكبير في قرية باب القمر في عطل الشتاء والربيع والصيف، أو لبعض أيام عطل الأعياد الدينية وعطلة الفاتح من نوفمبر عيد الثورة؛ أشعر بإحساس غريب يجرني إلى العزلة، أختلي بنفسي في المصلى الذي يتكون من غرفة واحدة لا تتجاوز مساحتها الثلاثين مترًا مربعًا، بنافذة صغيرة واحدة، سقفها صنع من خشب وديس وتراب أحمر، مفروش بحصير منسوج من سعف الدوم والحلفاء. لقد بنى جدي هذا المصلى من ماله الخاص وعلى قطعة أرض هي أرض أجداده، حاول بعض عمال البناء وأيضًا بعض من ساكنة الضواحي مساعدته ببعض أكياس الإسمنت والخشب والحجر واليد العاملة، لكن جدي كان مصرًّا أن يدفع لكل من يأتي بشيء ولو رمزيًّا؛ حتى يربح الأجر عند الله كاملاً، ويحوز الشرف عند القرية غير منقوص. كان جدي لا يتوقف عن تكرار هذه العبارة وهو يتابع بناء المصلى: "من العيب والكفر أن تكون قرية باب القمر وكذا المداشر القريبة منها بدون مصلى، ولو كان ذلك لأداء صلاة العيدين الصغير والكبير، وتراويح رمضان".

لقد تم إنجاز المصلى في أقل من ثلاثة أسابيع، وتم افتتاحه في حفل صلاة كبيرة، صلاة للرجال والنساء والأطفال، صلاة سلام المسجد، وكانت وليمة كبيرة، لعب فيها الفرسان الفانتازيا. وكان جدي بهذا العمل الديني الكبير قد مسح بعضًا من التشويهات التي لحقت بشخصه، من جراء ما ظل يتناقله كثير أبناء القرية والضواحي عن علاقته المشبوهة بأمي التي كانت أجمل امرأة في المنطقة، كان بناء المصلى نهاية الإشاعة، وبافتتاحه كممت الأفواه، فالرجل الذي يبني بيتًا لله، فيه يرفع الأذان وتسمع قراءة كتابه الكريم، لا يمكنه أن يقيم علاقة عشق كهذه ينهى عنها الشرع ويحرمها.

كان المصلى يظل مقفلاً على مدار شهور السنة، ليفتح وينظف ثلاثة أيام قبل بداية شهر رمضان، حيث تقام فيه صلاة التراويح وصلاة العشاء دون غيرها، ويرفع فيه الأذان بلا مكبر صوت، أذان المغرب فقط، وبصوت جدي الذي كانت فيه بحة جميلة، ومرات بصوت والدي، وتؤدى فيه صلاة العيدين الصغير والكبير.

كان أخي مازار يحلم أن يؤذن يومًا في هذا المصلى، هو حلم يذكرني به كلما سمعنا معًا أذانًا مرفوعًا ولو في الراديو.

اتخذ المصلى اسمًا له هو اسم جدي، فمن يوم رفع سقف بيت الله هذا أصبح الناس يقولون: مصلى "الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي". ولست أدري لماذا أضافوا كلمة الحاج إلى اسم جدي المكتوب على مدخل بيت الله بالعربية وبالفرنسية بطلاء أخضر، مع أن هذا الأخير لم تطأ رجلاه بلاد الجزيرة العربية، ولم يزر الأراضي المقدسة لا للحج ولا للعمرة، ولا حتى لتجارة الخيل التي كانت أحب الأنشطة إلى نفسه.

اعتاد أهالي قرية باب القمر ودشورها في الضواحي مناداته بالحاج مزيان الكومي، وكان جدي فخورًا بذلك، حتى إنه كان إذا ما جلس في مجمع شرع في رواية بعض الحكايات المختلقة عن رحلته إلى الحج، فيصف متاعب الطريق الطويل الشاق المليء بقطاع الطرق، الذين يعترضون قوافل الحجاج فيسلبونهم أموالهم وأغراضهم وتجارتهم وهداياهم، باستثناء ماء زمزم لم يكن قطاع

الطرق قادرين على سرقته؛ فهم يعتقدون أن سرقة هذا الماء يجلب عليهم لعنة الله، وبالتالي ينقطع رزقهم الذي جعله الله في حوافر خيل وبغال وجمال قوافل الحجاج، وإن كان ذلك نهبًا وسرقة، كل دابة إلا وعلى الله رزقها، ولا عجب في ذلك!

كنت أعلم، كما الجميع يعلم من الجالسين في حلقته مشدودين إلى حكاياته، بأن جدي لم يذهب إلى الحج، ومع ذلك كنت، كما كان كل من سمعه، أستمتع بحكاياته الغريبة وأخباره، وتفاصيل مشاهداته في القدس ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد الشام، وكان يفصل كثيرًا في حديثه عن أهل مكة، وعن قبر الرسول في المدينة، وكلما جاء ذكر قبر الرسول يصلي عليه ثلاثًا ويقول: ياليتني مت عند قدميه ودفنت هناك. مع ذلك كنت أشعر أن جدي كان غير صادق في تلك الأمنية وفي تلك الصلاة؛ فهو يحب الحياة وركوب الخيل، ولا شيء يفوق أو يسبق اعتناءه وعنايته بحصانه، أكثر من الصلاة نفسها.

كنت حين أعود إلى القرية في أيام العطل، أقضي سحابة يومي في هذا المصلى الذي يُترك بابه مردودًا دون مفتاح، ولا أحد يتجرأ على الدخول إليه، فيه كانت تطيب لي قراءة روايات جورجي زيدان وحفظ المعلقات السبع. في البداية لم أكن أتجرأ على القراءة باللغة الفرنسية في هذا الفضاء، كنت أعتقد أنها لغة ملوثة لا يمكن إدخال كتب مكتوبة بها إلى هذا المكان، الذي يقرأ فيه كتاب الله وتقام فيه الصلوات ولو شحيحة، ولكن شيئًا فشيئًا نسيت دلالات المكان وشرعت في قراءة نيتشه، كان "هكذا تكلم زرادشت: كتاب للكل ولا أحد" أول كتاب قرأته باللغة الفرنسية في هذا المصلى، وكانت تنتابني حالات من الهوس وأنا أغرق في تعاليمه المعقدة، حين أحس بالضياع أو ما يشبه الدوخة مع نيتشه أهرب إلى أشعار نـزار قباني، كنت أخفي ديوان "طفولة نهد" في غلاف عتيق مقوى لصحيح البخاري، أفتحه ثم أشرع في الحفظ فأشعر بحرارة في جسدي تطلع كالشهب من أعماقي، حين أصل إلى حالة شعورية كهذه، أغادر المصلى في اتجاه النهر القريب، وأداعب عضوي حتى حفافي الرعشة ثم أرتمي في الماء أغتسل، الوضوء الكبير، أطلب من الله العفو، وأعود إلى المصلى نظيفًا بدون شيطان لمواصلة قراءة "هكذا تكلم زرادشت".

إذا كان الناس عادة يجيئون بيوت الله لحفظ كتابه الشريف، فأنا في مصلى جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي حفظت عن ظهر قلب كتابين: "النبـي" لجبران خليل جبران، و"هكذا تكلم زرادشت: كتاب للكل ولا أحد". في البداية كنت أعتقد بأنهما كتابان في الدين، وأنهما ينتميان إلى الكتب الدينية التي لا يعترف بها ديننا الحنيف الإسلام.

... مغتنمًا فرصة عودتي إلى قرية باب القمر لقضاء عطلة الصيف، التي تمتد على مدى ثلاثة أشهر من منتصف يونيو إلى منتصف سبتمبر، كنت لا أفوت فرصة الذهاب إلى السوق الشعبـي في القرية الرئيسية الكبيرة، سوق يقام كل يوم ثلاثاء، وبالتالي يسمى السوق سوق "التلاثا"، والقرية التي يقام بها السوق تسمى قرية "سوق الثلاثاء"، القرية خلقت السوق، أم السوق هو ما أنشأ القرية؟ بين هذه القرية وسوقها حكاية تشبه حكاية: البيض أسبق أم الدجاجة؟

في السوق الأسبوعي يجتمع خلق كثير من الفلاحين والفلاحات، أغلبهم يتسوقون على دوابهم لبيع غلالهم، ومقابل ذلك اقتناء ما يحتاجونه من زيت وصابون وغاز وقهوة وألبسة وأشياء أخرى. كان اليوم مشمسًا والمتسوقون يستعدون لاستقبال يوم عيد الأضحى، وعلى وجوههم ملامح البهجة والرضى، في مثل هذه المناسبة يعود جميع أبناء القرية من الموظفين والعمال الذين بلعتهم المدن البعيدة إلى باب القمر، لقضاء يوم العيد بين أفراد أسرهم. درت السوق مستمتعًا بفوضاه الرائعة،

صراخ باعة ونهيق أحمرة وأصوات دق المسامير في حوافر البغال والأحمرة والأحصنة، ومحرك الطاحونة يدور بسراب من الدخان ورائحة المازوت وسحاب من غبار الدقيق يخرج من نافذة صغيرة ومن الباب، أكياس القمح والشعير في صف طويل عليها أرقام كتبت بقطعة فحم، وهنا بائع الخضر إلى جوار بائع اللحم، إلى جوار إسكافي وبائع للأحذية المستعملة، إلى جانب بائع زيت الزيتون، إلى جانب بائع الحناء والصابون الحلبي والفاسي، إلى جانب بائع الأدوات المنـزلية، الأواني والقدور والمقالي موضوعة على الأرض دون ترتيب. كنت سعيدًا وأنا أتجول في السوق، هنا أشعر بالحرية، أشعر بأن بإمكاني الطيران بمجرد فتح جناحي للريح، حرارة إنسانية كبيرة تتسلقني فأشعر بأنني ملتصق أكثر فأكثر بهذه الأرض، بسمائها وبناسها، أحس وكأنني نبتة أو شجرة عروقها في عمق التربة، ورأسها يتوق للمس قبة السماء التي لا تشبهها سماء أخرى رفع عمادها فوق مكان آخر، الناس تبتسم للناس، والجميع يعرف الجميع ويناديه باسمه.

في أقصى نقطة من السوق كان أحد الباعة يصرخ على سلعته في مكبر صوت معلق في عنقه، بفضول واضح أحاط به خلق كبير، اقتربت من الحلقة التي ما فتئت تكبر وتكبر، وإذا بـي أمام بائع أسمر البشرة، رجل ضخم الجثة حافي القدمين، بصحبة زوجته التي ترتدي لباسًا أزرق فضفاضًا، عبارة عن إزار عريض يلف جسدها الثخن، تحرك سالفًا طويلاً ينـزل شلالاً أسود فوق ظهرها ليصل حتى أسفل الردفين، كانا يتناوبان على الكلام في مكبر الصوت، تارة بصوته الأنثوي الرقيق، وأخرى بصوتها الرجولي الجهوري. كانا يناديان على سلعة غريبة، يقولان إنها عقار في شكل غبرة لتقوية الرغبة الجنسية، وإن من يتناولها لن ينـزل من على جسد زوجته، حتى يزرع في أحشائها دزينة من أطفال في ليلة واحدة، حركات أرداف المرأة وهزهزة عجزها الثخن مثيرة ولافتة لانتباه المتفرجين، متبوعة بإشارات فاضحة من يديها وهي تتحدث عن فعالية الدواء العجيب الذي يعيد للرجل فحولته، عقار إذا ما شربه الرجل العاجز الخامل الهرم لا يقوم عن زوجته الليل بأكمله، بطوله وعرضه، لا يقوم عنها إلا ليعود إليها وكأنه لم يذق من عسلها من قبل، من له في القضيب قطعة لا يتجاوز طولها حبة الكاوكاو يتحول بفعل العقار هذا إلى وتد ينافس عضو الحمار... وكان الناس يضحكون لحركاتها وهي تقبض على زوجها بين فخذيها في حركة بهلوانية جنسية، وكان هو أيضًا يلتصق بها ماسكًا إياها من الوركين وهي تصرخ هاربة منه. كان البعض من الشيوخ ومن الأقل شيخوخة يشترون بتستر وسرية وحشمة هذا العقار العجيب، يعطي الواحد قطعة الدينار أو النصف دينار، ويأخذ مقابلها العلبة العجيبة ذات الحجم الكبير أو الصغير، يخفيها في جيبه ثم يختفي من الحلقة، يحك ما بين فخذيه حكًّا.

كنت أتابع هذا وأفكر في ردفي منظفة مبيت التلاميذ في ثانويتنا، وأتلذذ ما بقي من طعم مربى المشمش في خاطري.

كانت المرأة تتكلم في البوق بصوتها الرجولي حاملة في يدها كُلاّبا، تنادي المتسوقين قائلة إن في أصابعها السحر والعجب العجاب، فهي قادرة على خلع أي ضرس دون ألم ودون إراقة قطرة دم واحدة، وتعرض في الوقت نفسه غبرة سوداء تشبه الفحم المطحون، تقول عنها إنها تقضي على مشكل التسوس، وتعيد ما خرب من الأسنان وتبيضها بياض الحليب، وتعيدها قوية قادرة على طحن الحجر.

تُجلس الزبونَ على حصير بين فخذيها، تمسكه بينهما بقوة كما الكماشة، لا يستطيع له منهما فكاكًا، ترفع رأسه إلى الفوق، تأمره أن يفتح فاه، تدفع بالكلاب في الفم المفتوح، ثم تصرخ باسم الرسول وباسم عائشة، ينط الزبون بين فخذيها كالفأر، لا تتركه إلا إذا كانت السن أو الضرس بجذورها وقطع من اللحم في رأس الكلاب. تضربه ثلاث ضربات على ظهره، تمنحه ماء مملحًا في كاس بلاستيكية، ثم علبة الغبرة السوداء، تدور دورتين راقصة وسط الحلقة والسن في رأس الكلاب بدمها، تأخذ من الزبون القطعة النقدية دون أن تنظر إليها، ترمي بها في قبعة بيضاء موسخة تستعملها لجمع النقود، ثم تنادي على الزبون الثاني.

إضافة إلى عقار تقوية الرغبة الجنسية وتكبير القضيب وخلع الأسنان، كان هذا الزوج الصحراوي يعرض للبيع تشكيلة متنوعة من الأعشاب والبهارات والبخور والعطور، وبعض الحيوانات المجففة المحشوة بالنخالة من زواحف وحيوانات الصحراء، من ضب وغزال وطيور وأفاع وضفادع وخنافس غريبة الشكل. وإلى جانب ذلك وعلى بساط مغبر من الدوم، تُعرض للبيع أيضًا بعض المخطوطات المهترئة التي أكلت كثيرًا من أوراقها الأرضة، وزادها تلفًا المناخ من حر وبرد ورطوبة، مخطوطات مكتوبة بالعربية والحسانية والأثيوبية والعبرية، وكذا مجموعة من المجلدات المغبرة والكتيبات الشعبية في الجنس والزواج وصلاة الميت والسحر وتفسير الأحلام. ولعل ما كان يثيرني في كل هذا المشهد هو تلك الصور الساذجة الجميلة التي تجسد بعض صحابة الرسول عليه السلام، من علي وأبـي بكر وبلال وأبـي ذر الغفاري وخالد بنالوليد وعمر بنالخطاب. وقد أثارتني صورة الحسن والحسين حيث رسما برأسي إنسانين وجثة أسد، وصور لجبرائيل وآدم وحواء عاريين أو يكاد، وإبليس وحوريات الجنة وسعير جهنم والكعبة المشرفة والمسجد المقدس، والخلفاء العثمانيين خاصة سليمان القانوني، وبورتريهات كثيرة لمصطفى أتاتورك وقصر تاج محل والعلم الجزائري وبعض رايات الطرقية.

شدني منظر الكتب والمخطوطات في هذا الفضاء الغريب تحت هذه الشمس الرصاصية، فوقفت أتفحص عناوينها وشكلها من بعيد؛ خوفًا من أن تهجم عليّ السيدة الثخينة فتضعني بين فخذيها لتقلع ضرسًا من فمي، أي سن! أو خوفًا من أن تعانقني وتشدني إليها شدًّا وهي تصرخ منادية على زوجها إحضار العقار المقوي للشهوة الجنسية؛ كي تغتصبني أو تطلب مني أن أفعل معها ما أفعله مع منظفة مبيت التلاميذ كل صباح. ومع ذلك وبحذر شديد، بعد أن تأكدت من أنها منشغلة في عملية دقيقة تتصل بخلع ضرس معقدة لزبونة يبدو أن لسانها مندلق، جراء الألم، بكل أنواع الوقاحة، مطمئنًّا، اغتنمت الموقف فانحنيت على الكتب والمخطوطات أقلب أوراق بعضها، لم أنتبه فإذا المرأة واقفة عند رأسي، مبتسمة بخبث وكأنما أمسكت بلص يضع يده في جيبها، مكبر الصوت في فمها، شدتني من كتفي، رفعت صوتها قائلة: ها هو الدكتووووووور، ياأهل السوق، قد نـزل لتوه من حافلة أقلته على عجل من المدينة الكبيرة تلمسان، مدينة العاشقين سيدي بومدين ولالة الستي، جاء ليشهد على علمي وعلى فعالية عقاري! كانت تبرّح في الناس وهي تلتصق بـي وتنادي على زوجها بإحضار دواء تقوية الرغبة الجنسية، وتضع في جيبـي علبة من هذا العقار العجيب، وأنا أرفض، مضيفة في البوق: إننا نريد ذرية كثيرة منك حتى يزيد العلماء وتقوى الأمة، ونصل أطراف العالم ويعم الإسلام ونصبح أقوياء مثل الألمان. وبدأت تقرأ شعرًا باللغة الحسانية في شكل نقيضة يرد عليها زوجها محاولاً رفع صوته بما يستطيع دون بوق، واضعًا يده على أذنه اليمنى تارة واليسرى تارة أخرى.

أخلت سبيلي، إذ عادت للسيدة التي تشكو ألمًا في سن ثانية، اغتنمت الفرصة لقراءة عناوين المجلدات وتصفح بعضها، ومررت على الكتيبات التي أغلفتها الساذجة توحي بمضامينها دون تعب في فتحها، شدني عنوان غريب لكتاب للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، وهو: "نواضر الأيك في معرفة النيك"، نظرت يمينًا ويسارًا وأنا أقرأ وأعيد قراءة العنوان مرة ومرة ومرات: "نواضر الأيك في معرفة النيك"، لم أفهم كلمة "نواضر"، فتحت على الورقة الأولى وقرأت فاستغربت ودهشت:

"الحمد لله مزين قدود الأبكار بالنهود في الصدور، وجاعل ساقات النساء مناطق لأخصار الذكور، والمسيل على أرداف الغزلان دوابر شعور القوم رماح الأيور، للطعن في الفروج، لا في النحور. الباني قبب مقاعد الأرحام، بتحرير القياس ما بين القبول والدبور، ليجلس عليه الزاهر لساعة الناشر في المنشور. المعلق قناديل الأكساس بسلاسل السرورة، فياله من عظم سقف مرفوع، وهول بيت معمور. أحمده على ما ركب في شهوة النكاح من لذة الرفع والنصب بين الجار والمجرور، وأشكره على ما أروع من طيب سماع الغنج من غير مزمور.

يا أيها الناس: انكحوا ما طاب لكم من الملاح، واقطعوا العمر في أكل، وشرب، ونيك، وإخراج، فهنيئًا لمن غلب محبة البنات على البنين، وجود وهز اللهو على الكس المقبب السمين. وطوبى لمن لمس خدًّا أسيلاً، وغازل طرفًا كحيلاً، وضم خصرًا نحيلاً، وركب ردفًا ثقيلاً. واعلموا أن من جلس على أطراف قدميه، وطعن بأيره قلب الكس، وأحسن التجويد عليه، وأسرع في إنـزال عسيلة المرأة، مالت النساء إليه، فاغتنموا هذه العشرة، وغرقوه إلى الشعرة. وانكحوا من السمر القصار، ومن البيض الطوال. وإذا عمد أحدكم إلى نيك امرأته، فليلو مرافقها قبل أن يعانقها، ويقرص مفاصلها قبل أن يواصلها. وأكثر من هراشها ثيب أن تلقيها على فراشها. وأحسن في إطراحها قبل نكاحها، وجد بيدك تكة اللباس. وجسّ قبة الأكساس. وخذ في عناقها، قبل شيل ساقها. ثم قبّل الخدين. وأعرك النهدين. ومصّ الشفتين. وابدأ بالتحليك. وثنّ بالتعميق. وثلّث بالتصفيق، حتى تبقى تعي ولا تفيق".

اقتنيت الكتاب، بعد أن أخفيت عنوانه حتى لا ينكشف سري أمام المرأة فتفضحني في البوق، ناولتها ما طلبته مقابل الكتاب دون مطالبة في التخفيض، وهو ثمن زهيد لا يتجاوز ثمن علبة واحدة لعقار القوة الجنسية، ومع الكتاب أهدتني السيدة بعض الصور الشعبية التي تمثل الملك جبرائيل وعلي بنأبـي طالب مع ابنيه الحسن والحسين.

حين اقترب النهار من المساء عدت إلى البيت، وبمجرد وصولي اختليت في مصلى جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي للقراءة، غرقت في عوالم كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي. لم أغادر المصلى حتى جئت تقريبًا على آخره، وقد دهشت لجرأة محتواه في تفاصيل حديثه عن الجنس وأوضاعه ومتعه، استغربت أن يكون الكتاب على هذه الدرجة من الوضوح الذي يصل حد الفضيحة، خاصة وأن مؤلفه مفسر لكتاب الله.

كان كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للسيوطي هو الذي فتح لي طريقًا آخر في القراءة، فتح شهيتي لاحقاً على كتب التراث في الفقه والأدب واللغة وسير الرسل والأنبياء والملوك.

المفاجأة التي خلفها كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، جعلتني لا أخلف موعدًا لسوق شعبية في أي بلدة كنت، بهذا الحدث أصبحت الأسواق الشعبية هي

مصدر تمويل مكتبتي الأولى؛ إذ منها اقتنيت أولى كتبـي التي شكلت مغامراتي في القراءة التراثية، وخلخلت لاحقًا صورة نيتشه وألتوسير.
أذكر أن ثاني كتاب اشتريته بعد كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للإمام السيوطي كان كتاب "الوسادة الخالية" لإحسان عبد القدوس، الذي التهمته في ليلة واحدة.
كان الإمام السيوطي وإحسان عبد القدوس هما اللذان فتحا عيني على كنوز الأسواق الشعبية ومفاجآتها من الكتب، فكنت أترقب بشغف أيام العطل للذهاب إلى كثير منها، والمتواجدة في القرى المجاورة لقرية باب القمر، أجلس في الصف الأول لأستمتع بحلقات الحكواتيين، أسمع منهم سير الصحابة والملوك والشعراء والجن، وأهيم في غرائب الحكايات عن الحرب والحب والخيانات، خيانة الخدم لأسيادهم الملوك ليكتشفوا على أسرتهم مع الملكات والأميرات، أشتري كتبًا غريبة، جريئة ومشتهاة، وأعود إلى خلوتي بالمصلى.

12

لي عمة لا كالعمات، ولا كالخالات، عمتي فاطنة امرأة مطلقة تعيش تحت سقف البيت الكبير، امرأة جميلة وجريئة وتحب الرجال، ولا تتردد في تبديلهم كلما أتيحت لها الفرصة لذلك، كما تبدل سروج الخيول. كانت فارسة، تزوجت من عازف القرية: سليمان-الناي، كان شابًّا لم يقفل العشرين، حين تزوجا كان يصغرها بسبع سنوات، استغرب الناس كيف يتزوج شاب من امرأة أكبر منه سنًّا فاستهجنوا ذلك، واعتبروه عيبًا يشرف على منطقة الحرام.

منذ أن ظهر سليمان-الناي في باب القمر لا أحد تساءل: من أين جاء ولا ما السر الذي جاء به إلى هذا المكان؟ لكنه حين وُجد في القرية فكأنما كان هنا قبل أن تنبت القرية أصلاً، لا يزعج أحدًا ولا يتدخل في شأن، وقعت عين عمتي فاطنة عليه، وعين عمتي لا تخطئ صيدها، وكان صيدًا نادرًا.

منذ أن نـزل القرية، لم يكن الناي ليغادر شفتيه، كانت له شفتان غليظتان كأنما صنعتا ملحقتين بطرف قصبة الناي، لا يُرى إلا عازفًا. كان الناس يعتقدون أنه أبكم فهو لا يكلم أحدًا، لم يعرف أحد صوته، وأصبح في مرحلة تالية يحاور الناس بالناي، كل فاصل إيقاع يحمل رسالة، سكن المصلى ولم يعترض على وجوده في بيت الله لا جدي ولا أبـي، وكانت عمتي فاطنة أسعد الناس بوجوده هناك، كانت تقول: بيت الله يلزمه فقيه أو معلم قرآن أو ولي صالح أو نبـي، وها هو النبـي قد حل.

لعمتي فاطنة شفتان مرسومتان بدهشة على فم منحوت بإعجاز، منتفختان قليلاً تثيران الرغبة عند الكلام كما عند السكوت، وكلامها أكثر من سكوتها، كل من سقط في حبها كان سببه الشفتين اللتين تسيلان إثارة وإغراء. أقسمت عمتي بمجرد أن شاهدت الشاب وقد دخلت عليه لأول مرة في المصلى المهجور، حاملة إليه إبريق قهوة وخبز مطلوع وقطعة زبدة معز ذائبة قليلاً، قائلة: هذه الشفاه التي تخرج لحنًا لن تقع إلا على هاتين الشفتين اللتين منهما يتدفق عسل اللذة. كانت عمتي ذائبة كقطعة زبدتها وهي تنظر إليه وهو يهرب من شرر النظرات.

وحين خطت عمتي نحو الشاب سليمان-الناي، تراجعت فتيات القرية جميعهن، لا واحدة منهن تستطيع منافسة عمتي في مثل هذه المسائل، مسائل القلب والغواية. كانت أمي أيضًا تقول: ستفضحنا هذه الساخنة مع هذا الشاب الغريب.. الأرنبة! وبعد أيام تصاعد أول عطر حكاية الحب بينهما، لكن لا أحد استغرب ذلك، إنها فاطنة! وأخذ الناس يتداولون تفاصيل الحكاية ويزيدون فيها أمتارًا من سرد الفتن والإفتان، الأمر الذي أزعج جدي هو أن يحدث مثل هذا في مصلى هو بيت الله، حتى وإن كان مهجورًا إلا أن به نسخًا من كتاب الله وسيرة النبـي عليه السلام، وبه تقام بعض الصلوات وإن في مناسبات متباعدة، ما بين صلاة الميت وصلاة العيدين. عرف الجميع قصة حبهما حتى إن أخي مازار، ومن باب المزح سماهما: "قيس وليلى". ولا أحد في القرية فهم معنى هذه التسمية، حتى أنا لم أفهم شيئًا، مع ذلك فالجميع في البيت الكبير نسي اسم فاطنة وأخذ ينادي عمتي باسم: "قيس وليلى". وبذات الاسم ينادى عشيقها سليمان-الناي أيضًا، خفية عن جدي وعن والدي كانت عمتي تخرج بمعية عازف الناي لترقص وتغني في الأعراس حتى مطلع الفجر، متنكرة تارة في ألبسة النايليات والبوسعاديات، وتارة أخرى في عباءات الشلحيات الأطلسيات المغربيات. كانت ترقص بشكل هائل، حتى إن عمي سليمان كان يحضر حفلاتها خفية وهو يعلم

بأنها هي أخته، ولكن ولإعجابه برقصها لم يكن ليتدخل أو ليحاول منعها، بل كان يصفق كما يصفق الناس ويعطي الموسيقي عازف الناي عشيقها ما بإمكانه أن يعطيه من نقود، ولا يتردد في مشاركتها رقصة حين تطلبه، كانت هي الأخرى تعرف بأنه على علم مَن تكون!

تزوجت عمتي من الشاب عازف الناي، الزواج بالنسبة لها لعبة قد تنتهي بعد ساعة، قد تزيد بقليل أو بكثير، ارتاح جدي لهذا العقد، حين يجتمع أهل البيت الكبير تقف عمتي في الوسط، تنصب قامتها كالفارس، ثم تتوجه بكلامها إلى زوجها سليمان-الناي قائلة: أنت أصغر مني سنًّا فما عليك إلا أن تتبعني حتى تكبر وينبت لك شاربان بحجم المكنسة، يضحك الجميع، يخرج سليمان نايه ثم يبدأ في العزف بعد أن يتأكد الجميع بأن والدي قد غادر البيت الكبير لقضاء ساعة القيلولة بالمصلى.

لم يسمع أحد من أهالي قرية باب القمر سليمان-الناي ينبس بكلمة، فهو يتحدث بنايه، يتكلم عزفًا، ولم يكن الناس بحاجة لصوته؛ فعزفه ينوب عن كل كلام بليغ.

منذ أن عرفت عمتي فاطنة سليمان-الناي لم تسمع منه كلمة، كان يحدثها بالعزف على الناي، العزف هو لغته التي يعرفها، وقد أصبحت وفي وقت قياسي تفقه جيدًا أسرار هذه اللغة. العشق ليس بحاجة إلى لغة يتكلمها الجميع، العشاق ليسوا بحاجة إلى لغة ابتذلت ما بين الناس من التجار والمهربين واللصوص والقتلة والسياسيين. كان الحوار بينهما بديعًا، فقد يطلب منها إحضار أي شيء، وذلك بعزف مقطع على نايه، فتفهم عمتي مقصده. لم تكن بحاجة إلى دروس كي تفهم لغة الناي؛ لأنها لغة يتعلمها القلب وليس العقل، والقلب قادر على أن يتعلم أعقد الأشياء في رمش البصر.

بدأ الجميع في البيت الكبير يفهم لغة الناي التي أدخلها سليمان-الناي إلى قرية باب القمر ولم تعد لغة غريبة. وأعْجَبُ ما شاهدته وسمعته هو المحاورات بين جدي وصاحب الناي، كانا يجلسان لساعات طوال في حوار معقد ومتشعب، فهذا جدي يتحدث في الشعر وسلالات الخيل وتفاصيل كتاب الله، ويذكر أسماء لعلماء في الموسيقى أو الشعر كالفارابي والكندي وابن سينا وابن قزمان وامرئ القيس والمتنبي، ولا يتحدث إلا ويستشهد بين الفينة والأخرى بأخبار من كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، وهذا سليمان-الناي يرد عليه مؤكدًا أمرًا أو ساردًا حكاية من حكايات أسفاره، كل ذلك عزفًا دون كلمة واحدة. وكان جدي يتابع عزف محاوره، وقد يوقفه معترضًا تارة على فكرة أو مستفسرًا عن مكان أو اسم شخص، كانا يضحكان، يتفقان على أشياء ويختلفان حول أخرى، ويشربان القهوة المفلفلة، لا يتحرك من جلسة جدي التي كانت تعجبه إلا إذا أشارت عليه عمتي فاطنة بغمزة خاصة من طرف عينها، يعزف عزفًا خفيفًا دلالة اعتذار، ثم يسلم على جدي ثلاث مرات على رأسه وينسحب.

وحدها جدتي البتول كانت لا تحتمل لغة عزف سليمان-الناي، فكلما صادفته في طريقها تصرخ فيه قائلة: سأكسر هذه القصبة على رأسك أيها الأبله! يعزف لها عزف الاعتذار والاحترام، تشمر عن ذراعيها الموشومين ثم تتركه وتمضي إلى شغلها. وكانت كلما وقفت على محاورات جدي الحاج عبد المؤمن مع سليمان-الناي، تصرخ كعادتها موجهة كلامها لجدي: سيخطف هذا الأبكم عقلك! ثم تواصل ساخرة: اطلب منه نايًا واعزف عليه ورافقه في الأعراس، أليس هذا أفضل لك من كتاب الله، وأنت الذي صرفت مالاً حلالاً في بناء المصلى المقفل الذي تحول إلى بيت لمواعيد العشاق؟!

كان جدي لا يرد على تعليقات جدتي ولا يوليها كبير اهتمام، ولكن فكرة تعلم لغة الناي دارت في خلده، ولأجل ذلك عاد إلى قراءة كتاب "الأغاني" لأبـي الفرج الأصفهاني وكتاب "الفهرست" لابن النديم، ليتوقف ولليال كثيرة في تدقيق بعض فصول كتابـي: "كتاب القيان" و"كتاب النغم" ليونس الكاتب (المتوفى 765م)، وهو صاحب الأصوات السبعة المعروفة بالزيانب. وإذ شغلته لغة الناي هذه أرسل إلى مكتبات فاس خطابًا تضمن طلب اقتناء رسائل الكندي (801-874) في الموسيقى، ولم تمض أيام حتى غرق جدي في دروس الموسيقى، فكان لا يتحدث إلا عارضًا أفكار الكندي في رسائله الخمس المعروفة: الإبعاد، الأجناس، الجموع، الانتقالات، تأليف اللحن، أنواع البناء اللحني، الأسباب الفلسفية لعدد الأوتار في الآلات الموسيقية، تأثير الألحان على الإنسان والحيوان، تعريف الصوت، الحروف ومخارجها عند التصويت، الصوت والحركة.... وغيرها. كانت جدتي تجلس إليه وهو يتحدث بمثل هذا الكلام فتبكي قائلة: لقد خطف سليمان-الناي عقلك ياحاج عبد المؤمن الكومي، ياسليل أمراء الأندلس، نسيت مملكتك التي أسسها جدك عبد المؤمن بنعلي الكومي، وها أنت تضرب المزمار وتهذي بأنغام غريبة!

أقامت عمتي فاطنة وسليمان-الناي في غرفة كان جدي يخصصها لعابري السبيل، فيها ينام من تقطعت به السبل، أو من لم يجد سريرًا رحيمًا أو حضنًا دافئًا يأوي إليه بعد سقوط الظلام. ولم يطل بهما الزواج إذ سقطت عمتي فاطنة في عشق سليمان آخر، هو سليمان طبال الفرقة، كان رجلاً تجاوز السبعين من العمر، سرقت أصابعه التي تضرب على البندير برقة وجنون عقلها، كانت ترقص على إيقاع طبله، وعيناها تفترسان أصابعَه المليئة بالخواتم، والتي منها يخرج الإيقاع الذي على ذبذباته يوقع جسدُها حركاته واهتزازاته الردارية الخارقة.

فتركت سليمان الأول وهو الشاب الذي يصغرها بسبع سنوات وتزوجت الثاني دون علم من جدي ولا من والدي، وهو شيخ في عمر جدي، هي عمتي فاطنة صُنعت هكذا ولا أحد يستطيع أن يغير من مزاجها، ومن تصرفاتها التي تتبع قلبها، واصلت عمتي فاطنة حرفتها كراقصة أعراس ومغنية حفلات عائلية.

ترد عمتي على كل من يسألها عن تبديل سليمان-الناي الشاب الأنيق بسليمان الطبال الشيخ المتهالك فترد: "أنا أتبع قلبـي". وتسكت.

ضجة كبرى خلفها خبر تناقله الجميع في قرية باب القمر، مفاده أن الفرقة الموسيقية الفلكلورية التي تشتغل معها عمتي راقصة ومغنية قد طبعت ونشرت أسطوانة من فئة 33 دورة، بصورة فاطنة على الغلاف المقوى، وهي في لحظة رقص مجنونة، بفخذ عار وقدمين حافيتين وخلخال من فضة صافية يلبسه ساق من مرمر.

كانت عمتي سعيدة لصدور الأسطوانة سعادة لم تذق طعمًا كطعمها من قبل.

ما أكثر اسم سليمان في هذه القرية، وكأن كل أسرة ترغب في أن يكون لها سليمانها بحكمته وقدرته على مخاطبة النمل والجن والتكلم بلغة الطير! وحين تخلت عمتي فاطنة عن سليمان-الناي وتزوجت بسليمان الطبال حزن جدي لهذا الفراق، من ليلتها تخلى سليمان-الناي لغريمه سليمان الطبال عن غرفة عابري السبيل التي كان يقيم بها، وبذلك طوى جدي أيضًا، ومن ليلتها، كتب الموسيقى وعاد إلى كتاب الله مشوشَ الذهن، وفرحت جدتي لذلك كثيرًا.

هي عمتي امرأة من حيرة إلى أخرى، فإذا كانت أصابع الطبال المصنوعة من شمع العجب والسحر قد خطفت عقلها، فإنها ظلت تحن بشكل داخلي إلى صمت سليمان-الناي، وإلى عزفه في

الشتاء كما في الصيف، عزف له فصول كفصول الطبيعة، وتضاريس كتضاريس الروح. لم يطل بها الوقت كثيرًا حتى شعرت بأن قلبها موزع ما بين إيقاع الطبل وأنين الناي، مشتت ما بين أصابع تضرب على جلد البندير فيطلع منه إيقاع مدوخ، وأخرى ترقص بجنون على ثقوب الناي فيصعد منها ما يُرقص الأرض والكواكب من حولها. وذات ليلة اندلعت في أحشائها نار الشوق، وشعشع جمر اللوعة إلى حضن سليمان-الناي فلم تجد من لهيبه مهربًا أو ملجأ؛ فقررت أن تعود إليه، وهو الذي ظل عضوًا في الفرقة يرافقها أين ما حلت، ولم يتوقف عن عزفه أجمل الألحان لها على الرغم من اختيارها الطبال بديلاً عنه.

كانت تريد أن تسأل جدي أن يبحث لها عن شيء في كتبه؛ عله يعثر في علمه الغزير ما يمكنها ويرخص لها الزواج برجلين، تجمع بينهما على سرير واحد وفي آن واحد، كما هي بعض عادات نساء بعض القبائل في نيجيريا، وشوشت برغبتها لجدتي البتول التي بدورها نقلت سؤال فاطنة إليه؛ فغضب، واشتط غيظًا، ولكن فاطنة مع كل ذلك احتفظت بالاثنين على طريقتها الخاصة، بعيدًا عن عيون جدي وقريبًا من عيون جدتي.

كانت عمتي سعيدة إذ تشعر بأنها تمنح السعادة لرجلين اثنين في سرير واحد، وأن تأخذ سعادتها من اثنين على سرير واحد.

ولكن قدر عمتي لم يكن دائمًا رقصًا وفرحًا وغناء، بل إن الأيام كانت لها أيضًا بالمتاعب والمصائب؛ فقد سقطت من على ظهر بغلة ذات ليلة، وهي عائدة مع فرقتها من عرس من الأعراس، وقد اشتعل دماغها حشيشًا، فأصيبت جراء السقطة بكسر بالغ على مستوى الورك، ما اضطرها للبقاء مدة ثلاثة أشهر وبضعة أيام مسطحة على سرير صنع من ألواح، بساق مربوطة بحبل مشدود إلى سقف الغرفة. لقد وصل بها القنوط من حال السجينة إلى التفكير مرات عديدة في الانتحار، لم تعد تتحمل جسدها وهو في وضعية الشلل، وهو الذي خلق أساسًا للرقص والهز والاحتفال. دخلت عمتي فاطنة في حالة هستيرية إذ تظل تصرخ وتبكي وسليمان الطبال طورًا بجانبها يبرم لها سجائر من حشيش علها تهدأ، سيجارة فوق أخرى، ويتناوب عليها سليمان-الناي ليصب في أذنيها عزفًا بكل تضاريس الروح وما كانت لتهدأ.

ذات يوم قامت عمتي من سريرها، مشت بتثاقل، ثم بخفة أكثر، ولكنها شعرت بأن جسدها كأنما يخونها أو كأنما بدل بجسد آخر، فلم يعد مطواعًا قابلاً للطي والانحناء والدوران والهز والقفز... مع ذلك كانت فرحة لأنها تخلصت من سجن السرير والساق المربوطة بحبل في وتد مضروب في سقف الغرفة، كانت على أحر من الجمر كي تعود إلى الحلبة، إلى بستان الرقص، إلى الفرح والأفراح، واستعدت لأول حفل عرس تحييه بعد مصيبتها، تعطرت وأكلت عسل ملكة النحل كي تغسل حبال صوتها، وأخرجت لباس رقصها المثير وخلاخلها، وتعطرت وتسوّكت وجلست لساعات أمام المرآة تعيد وتستعيد بعض حركات جسدها الذي لم يعد كما كان قبل الحادثة.

ليلتها، كانت باحة بيت أهل العريس غاصة بالناس؛ إذ علموا بعودة عمتي فاطنة للرقص والغناء، من كل المداشر والقرى جاؤوا راجلين وبعضهم على ظهور دوابهم، وإذ عسعس الليل وأضاء المصباح الكاشف المراح الذي فيه يقام الحفل، وجلس سليمان-الناي إلى جانب سليمان الطبال وباقي أعضاء الفرقة وشرعوا في العزف؛ صرخ الحاضرون الذين تحلقوا حول الفرقة وفوق السطوح: فاطنة.. فاطنة.. فاطنة!!! فجأة خرجت عمتي من غرفة مجاورة، تجر ثوبها الطويل المفتوح على الجنبين، كاشفة عن ساقين أحدهما بخلخال الفضة الصافية الأصلية، دارت دورتها

الأولى في رقصة خفيفة بحركة فراشة الليل باحثة عن نور، وهي تحيي الحاضرين بمنديل تلوح به بين يديها. صفق الجميع وهللوا لها، وزغردت النساء من فوق السطوح حيث يجلسن يراقبن الحفلَ والرجالَ بعيون ساهرة، قليلاً قليلاً ارتفع صوت إيقاع الطبل والمزمار والآلات الأخرى موغلاً في الجنون، اهتز جسدها هزات هبل وارتفع ساقها، ثم تقدمت أكثر وسط الساحة تحت أنظار أبناء القرية وما جاورها من مداشر، وحين حاولت أن تدور دورتها الثانية خانها جسدها، خانتها ساقها فتصلب الورك، وقفت قليلاً، تيبس الجسد في حركة لم تصل إلى مداها، كما تمثال برونـزي صب في حركة انقطع فيها النفس، سكت الجميع، توقف سليمان الطبال عن الدق موازاة مع سكوت ناي سليمان-الناي، نظرت عمتي فاطنة حولها، حاولت أن تمسك في شيء ما، لم تجد شيئًا سوى الهواء والفراغ؛ فتهاوت.. سقطت أرضًا، ولم تستطع أن تقوم، أسرع سليمان الطبال وسليمان-الناي وبعض عناصر الفرقة لمساعدتها على القيام، كانت خشبة، لم تستطع الوقوف على ساقها، فحملوها إلى الغرفة التي منها أطلت قبل قليل، انتظر الجمهور قليلاً، وشرب عناصر الفرقة شايًا، ولم يظهر لفاطنة أثر، خانها العطب.

انفض الجمهور، في صمت انسحب الجميع، بعضهم راجلاً وبعضهم على ظهور دوابهم، انتهت السهرة قبل نهايتها، انقطع عسل الموسيقى، وحملت عمتي على ظهر بغلة إلى البيت الكبير، طوال طريق العودة وهي تبكي وتقسم أنها لن تعود إلى السرير وربط ساقها بحبل إلى وتد مضروب في السقف، وأن القبر أرحم لها من ذلك.

حين علمت أخواتي بأن عمتي فاطنة عادت إلى البيت فرحن كثيرًا؛ فهي باعثة المرح والفرح في الجميع حتى وإن كان ساقها مكسورًا. تخرج تفاحة الفرح من رماد الحزن، هذه المرة وضعوها على سرير ظهره من صفيح الحديد في غرفة تتقاسمها مع هاجر وسكينة، وربطوا ساقها بمنديل كبير وشدوه إلى وتد في الجدار المقابل. كانت فاطنة صامتة، حزينة، تشع من عينيها رغبة لا يعرف سرها العميق إلاها.

كانت عمتي حريصة على لويزاتها الذهبية، والتي عددها اثنتا عشرة قطعة، وعلى أوراقها النقدية وعلى كل ما جمعته من حفلاتها، وعلى أسطوانتها ذات 33 دورة والتي عليها صورتها وهي في لحظة تجل شبقي عارم.

على الرغم من أن الشيخة منصورة، المعروفة بقدرتها وخبرتها في جبر الكسور، والتي أشرفت على علاجها، أكدت لها بأنها ستشفى في ظرف شهر أو أقل، وأنها ستعود إلى حالها الطبيعي، وأن بإمكانها أن ترقص وتقفز مثلما يحلو لها، إلا إن عمتي لم تكن مقتنعة بهذا الكلام، وقد استسلمت لقدر العطب الذي أصابها في الروح قبل أن يصيبها في عظم الورك؛ لذا طلبت من أخواتي مساعدتها على الخروج لمقابلة التاجر المتجول، حملوها ممددة على سريرها كما يحمل الميت ووضعوها عند عتبة البيت الكبير، نظرت بحزن في أختي هاجر قائلة: ها أنا ذا على محمل الأموات، سأركبه قريبًا. ردت عليها أختي سكينة قائلة: لا تقولي مثل هذا الكلام، حرام عليك ياعمتي، أنت عماد هذا البيت الكبير. لم تنتبه لكلام سكينة، ثم استدارت ونادت على البائع الجوال صاحب الأميرة، قالت له: هذه قطعة لويزة، ذهب خالص من عيار 24 قيراطًا، ياصاحب الأميرة، بعها واشتر لي بثمنها جهاز فونوغراف.

تفاجأ الجميع لهذه الرغبة الغريبة التي أبدتها العمة فاطنة، ومع ذلك لم تعلق أي واحدة ممن كن محلقات حول بغلة البائع، بقين ساكتات يتابعن حديثها إلى التاجر المتجول في شكل أوامر، كان

هذا الأخير يهز رأسه كالتلميذ الغبـي، وهو يتلقى تعليمات عمتي ماسكًا بقطعة الذهب بين أصابعه المرتجفة، ثم بهدوء أرْجِعتْ عمتي إلى سريرها بالغرفة المشتركة حيث مكانها قبالة النافذة، ربطن ساقها بالمنديل في الوتد المضروب في الجدار المقابل، وظللن لمدة أسبوع في ترقب متى يجلب البائع المتجول، صاحب الأميرة، تلك الآلة العجيبة: الفونوغراف!

وجاء يوم مروره المعتاد، أوقف البغلة عند عتبة البيت الكبير مكدسة على ظهرها سلع، وعلى جنبيها تتدلى بضائع أخرى من كل نوع، تسارعت النسوة لاستقباله، أسرعتُ في إثرهن، أنتظر المفاجأة، أحضر مشاهدة ما طلبته منه عمتي فاطنة. كانت الآلة في علبتها الكارتونية مثيرة لفضولي، فتحتها عمتي دون أن تتحرك من سريرها، ركبت لها أربع بطاريات مربعة الشكل، مرسوم على ظهر كل واحدة منها صورة أسد في حالة هيجان أو زئير، ثم طلبت عمتي من أختي هاجر الإتيان بطاولة، وضعتها إلى جنب السرير وهي لا تزال ممددة وساقها معلقة، ثم تناولت بشكل آلي حقيبة جلدية كانت موضوعة تحت السرير، فتحتها ثم سحبت منها الأسطوانة ذات 33 دورة، مسحتها بمنديل من حرير أو وبر، ثم بعناية وضعتها على الصحن المعدني وأدارت قفلاً صغيرًا في طرف الآلة، بشكل أوتوماتيكي نـزل ذراع بإبرة في رأسه ليلامس وجه الأسطوانة، دارت هذه الأخيرة بعض اللفات فصعد صوت المزمار والطبل ونداء البراح المبحوح، وهيجان الرقص المخلوط بصوت عمتي التي كانت تردد مقاطع من أغنية عن البيرة والنبيذ والغابة والنساء والرجال والغيرة. كانت عمتي تستمع إلى الأسطوانة وهي في حالة من الحلولية، وفجأة اغرورقت عيناها بالدمع، أخذتها أختي هاجر في حضنها، قائلة مواسية: ستقومين من عطبك وستعودين إلى الرقص والغناء والتبغ.

نظرت إلينا عمتي فاطنة وقالت بصوت كدنا لا نميزه: لقد انتهى كل شيء، ها أنا ذا على محمل على بعد أمتار من فوهة قبري. وأشارت إلى سريرها، كانت تقول ذلك وهي تنظر إلى ساقها المعلق بالمنديل المشدود إلى الوتد المضروب في الجدار.

شعرت بأن جسد عمتي قد انهزم أمام العطب، وأنه خان سيدة الرقص وسلطانة الغناء، وأن مأساتها عميقة؛ فبكيتُ وأسرعتُ الخطى إلى الخارج أخفي انهياري وألملم دمعي.

تظل الفونوغراف تدور بأسطوانتها دون توقف إلا إذا ماتت البطاريات، فتضطر عمتي لتغييرها على الفور بأخرى جديدة، أو إذا ما سمعت خطوات والدي أو صوته داخل البيت الكبير آنذاك تغير أسطوانة الرقص بأسطوانة مقرئ القرآن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد. كانت مغرمة بصوت هذا الشيخ المقرئ، ومنها أحببت أنا الآخر قراءة عبد الباسط عبد الصمد، الذي لم يكن بالنسبة لي يختلف كثيرًا في أدائه وفي تعليقات جمهوره عن محمد عبد الوهاب أو أم كلثوم أو عبد الحليم حافظ، الذي كنت أحبه فوق الجميع.

ظلت ساقها معلقة ستة أشهر متتالية، وهي ممددة على سرير غير رحيم من صفيح، لا تسمع سوى أسطوانتها أو أسطوانة المقرئ عبد الباسط عبد الصمد وهو يقرأ سورة يوسف أو سورة الرحمن، اللتين كانت تحبهما وتحفظهما عن ظهر قلب وترددهما على طريقة المقرئ. هذا الصباح قامت، نادت علينا جميعًا، كشفت لنا عن ظهرها، كان به قيح ودمل منها يخرج دود صغير، صرخت أختي هاجر وشدت على ساقها، وأفرغت أنا ما في بطني أمام الجميع، وبكت سكينة، قاومت وقامت من سريرها مرتكزة على عصا جدي، تحركت بضع خطوات، وقفت في مواجهة عتبة البيت الكبير، طلبت من أختي هاجر أن تحضر لها فنجان قهوة. نظرت إلى السماء، وأرادت أن

تبرم سيجارة حشيش تخفف عنها بعض ألمها، كان الفصل خريفًا وعمي سليمان يسرع في تحضير منصة خطباء ذكرى الثورة، ضحكت ثم قالت: ياسليمان، أريد أن أذهب.
أي سليمان كانت تقصد، سليمان عمي أم سليمان-الناي أم سليمان الطبال؟
جرجرت جسدها وقد رفضت أي مساعدة من أخواتي، عادت إلى الغرفة التي كان بها سريرها، أخرجت بعض لويزات من الذهب منحتها أختي هاجر التي كانت تحبها كثيرًا؛ ربما لأنها شعرت بأنهما تشتركان في عاهة الساق.
فتحت جيبًا صغيرًا في حقيبتها، وأخرجت ورقًا شفافًا وتبغًا غريب الرائحة، ثم لفت لها سيجارة حشيش أخرى، أخذت منها نفسًا طويلاً، ثم عادت وتمددت على السرير.
في الصباح التالي، وتحت صوت خطيب نافخ في الصور، يحتفل بذكرى الثورة وإعادة دفن رفات الشهداء، ومجموعة من تلاميذ المدارس تردد النشيد الوطني، فجأة سُمع صوت أختي هاجر عاليًا فوق كل صوت: فاطنة، فاطنة...
ترك بعض الحاضرين التلاميذ وهم يرددون نشيد "قسما"، وخطبة نافخ الصور التي تتكرر سنويًّا ثلاث مرات على الأقل، وأسرعوا في اتجاه المكان الذي منه صعد صوت أختي هاجر، وجدوها مغميًّا عليها أمام العمة فاطنة، وهي معلقة من عنقها بذات المنديل الذي فيه ظلت ساقها معلقة مدة ستة أشهر.
ماتت عمتي فاطنة، أخفت أختي هاجر جهاز الفونغراف والأسطوانتين، وسكت البيت الكبير نهائيًّا.
في اليوم التالي إذ نادى منادي الجنائز، جاء الناس من كل المداشر، وسار الجميع في اتجاه المقبرة، ومن بين الذين ساروا كان سليمان-الناي يسير دون ناي منصوب على شفتيه، لأول مرة يُرى دون ناي، حين افترق الجميع من المقبرة بعد أن دفنوها، أخرج نايه، عزف قليلاً على قبرها ثم اختفى، ومن يومها لم يعرف لطريقه أثر.

13

اسمه المختار..
كان المختار طالبًا بجامعة وهران، السنة الثالثة تخصص رياضيات، هكذا قدّم نفسه إلينا، يبدو كبيرًا في عيوننا نحن تلاميذ الثانوية، يزورنا مرة في الأسبوع، يجمع حوله ثلة من التلاميذ النجباء في محاضرات ودروس وأحاديث، كان التلميذ بنبلة أو قطب هو من يشرف على تنظيم مثل هذه الحلقات، ويدعو إليها كثيرًا من تلاميذ النظامين الداخلي والخارجي.
دعاني قطب هذا إلى حضور واحدة من محاضراته، كان أول درس أحضره، في تلك الغرفة الصغيرة التي استولوا عليها بطرق ملتوية وحولوها إلى مصلى برفوف من حديد ثبتت على الجدران، صففت عليها مجموعة من الكتب التي كانت تصلهم في شكل هدايا من جهات لا أحد يعرف مصدرها.
المصلى الوحيد الذي عرفته وقضيت فيه أيامًا كثيرة متوحدًا وقارئًا، شيطانًا ومَلكًا، هو مصلى قريتي باب القمر، مصلى جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي، لكنه يختلف جذريًّا عن هذا المصلى الذي أدخله لأول مرة فأشعر بالاختناق، إن مصلى جدي يثير في النفس الخشوع، وأركانه تبعث على التأمل، وتغري بالصلاة والقراءة وبالتوحد مع العالم الداخلي والخارجي، أما هذه الغرفة التي تنبعث منها رائحة جافيل وبقايا مواد التنظيف والرطوبة، فلا إحساس بأن الله بكل جماله وسموه يقبل ويرضى أن يدخل مثل هذا الجحر ويسكنه ولو لدقيقة. شعرت منذ أول لحظة بأن الله لا يوجد هنا، الله ليس فأرًا، الله نور السماوات والأرض.
وجدت نفسي بين دزينة من التلاميذ تحيط بمختار الطالب الجامعي، القادم من جامعة وهران، ذي اللحية الطويلة غير المرتبة والتي تصل إلى مستوى عنقه، وهو يكلم هذا ويجيب على سؤال الآخر. كانت لغته العربية صافية، حديثه خليط ما بين ذكر سلسلة من أحاديث الرسول عليه السلام وآيات من القرآن الكريم وكثير من السياسة وأسماء السياسيين، جمال عبد الناصر وبن بلة وشي غيفارا وبومدين واليهودي فرويد واليهودي ماركس...
اغتنم التلميذ الشيخ قطب فاصلة صمت ليرحب بـي، ويقدمني لمختار معلقًا وموجهًا كلامه للآخرين من التلاميذ: إنه ذكي، إنه فأر المكتبة، رأسه مليئة بالكتب المختلفة.
أدركت من حديثه وكأن قطب كان قد سبق له أن تحدث لهذا الغريب عني، وأن ما يقوم به الآن هو تنبيه لوجودي بين الحاضرين.
شعرت بسعادة لهذا التخصيص والترحيب.
سألني مختار عن اسمي الكامل، وعن اسم قريتي، ثم سألني عن عناوين الكتب التي أقرأها. بفخر وتباه عدّدتُ له الكتب التي قرأتها بالفرنسية وبالعربية وحتى بالإسبانية، ذاكرًا بعض عناوين روايات يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وجبران خليل جبران وجورجي زيدان بالعربية، وبالفرنسية زولا وفيكتور هيغو ومالارمي وأراغون وألكسندر دوما وتولستوي وغوركي، وبالإسبانية بعض أشعار غارسيا لوركا وبابلو نيرودا وبورخيس... سكت قليلاً وهو يستمع إليّ بنوع من التأمل ثم علق قائلاً، حديثه كان موجهًا إليّ ولكنه وفي الوقت نفسه رسالة إلى

جميع التلاميذ الحاضرين في هذه الغرفة الخانقة: "هذه الكتب لا تنفعك، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إنها مضيعة للوقت، ولا تعلم سوى سوء الأخلاق والابتعاد عن السبيل السوي".
انـزعجت لهذا التعليق الذي به قزمني أمام أصدقائي الذين لطالما افتخرت أمامهم، وتباهيت بقراءاتي الكثيرة والمتنوعة اللغات، غرست رأسي بين يدي، ونظري في الأرض بين قدمي، ثم تساءلت بيني وبين نفسي: كيف لروايات تنشد الحب بين الناس، وأخرى تدعو إلى إشاعة قيم النضال والتحرر أن تكون كتبًا فاسدة ومُفسدة للأخلاق؟!
كان أول سؤال..
أول صدمة!
بدت بعض ملامح السعادة بادية على وجوه بعض تلاميذ حلقة الدرس وهم يسمعون تعليق مختار على قراءاتي التي أصرف فيها أوقاتًا كثيرة، والذين كانت بهم غيرة لا تحد لأنني كنت أفضلهم جميعًا في مادة الإنشاء باللغتين العربية والفرنسية وفي التاريخ والأدب.
شعرت بانـزعاج وتذمر، وقد بدأ سؤال الشك في جدوى ما أقرأ يدق في رأسي! قبل أن يدق الجرس لكي نلتحق بالمطعم للعشاء، اقترب مني مختار وقال لي: عليك بقراءة كتب مالك بننبـي والسيد قطب.
لم يكن يعني لي هذان الاسمان شيئًا، ومع ذلك فإشارة من مختار إليهما حرّكت فيّ فضولاً للاطلاع على كتاباتهما. وفي الأسبوع الذي تلا لقاء مصلى الثانوية، وجدت نفسي غارقًا في كتاب لمالك بننبـي، ولأنني كنت مغرمًا بقراءة الروايات وقد علمت بأن مالك بننبـي قد كتب رواية، فما كان مني إلا أن استعرتها من مكتبة البلدية، رواية مكتوبة باللغة الفرنسية بعنوان جميل: "لبيك، حج الفقراء"، على مضض أنهيتها، وجدتها ساذجة وباردة اللغة والخيال غير مجنح فيها، كما هو الأمر مع روائيي المفضلين من أمثال هنري ميللر أو إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وفلوبير وهيغو وزولا وغوركي... ومع ذلك كان إصراري كبيرًا أن أقرأ كتبًا أخرى لأكتشف هذا الـ"مالك بننبـي" أكثر. قرأت "الظاهرة القرآنية" و"شاهد القرن"، وفي كل مرة كنت أجد في كتاباته ما لا يستجيب مع شهوة القراءة لديّ، أنا لا أميل إلى الكتب البيداغوجية التي تعج بالدروس، ومع ذلك فإن قراءة مالك بننبـي طرحت عليّ سؤالاً جوهريًّا: لماذا ياترى يعتني هذا الطالب الجامعي بمالك بننبـي، ويطلب منا بإلحاح قراءة كتبه، وقد أغرق مكتبة المصلى بنسخ كثيرة من كتبه في لغتها الأصلية الفرنسية، وفي ترجماتها إلى العربية القادمة من سوريا ومن القاهرة وبيروت؟
وأنا أبتعد عن قراءاتي التي تعودت عليها والتي كانت تتبعني حتى مصلى جدي الحاج عبد المؤمن مزيان الكومي، دون حرج أو منع أو خوف، شعرت وكأنني أخون مونيكا، كأنني أخون عمي سليمان وأخي مازار الذي أحبه وأشعر بأنه توأمي، على الرغم من أنه يكبرني بأربع سنوات، لذلك قررت التخلي عن كتب مالك بننبـي وطي صفحة هذا الكاتب الذي لم أفهمه.
وإذ قررت طي صفحة مالك بننبـي ومقاطعة المصلى الذي منه تنبعث رائحة جافيل، تصلني فجأة رسالة طويلة من مختار الطالب الجامعي، يسألني فيها إذا ما كنت قد قرأت بعضًا مما كتبه المفكر الكبير مالك بننبـي، وفي الوقت نفسه يطرح عليّ بعض أسئلة فيما يتصل بأفكار هذا الكاتب.
سعدت بتلك الرسالة أيما سعادة، وشعرت في الوقت نفسه بخوف ما، لم أستطع تحديد سببه ولا مصدره، كنت سعيدًا أن تصلني رسالة باسمي من طالب جامعي يدرس بجامعة وهران السنة الثالثة تخصص رياضيات، كانت صورة الطالب وقتها كبيرة في عين المجتمع والمؤسسات،

عظيمة في عين الخاص والعام. فجأة شعرت بأنني كبرت، صار لي جناحان، أصبحت شخصًا مهمًّا إذ تخصص لي رسالة طويلة تجيء من وهران! كانت وهران بعيدة جدًّا عن تلمسان، كثيرًا كثيرًا، كنت أحلم بالسفر إلى هذه المدينة التي لها صورة أسطورية في ذهني.
لم يكن كيلومتر البارحة هو كيلومتر اليوم! المسافات تغيرت والمعايير لم تعد نفسها.
وذاع خبر الرسالة التي وصلتني من مختار بين التلاميذ جميعًا، الخاضعين للنظامين الداخلي والخارجي على السواء، وأصبحت بذلك ممن يشار إليهم بالبنان في الثانوية، وفجأة أصبحت كبيرًا في عين الجميع. وعندها قررت العودة إلى بداية الطريق، العودة إلى قراءة كتب المفكر مالك بننبـي.
لماذا مالك بننبـي؟ لست أدري!
موازاة لكتب مالك بننبـي التي كانت تهطل أسبوعيًّا على مكتبة المصلى الذي توسع كثيرًا في المساحة، إذ بحجة تزايد عدد المصلين من التلاميذ، وحتى من خارج الثانوية من الغرباء المتابعين لدروس الطالب مختار، استولى التلاميذ على ثلاث قاعات مجاورة: قاعة الرياضة وقاعة التدريب على الرقص ولاحقًا قاعة ورشة الفن التشكيلي. ولم تبد إدارة الثانوية أي رد فعل، هكذا بدأت تصلنا أشرطة مسجلة بصوت بعض الدعاة من المصريين والسعوديين، وكان مختار قد جلب معه جهازي تسجيل أهدى الأول للمصلى؛ لكي يتسنى لتلاميذ الحلقة سماع الأشرطة، وكنت محظوظًا إذ خصني بالجهاز الثاني، معلقًا على هذا التمييز: أنت تقرأ كثيرًا، فعليك أن تسمع هذه الأشرطة، إنها تختصر علوم قرون كاملة.
كنت سعيدًا بهذه الهدية النادرة، فجهاز تسجيل مثل هذا ليس في متناول الجميع. في الليلة الأولى استمعت إلى شريط يحكي بتفصيل حياة الخليفة عمر بنالخطاب. وفي اليوم التالي استيقظت وأنا أتمنى أن أكون عمر بنالخطاب في الثانوية وفي المدينة. وفي الأسبوع التالي استمعت إلى تسجيل عن حياة الصحابـي أبـي ذر الغفاري، عن معاناته وعذاباته وصراعاته ضد الأغنياء؛ فتمنيت أن أكونه وأن أخرج في حرب ضد البورجوازية وأصحاب المال الكثير، وقد وجدت في هذه الشخصية الصحابية كثيرًا من روح الأفكار التي كنت متعاطفًا معها، هي أفكار غائمة ولكنها تنحو نحو الاشتراكية والعدالة التي علمني مبادئها الأولى المشرف على مكتبة الثانوية وأستاذ الفرنسية والإسبانية السيد ألفريد برانغير، صديق الرئيس أحمد بنبلة. وفي الليلة الموالية استمعت إلى شريط عن الصراع بين علي ومعاوية، وبكيت في تلك الليلة، ولأول مرة أقمت صلاة الفجر بعد أن توضأت بالماء البارد، وعدت إلى سريري واستمعت للتسجيل للمرة الرابعة أو الخامسة وحفظت كثيرًا من الجمل والعبارات، وحين استمعت إلى تسجيل عن معركة صفين بين علي ومعاوية، وآخر عن معركة الجمل بين عائشة وعلي زادت حيرتي، وعظم سؤالي.
لم يعد جهاز المسجل من نوع فيليبس يغادر أذني لا ليلاً ولا نهارًا، سماعي لدروس مؤثرة وحماسية تدعو إلى الجهاد بصوت بعض الخطباء المصريين والسعوديين واليمنيين، جعلني أبحث عن صور لبعض الصحابة والخلفاء، وبعض الآيات المكتوبة بخط ديواني أو رقعي تحث على الجهاد والموت في سبيل الله، وأعلقها على الجدار الذي يقابل سريري إلى جانب صور كثيرة لكتاب وسياسيين وزعماء ثورات: كارل ماركس ولينين وماوتسي تونغ وتشي غيفارا، وعبد الحليم حافظ وأم كلثوم وجبران خليل جبران ودااليدا، ومجموعة البيتليز وجمال عبد الناصر ونهرو وأخي مازار الذي أحبه مثل توأمي..

كنت كلما أشرع في قراءة كتاب أدبـي يتحدث عن الأشياء التي كانت تجذبني داخليًّا، أشعر بصوت الطالب مختار في أذني كصفير أفعى، استجابة أو خوفًا منه، أو شيئًا يشبه ذلك، حيرة، كنت أقرأ كتب مالك بننبـي والسيد قطب في النهار. أما في الليل، بعيدًا عن عيون تلاميذ المصلى ذي رائحة جافيل والذين أخذوا يتلصصون على ما بين يدي من كتب، كنت أقرأ بنهم دواوين نـزار قباني وحكم جبران خليل جبران وروايات وقصص يوسف السباعي وفلوبير، وأفكر كثيرًا في مونيكا وفي عمي سليمان وهاجر وأخي مازار، ومأساة عمتي فاطنة وطعم مربى المشمش، وأنتظر منظفة المبيت صباحًا في سريري كي نفعل ذلك الذي نفعله بجنون.
وأحن إلى مصلى جدي.
مساء في المبيت، كنت أختلي بنفسي فأقف أمام المرآة المثبتة فوق المغسلة الرخامية التي تعودت التبول فيها، أضع فوقها صورة لجبران خليل جبران التي عثرت عليها هدية من مجلة "الهلال"، كانت بريشة فنان يدعى هو الآخر قطب، لست متأكدًا من ذلك! وأردد فقرات من كتاب "المجنون"، وأريد أن أكون شبهًا له كي أعشق على طريقته منظفة المبيت التي كنت أراها في صورة مي زيادة، ثم في اليوم التالي أضع صورة نـزار وأقرأ من "طفولة نهد"، وأريد أن أكون شبهه كي تحيط بـي النساء الدمشقيات من كل جهة، وتطل علي من كل البلكونات والنوافذ.
أصبحت أيامي مقسمة ما بين ليل حر سابح في ثنايا كتب مفتوحة على الحلم واللذة والحرية، ونهار رقيب يعذبني بعيون زملاء المصلى التي تلاحقني أينما حللت، ورسائل مختار الطويلة التي ما فتئت تؤرقني أكثر فأكثر بما تتضمنه من أسئلة محرجة في الدين والسياسة والجهاد وكفر الديمقراطية والاشتراكية، رسائل مليئة بآيات من كتاب الله الحكيم عن الجنة ونعيمها، وجهنم ونارها وعذابها، وأحاديث نبوية.
أصبح مختار يتردد على ثانويتنا بتلمسان مرتين في الأسبوع، كل اثنين وكل خميس، قادمًا إليها من وهران، ليقود الصلاة بنا ويعطينا دروسًا ومحاضرات في الدين والأخلاق والسياسة أيضًا، وليحضرنا، كما كان يحلو له أن يردد، لجزائر الغد الإسلامي، وللجهاد من أجل تحرير فلسطين واستعادة الأندلس. مرات كثيرة كان يضطر إلى النوم بالمصلى حين تتعذر عليه العودة إلى وهران؛ بسبب غياب وسائل النقل في وقت متأخر من الليل، بعد أن طلب رخصة من إدارة الثانوية، ووافقت له على ذلك.
أثارتني علاقة مختار بالتلميذ الذي كنا نسميه "البورجوازي الصغير"، هذا الأخير الذي أصبح لا يغادر المصلى بمجرد وصول مختار إلى الثانوية، كان البورجوازي الصغير تلميذًا شفافًا ومكسور الداخل، يهتم كثيرًا بشكله وهندامه، لم يكن ينتمي إلى القسم الذي أنتمي إليه، كان في صف آخر.
ذات ليلة غادرت المبيت على غير عادتي، متمنيًا أن أفاجأ بالحارس الليلي، الذي شعرت وبألم أن هناك شيئًا ما، يشبه الحب، بينه وبين منظفة المرقد التي أصبحت أفعل معها ذلك الشيء، كلما بدا لي أن أتمارض وكلما اشتقت إلى مربى المشمش! لقد هرب عني النوم، ومللت جهاز التسجيل في أذني، نـزلت البناية، تمنيت أن أجد أي أحد للتحدث معه في أي موضوع، ولو كان ذلك في كرة القدم التي لا أحبها. كنت أنتظر طلوع النهار ربما لتجيء منظفة المرقد لتضمني في الفراش، ونقوم بما نقوم به كلما مرضت وأحسست بمغص شديد في بطني وبحمى تلسع جسدي!
إني أحب مربى المشمش.

ليلاً، وفي مثل هذه الساعة، لا شيء يتحرك في فضاءات الثانوية المشكلة من ثلاث بنايات عملاقة سوى بعض القطط التي تبحث عن هوى جسدي، أو عن طعام لها من فضلات صناديق الزبالة الموضوعة عند الباب الخارجي للمؤسسة، مواء القطط الساخنة يشبه عويل المرأة منظفة المبيت حين تشرف على لحظة نفس خاص فتغرس أظافرها في ظهري وأنا أعصرها. وأنا أتجول في ساحة الثانوية، قادتني قدماي إلى المصلى بحثًا عن كتاب، كنت متأكدًا بأنه موجود على رفوف المكتبة، فقد سبق لي أن تفحصته سريعًا لمرة أو مرتين، كنت أريد أن أقرأ فيه بعض المقاطع حول علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم ببلاد الشام، وحين دفعت باب المصلى، وبطريقة عفوية وضعت يدي على زر الإنارة، وجدت الطالب مختار يحتضن البورجوازي الصغير، وهما متمددان شبه عاريين فوق سجاد الصلاة، في وضعية مشينة ومثيرة! كان الطالب مختار الجامعي الخطيب والإمام قائد الصلاة لاصقًا بمؤخرة التلميذ وهو يلهث، تركت المصلى مضاء وقفزت عائدًا إلى المبيت متمنيًا ألا أجد في طريقي أحدًا.

لم أستطع أن أنام لغرابة ما رأيت، وفي الصباح لم أنتظر منظفة المرقد، قمت من سريري على غير العادة، كنت في حالة قلقة، مشتت الذهن، وكلما حاولت محو صورة الطالب مختار والبورجوازي الصغير المكسور الداخل التي شاهدتهما عليها في المصلى، ازدادت تفاصيل الصورة انحفارًا في ذهني.

في المطعم، على طاولة فطور الصباح، لأول مرة شعرت بطعم مربى المشمش وقد تغير مذاقه في فمي!

شارد الذهن، واقفًا في صف التلاميذ في انتظار وصول الأستاذ ألفريد برانغير للدخول إلى قاعة الدرس، درس في اللغة الإسبانية وآدابها، هجم علي الطالب مختار، لست أدري من أين طلع عليّ، سحبني بعيدًا عن التلاميذ، وطلب مني عدم الحديث عما شاهدته البارحة ليلاً، كان في صوته نبرة تهديد.

خفت.

ومن يومها لم أضع رجلاً في المصلى، وتحررت منه ومن رفوف كتبه ومن رسائل المختار المخيفة، وعادت حياتي شيئًا فشيئًا لتوازنها مع الكتب والقراءة في الليل كما في النهار، لم تعد لليل قراءاته وللنهار أخرى.

أيام قليلة تمضي وإذا بالشرطة تدخل، ولأول مرة، الثانوية لتفتش المصلى تحت أعين التلاميذ الذين أصابهم رعب، وتصادر الكتب ومجموعة من الوثائق والأشرطة المسجلة المسموعة والمرئية والجرائد وبعض الرسائل، وعلى إثر هذا التدخل تم استدعاء مجموعة من التلاميذ، وكذا آبائهم إلى المخفر المركزي للشرطة، ومن يومها تم تشميع المصلى، وانقطعت زيارة مختار إلى الثانوية نهائيًّا.

حين تم تشميع باب المصلى فتح باب قلبي على مصراعيه، وعاد إليه نزار قباني وجبران خليل جبران ونيتشه ورامبو وبودلير وفلوبير وعمر بنأبي ربيعة... عادوا بدون خوف ولا تستر.

هذا المساء وأنا جالس في مكتبة الثانوية، مستغلاً كعادتي إعفائي من حصة الرياضة البدنية، بين شرود ذهني والتفكير في مي زيادة منظفة المبيت تارة، والتفكير في أخي مازار الذي ترك مدرج الجامعة وسافر إلى ما وراء البحر، وتركني يتيمًا أدور في فراغ كبير ومهول.. بين صورتي مي زيادة وأخي مازار كنت أحاول أن أستجمع ما بقي صاحيًا في رأسي، لأقرأ في كتاب عن حياة

غيفارا وعلاقته بجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وسائر مثقفي اليسار الفرنسي، إذا بـي أسمع القيّم على المكتبة السيد ألفريد برانغير، يتحدث إلى أحد الأساتذة عن توقيف الطالب مختار من قبل الشرطة القضائية والأخلاقية بوهران.
اشتد خوفي، دون أن أعرف مصدر هذا الخوف، وفي الوقت نفسه شعرت براحة كبيرة تسكنني، وكأنما صخرة كبيرة انـزاحت من على قلبـي؛ فسمحت بالتالي لرئتي بالتنفس الطبيعي. بمجرد سماع هذا الخبر شعرت برغبة في التبول، وجدت نفسي أتردد للمرة الثالثة على المغسلة، وفي كل مرة كنت أعود إلى طاولتي وكأنني نسيت أن أفرغ نصف مثانتي التي ظلت ممتلة. لم أستطع متابعة قراءة الكتاب الذي وجدت حروفه غامضة وكلماته متداخلة أمام عيني، وكنت أهرب بنظري عبر النافذة إلى البعيد، أبحث تارة عن قريتي باب القمر، وعن الأسواق الشعبية بناسها وحيواناتها وبائعيها، وبخاصة ذلك الزوج الصحراوي الذي يبيع عقار تقوية الشهية الجنسية، وتلك الكتب الممتعة التي تعيش في غبار الأسواق لكنها تدفع بنا إلى سماوات عالية، وتذكرت فجأة كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، وتمنيت أن أعود لقراءته بعد أن تحررت من الطالب مختار.
في غمرة فرحي بخبر القبض على الطالب مختار، لم أنتبه إلى التلميذة مونيكا التي دخلت المكتبة وجلست كعادتها قبالتي.. نظرت إليها كان وجهها في الضوء الضعيف لهذا اليوم الغائم شبيهًا بوجه أختي هاجر، بمجرد أن انتبهت إلى أنني أراقب حركات زمت فمها المائل نحو اليمين بشكل مثير للغواية، ضاع منها خيط التركيز وهي تقرأ في كتاب عن تكاثر الحلزونات، وأيضًا عن أسرار النحلة الملكة، قالت لي: الوقت، علينا الالتحاق فقد حانت ساعة الحصة الموالية.
لقد استعاد صوتها ما كان قد فقده من عسل منذ شهور كثيرة، منذ أن بدأت أتردد على مصلى الثانوية وأجلس في حلقات الطالب مختار.
وفي اليوم التالي شعرت بطعم مربى المشمش كما عهدته: إني أحب مربى المشمش.
وأنتظر منظفة المبيت في سريري.
وجاءت وفعلنا ذلك الشيء الجميل بجمال وشهية وصراخ.
وتذكرت بعض حكايات كتاب "نواضر الأيك في معرفة النيك" للسيوطي، حكايات جريئة:
"... قيل: عن العباس عن سمؤل، قال: حدثني بعض شيوخنا البصريين،
قال: اجتمع يحيى بنأبـي زياد، ومطيع بنإياس، وأصحابهم، فشربوا يومًا، فقال يحيى ليلة، وهم سكارى:
ويحكم! ما صلينا من ثلاثة أيام، فقوموا حتى نصلي، فقام مطيع فأذن، وأقام الصلاة، ثم قال: من يتقدم؟ فتدافعوا كلهم.
فقال مطيع للمغنية: تقدمي وصلي بنا، فتقدمت تصلي بهم، وعليها غلالة رقيقة مطيبة بلا سراويل، فلما سجدت بان حرها، فوثب مطيع وهي ساجدة، فكشف عنه، وقبّله، وقال:
ولما بدا حرها جاثمًا
كرأس حليق ولم يعتمدْ
سجدت عليه وقبّلته
كما يفعل الساجد المجتهدْ
فقطع الباقون الصلاة، وضحكوا".

14

حين يهرب النعاس من عيني أدخل المرحاض، وأجلس هناك أقرأ بعض الوقت حتى أشعر بالتثاؤب وبثقل عيني فأقفل الكتاب وأعود إلى سريري.
عادة القراءة في المرحاض تتبعني حتى اليوم، فأنا لا أستطيع أن أستغني عن الكتب في المرحاض، جزء كبير من وقت قراءاتي كان في المرحاض، أجمل الكتب والروايات لهنري ميللر ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وزولا وفولتير، وأشعار محمود درويش وصلاح عبد الصبور وتولستوي قرأتها في المرحاض.
القراءة في بيت الراحة مريحة وممتعة.
اليوم ليست لدي رغبة الذهاب إلى المرحاض للقراءة، لقد تراجعت في آخر لحظة، بعد أن خبأت الكتاب تحت إبطي، أسفل جناح البيجاما، وقطعت بعض الخطوات في صالة المبيت في اتجاه المرحاض الذي كانت تعجبني إنارته، إلا إنني وجدت نفسي أعود إلى مكاني. تمددت على السرير، ثبتّ عيني في السقف الأبيض اللون، ثم أخذت أفكر في أختي هاجر التي يخاف الجميع من التشوه الذي في ساقها، ثم لا يفتأ أن يتجلى لي عمي سليمان كبيرًا كبيرًا، إذ إنه الوحيد الذي يراقصها في الحفلات ويعانقها ويخلو بها وتخلو به، هذا الرجل من طينة أخرى. وتارة أفكر في أخي مازار الذي قرر مغادرة مدرجات الجامعة واختار الهجرة إلى ما وراء البحر، وتركني وحيدًا في هذا العالم المختل. نام جميع التلاميذ، بعضهم يهذي وبعضهم يكح وبعضهم يشخر... أصخت السمع فإذا بالحارس الليلي العم اليماني، عرفته من بحة صوته الخاصة، يتحدث بكثير من السرية والحذر والاحتياط، وبلهجة تلمسانية رقيقة مخلوطة بفرنسية راقية إلى رجل غريب لم يسبق لي رؤيته في الثانوية، وكأنما جاء خصيصًا للاستماع إلى هذا الحديث، وللاستفسار عن شيء معين. كان الحوار غامضًا، مليئًا بالرموز، حاولت أن أتبين ما يقولانه، ولكن خُفوت صوتيهما، وسرية الموضوع وغموضه لم تسمح لي بفك رموز ما كانا يتبادلانه بكثير من الاهتمام والحذر والخوف، الشيء الوحيد الذي تمكنت من فهمه هو أن ما يدور بينهما كان عن شخص اسمه مصالي الحاج!
من هو هذا الشخص الذي يتحدثان عنه بكل هذه السرية ويثير كل هذا الخوف وهذه الحيطة؟
الناس تعرف أسماء لا أعرفها.
من كلمة "الحاج" تصورته واحدًا من الشيوخ الأزهريين الذين كثيرًا ما تحدث لنا عنهم مختار الطالب الداعية، كلما أعطانا درسًا قبل أن يقود بنا الصلاة، ثم قلت في نفسي: ليس كل من يحمل في اسمه كلمة "حاج" فهو بالضرورة يكون قد ذهب إلى الحج إيمانًا واحتسابًا؛ فجدي الذي تسمى المصلى باسمه لم يضع قدمًا على تراب الأرض المقدسة، ولكن الجميع ينادونه بالحاج، باستثناء جدتي التي كانت تناديه باسمه عبد المؤمن.
كنت كلما دققت سمعي في اتجاه حديث الرجلين أشعر بالتعب وبجفني يغالبهما النعاس، مع ذلك فهمت قبل أن أستسلم للنوم بأنهما يتحدثان عن تنظيم سياسي سري ينتميان إليه يسمّى "حزب الشعب"، يرأسه أو يقوده هذا المصالي الحاج.
أريد أن أتعرف على هذا المصالي الحاج، على هذه الرغبة استسلمت للنوم. في اليوم التالي، كعادتي انسحبت من مادة الرياضة البدنية واتجهت نحو المكتبة، كانت خالية تمامًا، تصعد من

أركان أرضية قاعة المطالعة فيها رائحة الجافيل المعطر، مما يدل بأن عاملات النظافة قد مررن من هنا قبل وقت قصير، كان السيد ألفريد برانغير كعادته واقفًا بين الرفوف يدقق مواقع ترتيب الكتب وهو الذي كان يقول لي دومًا: في أي مكتبة، هناك قاعدة تقول: إن الكتاب الذي يوضع في غير مكانه يعتبر كتابًا ضائعًا أو مسروقًا.
كان السيد ألفريد برانغير خارج ساعات دروسه التي يقدمها في الأدب واللغة الفرنسية والإسبانية لقسمنا وقسم آخر، يقضي أوقاته الباقية متطوعًا في المكتبة يسدي نصائح للتلاميذ، ويوجه قراءاتهم ويساعدهم في بعض بحوثهم في الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية والإسبانية. لم تكن لغته العربية قوية، لكنه كان يقرأ بها جيدًا ويعرف محتوى رصيد المكتبة من الكتب في هذه اللغة. كان السيد برانغير يفتخر بأنه حضر بعض دروس طه حسين بجامعة الأزهر مدة سنة جامعية كاملة، كان ذلك في سنوات الثورة الجزائرية، وأنه اختلف مع عميد الأدب العربـي في موقف هذا الأخير من الثورة الجزائرية الذي لم يكن واضحًا، فحب طه حسين لفرنسا وربما لزوجته الفرنسية، أخفى عنه كثيرًا من حقائق بشاعة الحرب التي كان الاستعمار الفرنسي يخوضها ضد الثوار الجزائريين المطالبين بالحرية والاستقلال.
بدأ السيد برانغير يسألني عن آخر كتاب قرأته، وهو سؤال تعودت سماعه منه كلما دخلت المكتبة، فأجبته على الفور: كتاب "حياتي طفلاً" "Ma vie d'enfant" لمكسيم غوركي، علق السيد برنغير على الكتاب قائلاً: هي حياة الطفولة التي عاشها هذا الكاتب الكبير، عليك أن تقرأ بعدها الجزء الخاص بالمراهقة والقسم المخصص للجامعات: "في البحث عن رزقي" (En gagnant mon pain) ثم يليه "جامعاتي" (Mes universities)، لكني علقت على كلامه بنوع من التردد: قبل أن أقرأ الجزء الثاني والثالث إني أرغب في قراءة شيء في التاريخ، قلت له، تفاجأ السيد برانغير لهذا الاختيار وأنا المولع بقراءة الروايات أكثر من أي تخصص آخر، ثم سألني عن أي كتاب أبحث، قلت له إني أرغب في قراءة أي كتاب يتكلم عن رجل اسمه: "مصالي الحاج".
بمجرد سماع اسم "مصالي الحاج"، استدار السيد برانغير كأنما للتحقق من أن ليس هناك شخص قد سمعني أتفوه بهذا الاسم، تغير لون وجهه، وارتبك قليلاً، مما زاد في قلقي، وقد تبادر إلى ذهني وكأنني أطلب شيئًا غير طبيعي، كأنني أطلب حشيشًا أو أي نوع من المخدرات.
قال لي دون تردد بأن لا كتاب يوجد عن مصالي الحاج في مكتبة الثانوية هذه ولا في جميع المكتبات العمومية. كتب من هذا النوع لا تدخل المكتبات، ثم أردف: سأبحث لك عن كتاب يتناول تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ربما ستجد فيه حديثًا عابرًا عن هذا الاسم الذي تطلبه. ولم يتمكن حتى من التفوه باسم "مصالي الحاج".
حالة السيد برانغير غير المرتاحة، والقلق الذي بدا عليه وهو يسمعني أطلب كتابًا عن مصالي الحاج، وتهربه من مواجهة الموقف على عكس ما هو معروف عنه من شجاعة، إذ إنني ما طلبت منه كتابًا في الأدب أو الفلسفة إلا وأسرع في تلبية رغبتي!
حالة السيد برانغير غير الطبيعية جعلتني أصر بيني وبين نفسي على البحث عن شيء ما أقرأه عن هذا "المصالي الحاج".
بما إن الأمر بكل هذه الخطورة، فعليّ أن أذهب في البحث إلى مداه، أن أطل على أسرار هذا المصالي الحاج، أن أحفرها، أن أبحث عن سبيل آخر يوصلني إليه. ولأول مرة شعرت بتخاذل

السيد برانغير، وهو الرجل الثوري الذي كان صديقًا للرئيس أحمد بنبلة وصاحب شي غيفارا، وتعرف على فيدال كاسترو ومنديلا، واختلف مع طه حسين عن الثورة الجزائرية...
أصبت بخيبة كبيرة في شخص السيد برانغير، وقررت الالتجاء إلى عمي المنوّر، وهو بائع الكتب المستعملة، صاحب مكتبة عامرة اسمها "مكتبة الشعب"، عبارة عن دار قديمة بغرف كثيرة متداخلة، وباحة كبيرة تظللها شجرة "حب الملوك" عتيقة، الكتب موزعة على الغرف بمنهجية لا يفقهها إلا عمي المنوّر، وهو الرجل المثقف الذي يحفظ عن ظهر قلب عناوين رصيد المكتبة بغرفها ورفوفها وأكوامها المكدسة أرضًا في شكل تلال، بالعربية والفرنسية والإسبانية والتركية والعبرية. ورثت أسرة عمي المنوّر هذه المهنة أبًا عن جد، وهي تعود إلى جدهم العاشر الذي كان ملك إمبراطورية الكتب في طليطلة بالأندلس، زمن مجدها التاريخي والعلمي في القرن الثاني عشر، كان على سفر دائمًا من سوق طمبوكتو المركزي إلى أسواق فاس فبجاية وتلمسان ودمشق وطشقند وبخارى... كان يرحل الليالي والمواسم بحثًا عن مخطوط أو كتاب دون ملل أو تعب، وفي ذلك وبذلك عرف الأمراء والحجاب والوزراء والعلماء والشعراء والنحاة والفقهاء من كل نوع ومن كل اتجاه. وقد جاء ذكره على لسان كثير ممن أرخوا لخزانات الأندلس، فجميع الكتب تذكره حجة في التمييز بين الأصل والفرع في المخطوطات، بين الهجين والصحيح ورقًا ومدادًا وقلمًا وخطاطًا.
مكتبة عمي المنوّر التي دخلتها مرات عدة تشبه كهف علي بابا، فيها يجد القارئ والتحفي ما لا يخطر على بال، زبائنها من كل أقطار العالم العربـي والإسلامي والأوروبـي والأمريكي، لا أحد يدخل مدينة تلمسان إلا وعليه زيارة هذه المكتبة، وكل من دخل مكتبة عمي المنوّر، اقتنى منها كتابًا أو أسطوانة قديمة، أو على الأقل أخذ صورة تذكارية بين أكوام كتبها التي تصعد حتى السقف في فوضى منظمة.
هذا المساء حين دخلت المكتبة، كانت كعادتها شبه مملوءة بالزوار من الزبائن والفضوليين، من أهالي المدينة ومن مدن أخرى ومن مجموعة من الأجانب، بعضهم صامت يدور بين أكوام الكتب في شبه صلاة، والبعض الآخر يتحدث لغات مختلفة خافتة، عالم مثير! درت دورة بين تلال الكتب التي بعضها يفوق طولي، دخلت الغرفة الأولى ثم الثانية، من بعيد شاهدت عمي المنوّر في حديث مع أحد الزبائن الذي يبدو أنه أجنبـي، وقفت غير بعيد أتسلى بتصفح كتاب مصور عن تاريخ إفريقيا السوداء، انتظرت حتى أنهى عمي المنوّر كلامه مع محاوره، تسلم منه ثمن ما اشتراه، وبمجرد أن غادر السيد المكتبة، اقتربت من المكتبـي وسألته بعد أن حييته، وقد استقبلني ببشاشة كعادته، قلتُ:
- إني أبحث عن كتاب، ثم سكتُّ.
- أتريد رواية أخرى؟ دون شك أنت تبحث عن الجزء الثاني لحياة مكسيم غوركي.
كان يتذكر أن ذلك كان آخر عنوان اشتريته منه، فهو لا ينسى كتبه التي يبيعها، والتي قد يستعيدها من الزبون بعد قراءتها ليبيعها ثانية مقابل كتاب جديد وبعض الفارق الضئيل.
- قلت: لا
- معنى هذا، أن الجزء الأول لم يعجبك.
- إني أريد كتابًا في التاريخ.

- ما عنوانه؟ ثم تقدم بعض الخطوات في اتجاه الغرفة الثانية، حيث تتراكم كتب التاريخ وهو ينتظر مني العنوان.
- كتاب عن مصالي الحاج، أي كتاب عن هذا الرجل. قلت ذلك وأنا أبلع الاسم حتى لا يخرج كما خرج أمام السيد برانغير فيزعجه.
وإذ سقط الاسم في أذنه، نظر عمي المنوّر إلى الزبائن الغارقين بين عناوين الكتب، وكأنما ليتأكد من أن لا أحد انتبه أو سمع سؤالي، ثم تفرس وجهي بعمق وحيرة، وسحبني إلى ركن جهة الكونتوار، بعيدًا عن غرفة كتب التاريخ، ثم همس في أذني: لا تعد لذكر هذا الاسم على شفاهك مرة ثانية، وخاصة في مكان مثل هذا، قالها لي بالفرنسية، أنا لا أبيع هذا النوع من الكتب، ومن أرسلك إلي مغرض، ويريد مصادرة قوت أولادي ويقطع عني مهنة أجدادي.
ثم طلب مني أن أغادر المكان على الفور.
شعرت بما يشبه الدوخة، وأنا أنسحب مطرودًا من مكتبة "الشعب" التي أحبها، والتي منها قرأت كثيرًا من الكتب. وأنا أسير في الشارع حزينًا نظرت إلى المكتبة، وقد أدركت أن تلك ستكون آخر مرة أدخلها.
ألهذا الرجل "مصالي الحاج" كل هذه القوة التي ترعب عمي المنوّر والسيد برانغير، بمجرد التلفظ باسمه؟!
قفلت راجعًا إلى الثانوية، قلت في نفسي سأنتظر نهاية الأسبوع وأسأل والد مونيكا عن سر هذا الرعب الذي يمثله هذا "المصالي الحاج" في قلوب الجميع.
مع زيارتي لها التي استعجلتها على غير العادة، لم أترك الوقت للوقت، حين دققت الباب وجدت جميع أفراد عائلة مونيكا مجتمعين في المراح الواسع باستثناء الأب، هي عادة تحافظ عليها الأسرة من سنوات، إذ يجتمع الكل حول الجد الأكبر كل يوم سبت، لتناول وجبة الغذاء وتبادل الأخبار ما بين الأحفاد والأجداد والآباء والعمات والأعمام والخالات والأخوال.
تنتمي مونيكا إلى أسرة جميع أفرادها، ذكورًا وإناثًا، يمارسون مهنة الخياطة، من الصغر حتى فقدان البصر، أسرة عاشت تاريخها ولا تزال ما بين خرم الإبرة والخيط، قُوتُها يطلع من رأس الإبرة دينارًا على دينار، حين يستعصي على الواحد إدخال الخيط في خرم الإبرة بعد التجربة الثالثة، فتلك علامة من علامات الاستقالة، وبالتالي عليه الانتقال إلى العمل في أحد متاجر العائلة: متجر الكتان، أو متجر بيع الألبسة المستعملة، أو متجر السجاد.
الجميع في تلمسان يذكر شجاعة والد مونيكا، رجل قوي ومجاهد جريء لم يتردد في الأيام الصعبة، حين كانت قبضة الاستعمار الفرنسي على البلاد شرسة لا ترحم، أن يتحدى الجميع ويحول ورشة خياطته من العمل في تفصيل خياطة الألبسة إلى تفصيل وخياطة العلم الوطني بآلاف النسخ، وإرسالها إلى المتظاهرين والمناضلين والجنود من جيش وجبهة التحرير الوطني في الداخل والخارج.
سلمت على والد مونيكا وهو يهم بغلق الباب الصغير الفاصل ما بين الحوش ومتجر الألبسة المستعملة، ليلتحق بباقي أفراد الأسرة، ثم علق قائلاً وفي صوته نوع من الأسى وفقدان الأمل: يابني، ما كنا يومًا، زمن مصالي الحاج وفي مدينته، نتصور أن الجزائري ابن ثورة المليون ونصف المليون شهيد سيشتري، ذات يوم من أيام الاستقلال، ألبسة مستعملة تجيء من الأمريكيين والأوروبيين بعدما يعافونها ويلوثونها بعرقهم، يرمون بها إلى أبنائنا لارتدائها.

وإذ جاء اسم "مصالي الحاج" على لسانه طرت على الجملة، فعقبت: من هو مصالي الحاج؟
نظر والد مونيكا يمينًا ويسارًا كأنما يراقب أحدًا يتتبع خطوه أو يصغي إلى كلامه، ثم قال: هذا ليس وقت كلام مثل هذا، ثم تركني ودخل البيت سالكًا البوابة الصغيرة الموصلة ما بين المتجر والمسكن، تركني في الشارع وأغلق الباب.
ومن يومها لم أدخل بيت مونيكا.
وفي الليل، هرب مني النعاس، انتظرت الحارس الليلي أن يجيء، راقبت جميع الأبواب كي لا يفلت مني، وقد كنت قد قررت أن أسأله عن سر هذا الرجل الذي ذكره يرعب الناس جميعًا، تمددت على سريري ووضعت عيني رادارًا لمراقبة المرقد من كل الجهات، طال الانتظار ولم يظهر الحارس الليلي، فخانتني عيني ونمت، مؤجلاً ذلك إلى الليلة القادمة. وفي الصباح، انتظرت منظفة المبيت، كانت بـي رغبة لفعل ذلك الذي نفعله بلذة وعويل.
جاءت، في وقتها، وكما انتظرتها كانت.
أدارت قفل الراديو المعلق في عنقها، والذي ينـزل ليستقر على نهدين منفوشين، لتسكته، ثم قالت لي دون مقدمات: ليلة البارحة، تم اختطاف الحارس الليلي في الثانوية، قيل إنه يقوم بالسياسة.
ثم أضافت بنوع من الضغينة الملبسة في شيء يشبه الإعجاب بهذا الحارس الليلي، وهو ما أثار غيرتي وحرك في داخلي إحساسًا بأنني أملكها، وأنها لي وليست لغيري. قالت وهي تتجرد من ثيابها وتهم بالتسلل ما بين الشرشفين الأبيضين: مرات كثيرة جئت الثانوية فجرًا قبل موعد عملي بثلاث ساعات أو أكثر، كي ألقاه قبل أن يغادر المؤسسة، كنت أشعر تجاهه بإحساس غريب، لكنه لم يكن يعطي القلب نصيبه. كان يأخذني جانبًا ويشرع في الحديث عن مصالي الحاج، استمعت له في المرة الأولى وفي المرة الثانية، وفي كل لقاء كنت أرغب في أن أسحبه من هذا النفق المظلم، كنت آخذ بيده إذ نختلي فأجدها باردة لا تحسن سوى توزيع المناشير وعليها صور شيخ بلحية طويلة كأنه المسيح عليه السلام، تعبت من برودته ثم تركته للسياسة، وعدت أنا لرائحة الجافيل والصابون والأيام الثقيلة.
حديثها وهي تقبلني وتسحب من على جسدي النحيف ما تبقى من ثيابـي الداخلية، أضرم نار الغيرة فيّ فأبرد فجأة بين يديها، مما جعلها تضحك مني وتقبلني على فمي وتدلك عضوي المنفوش لأول مرة في حضرة عريها وعطرها، وتقول لي في أذني بصوت خافت ومهموس: أنت لي.
عادت الحرارة إلى جسدي، وفعلنا ذلك الذي نحب فعله، وعوت منظفة المبيت كثيرًا كذئبة جائعة لا تشبع.
وكالعادة نـزلت وعادت بصحن عليه القهوة والحليب وصحن مربى المشمش.
هذا الصباح لمربى المشمش طعم خاص. شعرت بالسعادة، لقد تخلصت من غريمي الحارس الليلي، وأصبحت مي زيادة لي وحدي.
وكالعادة أيضًا تبعتها كالجرو الطيع إلى عيادة الثانوية، واستقبلتني الممرضة بعين غامزة، وهي تتبادل بعض الضحكات مع منظفة المبيت، ناولتني ورقة تبرير الغياب حتى دون أن تطلب سببًا ودون أن تفحصني! وكان علي، في انتظار الدرس الموالي، أن أذهب إلى المكتبة.
هذا الصباح ليست لدي رغبة في المطالعة، كنت أرغب في التفرج على رفوف الكتب، هي عادة أحبها، مرات أدخل المكتبة فأقضي الساعة بين رفوف الكتب أقرأ العناوين وأتفرج على صور الأغلفة، وأشعر بسعادة لا تقدر لمثل هذه الفرجة. وجدت السيد ألفريد برانغير جالسًا إلى مكتبه في

ركن من قاعة المطالعة يتصفح جريدة المجاهد وأمامه جريدة الجمهورية، دخل الحارس العام، وهو رجل قصير القامة مفعم بالحركة وحب الموسيقى وكرة القدم، كان على غير عادته، متوترًا، اقترب من السيد برانغير ثم خاطبه بصوت مهموس: لقد اختفى البارحة!

- من؟ قالها باستغراب السيد برانغير.

- الحارس الليلي، لقد تم اقتياده من قبل عناصر أمنية إلى جهة مجهولة، يبدو أنهم فاجأوه وهو يوزع مناشير ممنوعة عليها صورة الزعيم مصالي الحاج على مجموعة من تلاميذ السنة النهائية وعلى الموظفين.

خرجت تبولت في المغسلة، بللت وجهي بالماء البارد مرتين، ثم عدت إلى المكتبة.

دخلت مونيكا، ارتجف قلبي لها، شعرت وكأنما سقطت من السماء لتنقذني من هذا القلق، نظرت إليها لم تكن زمة الفم المثيرة مائلة نحو اليمين، اختفت الزمة من ملامح وجهها الذي بدا لي صفحة مستوية كوجه ميت، يبدو أن أستاذًا من أساتذتها قد تغيب فكان على الحارس العام إرسال التلاميذ إلى المكتبة. جلست كعادتها على كرسي مقابل، نظرت إليها جيدًا، تأكدت بأن زمة فمها المائلة نحو اليمين قد اختفت نهائيًّا، كانت حزينة، على خجل وتردد قالت لي: لقد طلب منك والدي ألا تزورنا ثانية.

بكيت وتمنيت أن أكون أنا الآخر مصالي الحاج كي أخيف الجميع!

وأحببت منظفة غرفة المبيت أكثر، أكثر من الجميع.

15

مرات أعتقد أن بعض الوقائع والأشياء ضاعت مني، سقطت على قارعة طرقات الأيام التي خلفتها ورائي، اندثرت غبارًا في سماء النسيان، لكنني حين أنام أستعيدها حية، نابضة وكاملة بتفاصيلها وعطرها وجرحها وغموضها، في ساعات النوم القليلة، ومرات في القيلولات الممتعة، تنفتح أمامي الطرقات والممرات الضيقة التي اعتقدت أنها ضاعت مني، فأسير ثانية فيها ولكن في الاتجاه المعاكس، فأشعر بنوع من الزهو.

ولكني بمجرد أن أستيقظ يضيع مني كل شيء، ولا أعرف كيف ألملم خيوط الحلم فأحكي تفاصيل ما شاهدته في المنام، لذا أشعر بأنني أعيش نصف حياتي، فمن ينسَ أحلامه فكأنما عبر نصف عمره فقط!

أحمل على لساني طعم مربى المشمش المدهش.

وعلى جسدي عطر ماء جافيل والصابون المنبعث من جسد سيدة تنظيف مبيت التلاميذ التي أسميتها مي زيادة.

بعد اجتياز الباكالوريا بنجاح، قررت الرحيل إلى فرنسا، لا رغبة في الدراسة ولا هربًا من الخدمة الوطنية، كما فعل أخي مازار بتشجيع من أمي التي كانت تكره اللباس العسكري، ولكني جئتها بحثًا عن أخي الذي أحبه بمثل ما أحب مربى المشمش ورائحة عطر ماء جافيل على جسد سيدة التنظيف، والذي أشعر وكأنه توأمي. حين قرر ألا يعود إلى قرية باب القمر قررت بالمقابل أن أتبعه، ما فكرت في أخي إلا وفكرت في ذلك اليوم الذي لا يشبهه يوم آخر، يوم ساقني كالخروف الوديع لتسجيلي في مدرسة القرية بشهادة ميلاد ابن عمي، الذي كان يكبرني بسنتين، والذي كان يحمل نفس اسمي أنـزار؛ لأنه ما كان يحق لي التسجيل وأنا في سن الخامسة، ولكن والدي كان مصرًّا أن يدخلني المدرسة مبكرًا؛ لأنه كان يعتقد بأن لي "رأسًا خفيفة"، وأنني بهذه الرأس قادر على منافسة من هم أكبر مني بعشر سنوات، نظرًا لذكائي وقدرتي على الحفظ.

لم يكن أبـي على خطأ، لقد مارست ذلك الشيء الذي يمارسه الكبار مع امرأة بعمر أمي، وكنت أقوم بذلك كما يقوم به الكبار.

الآن أتساءل: ما اسم سيدة تنظيف مبيتنا في الداخلية؟

لقد نسيت أن أسألها عن اسمها، لم يخطر ببالي أن أسألها.. غريب! يبدو أنني أخطأت؛ إذ كان عليّ أن أمنحها هي اسم مونيكا بدلاً من أن أعطيه التلميذة شفية، فسيدة التنظيف امرأة في عمر مونيكا أم القديس أغسطين، والتي أعتقد بأنه كان يحبها وربما كان يفعل معها ما كنت أفعله أنا مع سيدة تنظيف مبيتنا في الثانوية.

لست أدري لماذا كنت أجد اسم مي زيادة لائقًا بها.

كان عليّ أن أسمع صوت والدتي، وأن أغادر البلد بعد حصولي على شهادة البكالوريا. كنت أرغب أن أواصل دراستي في الخارج، وأن أعود ذات يوم بشهادة دكتوراه أفتخر بها أمام أبناء القرية. لم أستطع الحصول على منحة دراسية بالخارج، لم تكن لي معارف بالوزارة كي أفتك منحة، ومع ذلك قررت أن أغادر، أن أعتمد على نفسي وأبحث لي عن عمل به أستطيع أن أسدد متطلبات الحياة والدراسة وأحتضن أخي مازار بقوة.

كانت أمي تخاف من كل شيء اسمه عسكر أو له ارتباط بالعسكر، ومع إنه لا يمر نهار من أيامها إلا وتذكرت أخي مازار الذي كانت تحبه أكثر مني، فهو الذي جاء بعد أربعة بطون كلها بنات، كان غيابه جمرة متقدة على الدوام في قلبها، وربما للتخفيف من شوقها لأخي الذي طال غيابه وقلت رسائله، وأصبحت لا تصل إلا بمناسبات متباعدة كالأعياد الدينية، أو للسؤال عن جدي أو جدتي أو عمتي فاطنة التي كان يحبها كثيرًا، كانت تقول وتكرر: إلا العسكر! الله لا يحييني كي أرى ولديّ في لباس العسكر، يمكنك أن تذهب إلى آخر الدنيا وأن تشحذ في الشوارع، ولكنك لا تلبس لباس الكاكي.. العسكر للموت! كانت أمي تكره كل ما يحيل على عالم القتل والحرب.

الساعة الواحدة بعد منتصف النهار، تأخير عن الإبحار بساعتين أو أكثر، الباخرة التي استقلّها منذ الساعة الثامنة صباحًا، ها هي أخيرًا تتأهب للإقلاع من ميناء وهران في اتجاه مرسيليا، أطلقت زماراتها، وعلى الفور تسابق كثير من المسافرين إلى سطحها، بعضهم يحمل آلات تصوير على أكتافهم والبعض بين أيديهم؛ كي يلتقطوا صورًا لمدينة وهران ويشاهدوها وهي تغرق في الأفق، تختفي خلف جبل الماء الأزرق رويدًا رويدًا. أما أنا فلم أتحرك، كنت أراقب جزءًا من المشهد من خلال النافذة الصغيرة التي أجلس بمحاذاتها، لم أكن أرغب في رؤية المدينة، أو بالأحرى لم تكن لي جرأة مواجهتها، كنت مكومًا في مقعدي من الدرجة الاقتصادية، بين يدي رواية "الشيخ والبحر" لإرنست هيمنجواي، أحاول أن أقرأ فيها فتختلط علي الحروف وتتداخل الشخصيات، أحس برأسي مليئًا بأفكار متضاربة، ذهني مشتت، لست أدري لماذا سيطرت عليّ مثل هذه الحالة من الخوف المشوب بالقلق، وأنا الذي انتظرت على أحر من الجمر مثل هذه اللحظات التي تخلصني من هذه البلاد، التي لم أعد أطيق العيش فيها بعد أن غادرها أخي مازار.

بحوزتي جميع الوثائق الضرورية للسفر من تأشيرة وجواز سفر جديد وبطاقة تأجيل الخدمة العسكرية مُحيّنة، وحجز مؤكد ذهابًا وإيابًا وبعض المال المطلوب بالعملة الأجنبية، وربما لأن لي نية عدم العودة نهائيًّا إلى هذه المدينة، فقد كنت خائفًا من أن ينـزلني أحد المفتشين الأمنيين المنتشرين على سطح الباخرة في أي لحظة، على أحر من الجمر كنت أنتظر ابتعاد الباخرة عن المرفأ، كنت أراقبها وهي تزحف فوق الماء كحيوان خرافي، في اتجاه مرسيليا.

قضيت في جوفها يومًا وليلة تلعب بنا الأمواج العاتية راقصة ذات اليمين وذات الشمال، لم أغادر مكاني إلا مرتين للذهاب إلى دورة المياه. هنا أيضًا تبولت في المغسلة، تناولت بعض ما أحضرته معي من بيض مسلوق وجبن وحبات تمر يابسة، وجدت نفسي ذاك الصباح على رصيف ميناء بارد وغريب، وإذ نـزلت ببلاد أنـزل عليها أول مرة قررت بيني وبين نفسي ألا أهزم، ألا أنظر خلفي. الذئب يقول: اللي تَتْلفتو جْريهْ! حكمة رائعة وعميقة. قررت أن أكون ذئبًا وإلا أكلتني الذئاب التي شعرت بها من حولي، الذئب لا يأكل أخاه، لكن أن تكون ذئبًا فالأمر ليس بالهين.

مكثت بمدينة مرسيليا أسبوعًا كاملاً، قضيته بفندق حقير، هو عبارة عن مرقد مشترك بغرف متعددة الأسرة، ذكرني بمبيتنا في الثانوية وهيج فيّ صورة سيدة التنظيف، وبحثت عن طعم مربى المشمش على لساني.

اكتشفت وأنا أمشي في شوارع مرسيليا دون مقصد ولا اتجاه بأنها عاصمة متوسطية بامتياز، اجتمع فيها للعيش خلق الله من كل الجهات، مدينة لا تنام ولا تستريح ولا تسكت، لغات كثيرة تتقاطع بين القائمين فيها دون أن تتصارع، وحين تتصارع لا تتحارب ولا تقتل واحدة الأخرى، وجوه بسحنات مختلفة، الأشقر والأسمر والأبيض، تتعايش. العيون الضيقة والواسعة تتبادل

النظرات فتتفاهم في المعنى وفي اللا معنى، عالم مختلط ومتجانس، منظم وفوضوي، وشرطة في كل مكان.
عليّ ألا أهزم! انطلقت نحو الشمال، وصلت باريس عبر قطار ليلي، وحين وصلت محطة ليون وجدت هارون ابن قرية باب القمر في انتظاري، فقد كنت أخبرته بوصولي عبر رسالة أرسلتها له يوم نـزولي مدينة مرسيليا، بعد الأولى التي كنت بعثت له بها من تلمسان. احتضنني بدفء، ودون سابق مقدمات انطلقنا في الحديث عن أيام المدرسة الابتدائية، كنا نجلس جنبًا إلى جنب إلى نفس الطاولة، تحدثنا عن معلم الفرنسية والعربية والحساب، كنا نضحك ونحن نتذكر شغبنا ونتذكر بعض أسماء أصدقاء الطفولة الذين تفرقت بهم سبل الحياة، وأول ما سألني عنه هو: "ميمون ديك جدتي"! ضحكنا ونحن ننـزل النفق لنركب الميترو.
حين رويت له كيف ماتت جدتي وقد كفنت نفسها بنفسها؛ بكى، فغيرت الموضوع لأذكره بمونيكا وبكستيللا أستاذة الإسبانية.
أسكنني معه في غرفة بئيسة يقيم بها في ضواحي باريس، هي عبارة عن غرفة حراسة ورشة بناء كبيرة، بنيت عند مدخل ثلاث عمارات نبتت للتو من عمق الأرض، ولم تنته الأشغال فيها بعد. كانت الغرفة مجهزة بسرير صنعه مضيفي بنفسه، وهو لا يعدو أن يكون عبارة عن تجميع لألواح غير صالحة تمت استعادتها من عملة النجارة في الورشة. كان هارون يشتغل حارسًا في الليل ويحضر إجازة الليسانس في علم الاجتماع نهارًا بجامعة السوربون. حين جلست على زاوية السرير اليسرى جغجغت مفاصله فخفت أن تهوي قوائمه، مع ذلك فقد كانت رائحة الطبيخ الصاعد من طنجرة منصوبة على جهاز كهربائي منعشة، أثارت لدي شهية إلى الأكل وكأنما أرادت أن تذكرني بأنني لم آكل منذ البارحة، باستثناء قهوة سوداء شربتها على عجل في المحطة قبل إقلاع القطار كي أطارد النوم.
كان هارون جادًّا في كل شيء في الدراسة، فالغرفة مليئة بالكتب والمجلات، وفي العمل فهو لا يغيب عن الحراسة الليلية، ومع ذلك كانت علب البيرة كرونبورغ 33 وقناني النبيذ مرمية تحت السرير وعلى رفوف من لوح صففت عليها كثير من الكتب.
مع مرور الأسبوع الأول، بدأت أشعر وكأن وجودي أصبح ثقيلاً في هذا المكان، وأن تحمل هارون لي قد بلغ مداه؛ فالغرفة غير صالحة لأن تأوي واحدًا ما بالك باثنين، لا مرحاض فيها ولا حمام، إذ كنا نضطر أن نغادر لبعض مئات الأمتار كي نقضي حاجتنا في مرحاض وحمام عمال الورشة. بدأت أفكر في التحرر من هذا الوضع وبالتالي تحرير هارون مني. وكانت الفرصة، إذ زار هارون رجل تركي من أصل كردي، اسمه سليمان أوجلان، يتكلم عربية فصيحة وفرنسية عالية دون لكنة، قدمني إليه ابن البلد، كان لطيفًا، يذكر الله كثيرًا، ويكبر في كل دقيقة مرتين، ولا يتوقف عن الصلاة على النبـي، أثارني شكله ونظافة ملبسه وقلة كلامه وخجله، مع ذلك لم يتردد الكردي في مشاركتنا احتساء بعض كؤوس البيرة، تحدثنا في كثير من الأمور السياسية والاجتماعية والجامعية، وتحدثنا أيضًا في العنصرية المتفشية، وبروز أحزاب متطرفة يمينية في أوروبا، وتشعب بنا الحديث مع كؤوس البيرة ليصل أطراف الأدب الفرنسي وعالم السينما والدين.
بدا لي الضيف قارئًا كبيرًا للشعر؛ فهو يحفظ كثيرًا من شعر ناظم حكمت، وقد قرأ جميع روايات ياشار كمال مغرما بمجد الدولة العثمانية، مع إنه من دعاة العودة إلى كتابة اللغة التركية بالحرف العربـي، إلا إنه معجب بكاريزما الزعيم العلماني مصطفى أتاتورك. حين بدأت البيرة تنعشه لف

له سيجارة من تبغ خاص! أبدى أسفًا عميقًا على الطريقة التي تمت بها تسليم الجزائر إلى فرنسا من قبل الداي حسين، الذي كان يحب العلماء وكان قائدًا تقيًّا يحفظ القرآن ويعمل بشريعة الدين ويحب النساء كثيرًا، والذي بتسليمه الجزائر إلى فرنسا أصابته لعنة المنافي، إذ هاجر إلى إيطاليا أولاً، ثم إلى الإسكندرية التي مات بها سنة 1838.

مع إن سليمان أوجلان هذا رحالة عرف كثيرًا من مدن الدنيا، إلا إنه ومن خلال حديثه بدا عاشقًا حد التصوف لمدينة إسطنبول، التي قضى بها طفولته متشردًا يبيع العصافير للسواح الأوروبيين، شاركنا سهرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل، وقبل أن يغادر، وقد أدرك من خلال حديثنا بأنني بصدد البحث عن عمل أغطي به متطلبات الحياة والجامعة، اقترح علي أوجلان فكرة توظيفي في شركته، سعدت كثيرًا لهذا الحظ الذي لقيني على أعتاب باريس وفي أول أسبوع لي في هذه المدينة الغامضة.

قلت في نفسي وأنا أنتشي بهذا الخبر الذي زادته نشوة البيرة درجات من الفيض الروحي: إذا كان الآخرون، وهم كثر من العرب والأكراد والترك والبربر، يقضون الشهور يجرون خلف خبزة حقيرة فلا يلحقون بها، فها هي الخبزة تجري خلفي، ثم تذكرت أختي هاجر وتشوهات ساقها ونمت، نمت في كامل السعادة على إسفنجة بسطتها عند قوائم السرير الذي نام فوقه هارون. على كل هي الليلة الوحيدة التي ينام فيها على السرير، أما الليالي الأخرى فهي للشغل، أي الحراسة الليلية، حين يغيب ابن البلد ليلاً أنا الذي أنام على السرير، في انتظار الصباح الباكر، إذ يعود عند حدود السابعة والنصف صباحًا، أخلي له المكان لينام النهار بطوله، يستيقظ عند الرابعة زوالاً، يأكل لقمة ثم يتهيأ للشغل الذي يبدأه الساعة السادسة مساء، وحتى السابعة صباحًا من اليوم الموالي.

منذ أن اكتشفت وبالصدفة أسفل وسادة هارون مصحفًا صغيرًا، وطلاسم كان يدسها في صدره كلما نام ليرفعها من تحت قميصه الداخلي عند استيقاظه مساء، ليعيدها إلى مخبئها تحت الوسادة، قررت أن لا أضع رأسي على هذه المخدة.

بعد يومين عاد سليمان أوجلان الكردي، وكما في الليلة السابقة شربنا كثيرًا من البيرة والنبيذ وتكلمنا كما في اللقاء الأول في السياسة وأخبار البلد والعرب والأدب، وقد أحضر لي كتابًا سياحيًّا كان قد كتبه عن بلده كردستان لغة وموسيقى ولباسًا وطبيعة ونساء... وقبل أن يغادرنا سلمني رسالة بخط يديه وتوقيعه تكون وثيقة للاتصال بشركته لتوقيع عقد العمل، مع بطاقة زيارته عليها عنوان المؤسسة. ومما زادني بهجة هو أنه ضمن لي إمكانية الإقامة في مكان العمل نفسه، قائلاً: يمكن ترتيب الغرفة الموجودة على سطح البناية لتكون سكنًا لك بعد أن نطلب ترخيصًا من الجهات الأمنية في الدائرة، وبهذا تخفف على هارون.

لم أسأل عن طبيعة العمل، ولا عن تفاصيله؛ فبالنسبة لي مفهوم "الشركة" هو إما صناعة السيارات أو البناء، أو حفر خنادق المترو أو خنادق الفحم، أو شركات البيع أو النقل أو الفندقة أو ما شابه ذلك. المهم أن يكون لك عمل يحقق لك لقمة اليوم، ويمنحك فرصة مواصلة الدراسة الجامعية.

وإذ التحقت بعملي متوترًا، كان ذلك صباح يوم الاثنين الموالي، وجدت البناية من خارجها توحي وكأنها مستشفى، ترددت، لمرات عديدة راجعت قراءة العنوان الذي نقلته بعناية ودقة على كناشة صغيرة، ثم دخلت، أوقفني حارس عند الباب، كلمني بفرنسية فيها لكنة أجنبية واضحة، قائلاً: ماذا

تريد؟ أظهرت له رسالة التوصية الموقعة من قبل صاحب المؤسسة، ابتسم في وجهي مرحبًا بكلمات غير مسموعة، ركّب رقمًا داخليًّا ثم هاتف أحدًا، الذي بدوره لم يتأخر فجاء مسرعًا لاستقبالي، قادني إلى غرفة واسعة فارغة، البناية كلها تبدو شبه فارغة، أصوات محركات أجهزة تبريد أو تدفئة تسمع بالتناوب، تتوقف ثم تعود أوتوماتيكيًّا للشخير.
انتظرت قليلاً، على كرسي بارد جلستُ، سكنني قلق ما، هجم علي وجه أختي هاجر، بدأت أضطرب، كنت كأنما أنتظر نـزول شيء غريب من سقف هذه الغرفة المضاءة بشكل خافت، بل المظلمة قليلاً، إضاءتها غير الكافية زادت من توتري.
جاءني شاب لفظه فجأة مصعد بابه في نهاية الرواق الصامت، لا شيء يسمع في هذا الطابق عدا أصوات محركات أجهزة تبريد أو تدفئة، أسمع شخيرها المتقطع الذي أقلقني وحرك فيّ إحساسًا غامضًا ورغبة في البكاء، قال السيد الذي يبدو من هيئته بأنه فرنسي، بعد أن حيّاني باحترام مرحبًا: هل يمكنني إلقاء نظرة على الرسالة؟ سلمته إياها، تفحصها ثم طلب مني أن أتبعه. سرت خلفه، وقد شعرت براحة وأنا أتحرر من هذا الطابق الكئيب، دخلنا غرفة المصعد، بها رائحة تشبه رائحة الأدوية الفاسدة المنتهية الصلاحية، أدركت وقد رأيته يكبس على الزر رقم 2 بأننا نصعد نحو الطابق الثاني. نـزلنا بالفعل بالطابق الثاني، لكنه قال لي: علينا أن نصعد راجلين إلى الطابق الثالث، فالمصعد لا يفتح في الأعلى، تسلقت السلالم من بعده، خمسة وعشرين درجة أعددتها واحدة واحدة، دخل مكتبًا في آخر الرواق، تبعته، سلمني إلى سيدة لم ترفع إلي نظرًا، كانت تكلمني من خلف نظارة سوداء دون أن تفارق عينها دفترًا كبيرًا مفتوحًا أمامها، سألتني عن اسمي وتاريخ ميلادي وعنوان إقامتي، أعطيتها اسم ابن عمي أنـزار ابن الصافي المتوفى، والذي استوليت على اسمه وها أنا ذا أعيش به، أسكن جلد ميت منذ أول تسجيل مدرسي لي تولاه أخي مازار نيابة عن أبـي أو جدي، ضحكت من وضعي الغريب هذا، إني أعيش باسم ميت! سجلت السيدة الكئيبة ما أمليته عليها على ورقة كرطونية كبيرة، ثم سلمتني قلمًا وطلبت مني أن أوقع، وقعت دون أن أسأل على أي شيء وقعت. عاد الشاب الذي قادني إلى هذا الطابق طالبًا مني أن أتبعه فتبعته، دخلنا مكتبًا آخر في ذات الطابق، تسلم رجل أطل برأسه الأصلع من كوة صغيرة ورقة من يد الشاب، اختفى الرأس الأصلع قليلاً، سمعت طقطقة الآلة الكاتبة أو الحاسبة، ثم عاد الرأس ليطل من الكوة، أمرني أن أوقع على ورقة، وقعت، سلم لي مجموعة أوراق نقدية، قائلاً: هذا تسبيق من إدارة المؤسسة بتوصية من المدير العام السيد سليمان أوجلان. تناولت الأوراق النقدية، وضعتها في الجيب، وتبعت الشاب ثانية، نـزلنا السلالم، هذه المرة لم أعد الدرجات، عدنا إلى المصعد، وعادت رائحة الأدوية الفاسدة إلى أنفي، ونـزلنا مرة أخرى إلى الطابق الذي منه تسلمني، قال لي ببرودة قاتلة: مرحبًا بك بين فريق عمال المؤسسة، شكرته فلم ينتبه إلى كلامي، بلعه المصعد واختفى قبل أن أتمم جملتي.
حين وجدت نفسي في المكان الأول، حيث لا تسمع سوى أصوات محركات البرادات أو المدافئ، شعرت ثانية بالقلق والتوتر، بدت لي الغرفة أكثر إضاءة من الأول، لم يطل انتظاري وإذا بشيخ بلحية تكاد تكون بيضاء وبلباس أنيق يقترب مني، يسلم علي بحرارة، ثم يقول لي بابتسامة عريضة: مرحبًا بك! من لهجته أدركت أنه مغربـي، ثم جلس بجواري على كرسي متهالك من لوح لم أنتبه إلى أنه كان موجودًا من قبل، وفي هذا المكان الذي بدا فسيحًا كملعب كرة السلة.

قال الرجل الملتحي وفي صوته رنين حزن وحشرجة بكاء: سأغادر بعد أسبوع هذه المؤسسة التي قضيت فيها ربع قرن وستة أشهر، لقد وصلت سن التقاعد، بل تجاوزته بستة أشهر وثمانية أيام، سأعود إلى بلادي، إلى مدينة أحفير غير بعيد عن وجدة؛ لأتزوج فتاة أحلامي التي خطبتها منذ ثلاثين سنة، منذ ثلاثين سنة وهي تنتظرني على ضفة نهر اسمه وادي كيس، هو الوفاء! وضحك الرجل وقد اغرورقت عيناه بالدموع فظهرت أسنانه مسوسة وبعضها ساقط، ثم واصل: لقد جهزت كل شيء، سأغادر بعد عشر أيام، تعبت، ربع قرن يكفي! حجزت مقعدًا لي في باخرة متجهة من مالاقا إلى مليلية. كان يحدثني ويضرب على ظهري تارة ويهزني من كتفي تارة أخرى، وإذا بسيارة-ثلاجة تابعة للحماية المدنية، تقف في الساحة قدام عتبة الغرفة التي نحن بها، استدار الرجل جهة السيارة التي نـزل منها ثلاثة شبان، رجلان وامرأة، تغيرت ملامح محدثي، صمت عن الكلام، واختفى حماسه. كان أحد الثلاثة الذين نـزلوا من السيارة-الثلاجة يحمل ملفًّا بيد والأخرى في جيب مئزره الأبيض الطبـي، انتبهت بأن البرد كان شديدًا في الخارج، تناول الملف من يد الشاب، ثم هزني مرة أخرى من كتفي كأنما أراد أن يوقظني من نوم، أو يسحبني من غياب. اختفى الثلاثة داخل العمارة، وعاد الرجل إلى الحديث عن خطيبته وعن أخيها التوأم الذي عشقها فكانا لا ينامان إلا متعانقين، والذي انتحر بعد أن علم بخطوبتهما، رمى نفسه في بئر مهجور، لم يعثروا عليه إلا بعد ثلاثة أشهر، انتحر دون أن يفهم أهل القرية لماذا انتحر، ولكنهم اتفقوا جميعًا بأنها إرادة الله، وإرادة الله لا ترد. ودفنوه عند جذع شجرة البئر، وسموا البئر باسمه وقرروا تنظيف البئر بإفراغه من الماء المتعفن، وشرعوا في السقي منه بعد شتاء كثير المطر.
قام الرجل، خطا بعض الخطوات، انتبهتُ إلى أن به عوجًا خفيفًا في ساقه الأيمن مما أثر على مشيته، ربما من ثخانة جسمه ما عادت ساقاه تتحملان جثته. قلت: لا على الأعرج حرج! مشى قدامي بعض الخطوات وقد شعرت بالاطمئنان إليه، طيب، ثم التفت إلي ودون أن ينبس بكلمة تبعته، شعرت باختناق وأنا أسير خلفه تحت هذا الرواق ذي السقف الهابط الغارق في الظلمة والرطوبة ورائحة غريبة، وضع الثلاثة ما حملوه على مصطبة، ثم وحتى دون أن يقولوا كلمة واحدة، انسحبوا. بدأ الرجل في قراءة آية الكرسي بصوت مرتفع، ومثله كنت أرددها مهموسة، حين دار محرك السيارة وجغجغت العجلات، وأدركت أن الثلاثة غادروا البناية شعرت ببرد يستقر في المفاصل، وبنوع من الخوف لست أدري مصدره، ربما طبيعة صوت الرجل وهو يردد آية الكرسي.
تذكرت صوت عمي سليمان وهو يقرأ آية الكرسي على رفات الشهداء، الذين يعاد دفنهم سنويًّا بمناسبة عيد الثورة، آية الكرسي هي كل ما يحفظه من كتاب الله وبها يرفع صوته فوق أصوات الجميع وفي كل مناسبة، في الأعراس وحفلات الختان وسهرات العزاء وفي صلاة العيدين وصلاة التراويح وصلاة الاستسقاء..
تذكرت عمي سليمان وقهقهاته في أذن أختي هاجر، كانا كالمراهقين دائمًا!
شمر الرجل عن ساعديه، سحب الشيء الموجود داخل كيس بلاستيكي أسود كبير مغلق بسحّاب، وإذا بـي أمام جثة متيبسة، أدرت وجهي، شعرت برغبة في القيء، بلت في سروالي، رفع الرجل قليلاً من صوته وقد شرع في قراءة سورة الفاتحة، قرأتها في قلبـي معه وقد نسيت نصفها، تراجعت بعض الخطوات إلى الخلف بعيدًا عن المنظر، البولة التي وصلت حتى الجوارب أثارت فيّ برودة، تذكرت سعادتي وأنا أتبول في مغسلة مبيت الثانوية، تشجعت ثم سرقت نظرة خاطفة،

كانت الجثة المسجاة على الطاولة لرجل لم أتمكن من تقدير عمره ولا لون وجهه ولا ملامحه، كان الجسد مشوهًا كأنما دهسته سيارة وقد طحن جزء منه، هو في الحقيقة ليس أكثر من نصف جثة. تناول الرجل أنبوبًا، ضغط على قفل حنفية فسال ماء ساخن، وبدأ في غسل نصف الجثة، ودعكها بمكنسة كبيرة خاصة بذلك، ثم أغلق أنبوب الماء الساخن وتناول آخر سال منه ماء بارد، وكما في الأول غمر الجثة بالماء، ثم قلبها على بطنها ونظف ما أمكن تنظيفه بالمكنسة، الآن ما عاد الشيخ الأعرج يقرأ لا سورة الفاتحة ولا آية الكرسي، إنه غارق في صمت، ثم أدار الجثة المشوهة على الجنب الأيمن ثم على الأيسر، وحين انتهى من صب الماء، أخرج غبرة تشبه دقيق الحنطة من كيس بلاستيكي كبير ثم رشها على الجثة باستثناء الوجه، أو ما بقي من الوجه. كنت أرى ولا أرى، أراقب المشهد ولا أراقب، شيئًا فشيئًا بدأت أتصالح مع هذا المنظر المريع؛ فالرجل الأعرج أمامي يقوم بمهمته وهو مرتاح البال، يحرك الجثة المشوهة كأنما يحرك حطبة يابسة ومحروقة، استدار إليّ ثم أشار عليّ أن أقترب منه أكثر، شعرت بانـزعاج من أثر البولة التي أفرغت نصفها في ملابسي الداخلية، اقتربت منه خطوتين، أشحت بنظري عن الجثة المطحونة النصف، بدأ الملتحي الأعرج يتحدث عن خطيبته التي قال إن اسمها عائشة وهو يدعوها بعيشوش، اسم الدلع، وقد نسي تمامًا الجثة التي بين يديه: إنها تحب مربى المشمش كثيرًا، وتأكل منه في الصباح وعند الظهيرة وقبل النوم، لا تكاد تخرج أصبعها من بوقال المربى، وتعشق أغاني الريميتي، وقد اشتريت لها فونوغرافًا ياباني الصنع وأرسلته إليها منذ سبع سنين، فهي لا تكاد ترفع أذنيها من على أغاني هذه الشيخة، لمدة خمس وعشرين سنة وهي تتمنى أن تجيء إلى فرنسا لتعيش معي بعض الوقت في بلاد النظام والنظافة والاحترام واللغة العجيبة، لكن شبح أخيها التوأم، الذي مات منتحرًا في البئر بمجرد أن علم بخطوبتي منها، والذي يزورها كل ليلة لم يسمح لها بمغادرة البلدة، وهي لا تستطيع أن ترد طلبًا لأخيها حيًّا كان أم ميتًا... رفضت تعلم الفرنسية لأن عيشوش طلبت مني ذلك قائلة لي ليلة وداعها، قبل خمسة وعشرين سنة: إذا ما تعلمت لغتهم يامولاي شريف ودار لسانك بلسانهم فإنك ستنساني. وأقسمت ألاّ أتعلم هذه اللغة التي تنسيني عيشوش.

هي مثلي، عيشوش، تحب مربى المشمش، ذكرني هذا بسيدة نظافة المبيت، وعلى الفور شعرت برغبة إلي عطر الصابون وماء جافيل المنبعث من جسدها الذي يشبه جسد مونيكا أم القديس أوغسطين، واستوطنني إحساس بالغيرة عليها من ذاك الحارس الليلي الذي قاده البوليس إلى جهة مجهولة. قلت في نفسي: سيعود إلى الثانوية بعد أن يطلق سراحه، جراء عفو رئاسي، وسيأكل جسدها ويستمتع بعطر ماء جافيل المنبعث منه، ستعلمه ممارسة ذلك الذي كنا نمارسه بجنون كلما شعرت بمغص في بطني قبل أن أستمتع بمربى المشمش بالخبز، وستنسيه السياسة التافهة وتنسيه شيخه مصالي الحاج الذي لا يجلب سوى وجع الرأس. ستعيد إليه الخصيتين لتضعهما مكان السياسة وحزب "الشعب".

فجأة غير الشيخ الأعرج من نبرة صوته الرومانسية وهو يتحدث عن خطيبته عيشوش التي مثلي تحب مربى المشمش، إلى نبرة أخرى قائلاً وقد أخذني من كتفي: هذه آخر جثة أغسلها قبل أن أعود إلى خطيبتي، وقبل أن تأخذ مكاني هذا ابتداء من الغد. سكت وحاول أن يخفي حَوَلا في عينه اليمنى ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت له: اسمي أنـزار ولي أخ اسمه مازار. أردت أن أؤكد له بأنني أنا الآخر أعيش في جلد ميت قضى على عمر السنتين. لكني سكت وترحمت على أنـزار ابن عمي الصافي الذي أعيش بأوراقه.

قال الشيخ: أنا اسمي مولاي الشريف، وهذه هي الجثة رقم ثلاثمائة ألف وثمانمائة وتسعة وثمانين التي أقوم بغسلها على الطريقة الإسلامية، وقراءة الفاتحة عليها وآية الكرسي، منذ جئت هذه الوظيفة قبل ربع قرن ويزيد، لم أغير مكانًا ولم أغير لسانًا، قضيت حياتي بين الموتى وكلام الله المختصر في الفاتحة وآية الكرسي والحشيش، سأترك لك المكان لتعيش أنت الآخر حياتك بين أشكال الموتى وموسيقى برادات مليئة بالجثامين من كل جهات العالم الإسلامي. لا فرق بين عالم الأحياء وعالم الموتى.

تنمل جسدي لمثل هذا الكلام، ثم قلت في نفسي: أنا أعيش في جلد ميت منذ عشرين سنة، أعيش في أنـزار ابن عمي، وها أنا ذا أنتقل لأعيش في مغلسة الموتى!

لف الجثة المشوهة في قماش أبيض، خاط الكفن بخيط أدخله في إبرة كبيرة، تشبه تلك الإبرة التي كان يستعملها خياط بردعات الحمير والبغال في قرية باب القمر، كتب عليها بقلم خشن وبخط عربـي مغربـي، حيث حرف الفاء يُنقط من تحت: المرحوم فاطمي عبد السلام. أدخل الجثة وبطريقة سلسة في كيس نيلون أسود ذي سحّاب كبير، أخرجه من دولاب حديدي غير بعيد عن المصطبة، ثم كتب بقلم أحمر فوق اسم المرحوم: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وأسفلها: "الله أكبر".

قال لي: لم أكن أعرف كتابة حرف واحد، لقد تعلمت هذا هنا من شخص كان قد سبقني في المهنة، الله يرحمه مات هنا بسكتة قلبية. وأشار لي بأصبعه إلى المكان الذي كنت أقف فيه.. تجمدت فرائصي.

وضع الجثة على محمل بعجلات، ثم دفعها أمامه إلى غرفة أخرى، تبعته وقد شعرت بأن بولتي جفت، شعرت بالغرفة باردة، أدخل الجثة في ثلاجة كبيرة بأدراج كثيرة، فهمت بأنها غرفة حفظ الجثث.

سحب الرجل القفازين الأصفرين من يديه بطريقة آلية، وألقى بهما في كيس المهملات.

تنفستُ الصعداء إذ غادرنا غرفة حفظ الجثث، وعاد الرجل إلى الغرفة التي كنا بها في الأول، وتبعته دون أن يطلب مني أن أتبعه، ضحك دون أن أفهم لماذا ضحك، أخرج صورة بالأسود والأبيض من جيبه، وضعها أمامي، ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: هذه هي لالة عيشوش، ألقيت نظرة خاطفة على الصورة، بدت لي من ملامحها شبيهة إلى حد كبير بجثة الرجل الذي غسّله قبل قليل.

عاد مولاي الشريف للحديث عن قصة جهاز الفونغراف الذي بعثه هدية إليها مع أحد أبناء البلد الذين يعودون كل صيف لقضاء العطلة بين الأهل، ثم أخرج صينية نحاسية وإبريق شاي من درج مجاور، ولفّ له سيجارة من تبغ خاص! ولف لي واحدة مثلها، شربت كأس الشاي وقبل أن أنهي السيجارة بتبغها الغريب المنعش، شعرت برغبة في الرقص بين هذه الجثث التي تنام في البرادات... وتذكرت الميت الذي أسكنه.

كانت جلسة الشاي وتبغ السيجارة ونحن جالسان بين الجثث مثيرة، تمنيتها أن تطول أكثر، لكن سيارة نقل الجثامين توقفت ثانية في الساحة، جمع الرجل الذي بدا لي لطيفًا صينيته على عجل، لبس قفازيه وبحيوية وقف استعدادًا لاستقبال جثة جديدة.

16

عليّ أن أقوم بما قام به مولاي الشريف عشيق عيشوش مدة ربع قرن ويزيد، لقد أصبحت موظفًا في شركة إسلامية لتغسيل جثث الموتى المسلمين، والتكفل بكل الإجراءات الإدارية والشرعية لإعادتهم إلى ديارهم، كل ذلك باحترام دقيق للشرائع الإسلامية في التعامل مع الميت حتى يصل قبره. في البداية ترددت، وقد قررت ألاّ أذهب إلى العمل من جراء ما شاهدته بين يدي مولاي الشريف الطيب، لكن هارون ابن البلد وبعد أن شربنا كثيرًا من النبيذ الرديء تلك الليلة، قال لي عبارة واحدة جعلتني أقبل بوظيفتي: العمل شرف ياأنـزار سواء أكان في الأحياء أو في الأموات، الخبزة في هذا البلد يجب إخراجها من كفن الميت أو من ريش الملوك، هي خبزة والسلام.
وشربنا كثيرًا.
كنت أريد أن أنسى؛ فشربت أكثر، وبكيت.
لم أنم ليلتها تلك، تذكرت جميع أموات قرية باب القمر الكبار والصغار الأقارب والأباعد، من سرت في جنازتهم، ومن أخْبِرتُ بموتهم لاحقًا. تذكرت ابن عمي أنـزار الذي أحمل اسمه في أوراقي الرسمية حتى الآن، وأعيش في موته متنعمًا بالبيرة والنبيذ وذاكرة ينعشها عطر الصابون وماء الجافيل الصاعد من جسد مونيكا منظفة مبيتنا في الثانوية. تذكرت بعض زياراتي لمقابر العائلة أيام العيد بصحبة أمي، وتذكرت غسال الأموات في قريتنا الذي كان يدعى: موح رابح، ومع أن الناس كانوا ينظرون إليه باستخفاف إلا إن الجميع كان يحترمه ويضعه في مرتبة عالية، وكنا نحن الأطفال نخاف منه، فإذا ما وجد في جمع ننسحب منه نحن على الفور. وكانت أمهاتنا يخفننا به!
ها أنا ذا اليوم في مهمة موح رابح، أغسل الموتى وأشرب الشاي وأقرأ الفاتحة وآية الكرسي مفخرة عمي سليمان.
في اليوم التالي كان عليّ أن أقوم باكرًا، وأن أركب الميترو كما يركبه الخلق الكثير من الأحياء، وأن أبدأ الجري خلف الخبزة في الأنفاق وعلى فوهات القبور الإسلامية في بلد لائكي! كنت أنظر إلى الوجوه السمراء من ركاب الميترو وأقول في نفسي إن نهاية غالبيتهم ستكون بين يدي، وأشعر بنوع من القوة الخارقة. أنـزل في هذه المحطة وأقول لهم: إني أنتظركم إن ليس غدًا فبعد غد أكيد.
وصلت إلى العمل في الوقت المحدد، كانت البناية هادئة، بعض الموظفين الإداريين الذين يقيمون في الطابق الأول والثاني يدخنون في انتظار ساعة بدء العمل، تسللت إلى الجناح المخصص لغسل الموتى من الذكور دون أن أثير انتباه أحد، ولكني ما إن خطوت الخطوة الثانية حتى قابلتني امرأة ممتلئة، سمراء البشرة، بادية الزينة، قائلة:
- أنت الموظف الجديد الذي عوض مولاي الشريف؟
أجبتها بإشارة الإيجاب من رأسي.
قبلتني المرأة قبلتين على وجهي! كان وجهها مبتسمًا، دون مقدمات، وبعفوية عالية بدأت تحدثني عن أصل أمها الدرزية من مدينة السويداء، وعن أبيها العلوي من قرية القرداحة قرية الرئيس السوري حافظ الأسد، وعن حكاية الحب التي عاشاها والتي كانت السبب في ملاحقتهما من قبل العائلتين لسبب الشرف الطائفي، وكيف أن خالها قتل أمها في مطعم أمام الجميع، وكيف أن عمها

قتل أباها لأنه لم يستطع الدفاع برجولة عن زوجته، وبالتالي داس شرف الرجولة وأهان الأسرة، وأنها تعمل في جناح غسل الموتى من الإناث منذ سبع سنوات، وأنها سعيدة بعملها، وأنها خريجة الجامعة تخصص بيولوجيا، وأن راتبها يكفيها وزيادة، فهي تقضي عطلتها الصيفية في بيروت، وعطلتها الشتوية على قمم جبال الألب في محطات التزلج. كانت تتكلم فرنسية عالية ودون أي لكنة.

المرأة أنيقة ومثيرة، لا يتناسب شكلها وماكياجها ولباسها مع هذا المكان الخاص بالموتى.

قبل أن تنهيَ حكايتها، توقفت سيارة الحماية المدنية، أسرعتُ إلى استقبال الرجل الذي يحمل ملفًّا، صعد الطابق الأول لتوقيع بعض الأوراق، نـزل، سلمني أوراقًا أخرى، فتحتُ باب الغرفة، أدخلوا الجثة ووضعوها على المصطبة، طلب مني أن أوقع له على ورقة، وقعت. وتذكرت عدد الأموات الذين غسلهم مولاي الشريف عشيق عيشوش، رنت في أذني عبارته: "إنها الجثة رقم ثلاثمائة ألف وثمانمائة وتسعة وثمانين التي أغسلها"!

قلت في نفسي: لأبدأ العد أنا الآخر: إنها الجثة الأولى.

كما علمني مولاي الشريف، لبست قفازتي، وضعت كمامة على أنفي، أخرجت الجثة من كيسها الذي له سحاب، نـزعت عنها ثوبها الذي كان عبارة عن بيجامة مخططة عليها بقايا البول والغائط، ثم بدأت بأنبوب الماء الساخن ثم البارد. ومثل مولاي الشريف فركت الجثة بالمكنسة الخاصة، وذررت عليها الغبرة التي تساعد على حمايتها من التفسخ الناتج عن حرارة بلدان الجنوب؛ لأن نقل الجثة قد يأخذ وقتًا أطول، وإجراءات الشرطة في المطارات طويلة وملتوية، إذا لم تدفع لهم رشوة، قد يستغرق وصول الميت إلى أهله أسبوعًا أو أكثر، أو يلحق به يوم القيامة قبل أن يصل إلى قبره، هكذا قال لي مولاي الشريف.

فجأة جاءتني المرأة المكلفة بغسل الموتى الإناث لاهثة تجري، وفي يدها جهاز ترانـزستور صغير معلق في عنقها بخيط مطاط، تأخذه معها أينما ذهبت، إنها تعشق الموسيقى وتحب سماع الأخبار السياسية، على الفور ذكرتني بسيدة تنظيف مبيتنا بالثانوية والتي معها كنت أفعل ذلك الفعل الذي كان يعجبها ويجننها، ويجعلها تصرخ كالمجنونة وتعوي كالذئبة المجروحة، من يديها كانت تطعمني مربى المشمش الذي أحبه، قالت لي: لقد اندلعت الحرب الثانية ما بين العرب وإسرائيل.

سكتت قليلاً ثم أضافت: عليك أن تغلق فمك، فصاحب المؤسسة يهودي كردي.

كانت تتكلم والأخبار تتلاحق على لسان مراسلين من تل أبيب والقاهرة ودمشق، لا حديث سوى عن العبور على الجبهتين: جبهة الجولان وجبهة سيناء.

سيارة الحماية المدينة تتوقف وسط الساحة، كنت أتمنى لو يكون الميت امرأة حتى أتخلص من ثرثرة هذه المرأة، لكن الميت كان رجلاً، لماذا يموت الرجال أكثر من النساء؟ أدخلوه الغرفة التي بدت لي مظلمة أكثر، شعرت براحة لظلمتها، كما في المرة الأولى وضعوا الجثة على المصطبة، سحبتها، كما في المرة الأولى مع الجثة الأولى، من الكيس ذي السحّاب، وغمرته بالماء الساخن ثم البارد وفركته بالمكنسة وذررت عليه الغبرة البيضاء، وقرأت آية الكرسي والفاتحة، وكتبت على الكيس الذي وضعته فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم" و"الله أكبر" وتحتهما اسم الميت: علي حمدون البيض- عدن، اليمن الجنوبـي.

تذكرت أني قرأت قصصًا قصيرة للرئيس اليمني الجنوبـي عبد الفتاح إسماعيل وقد أعجبني أسلوبه.

الآن أنتبه إلى أن المرأة ثرثارة ولكن صوتها جميل، كانت تغني موالاً حزينًا من الفلكلور الدرزي العريق، قلت لها مازحًا: إنك حفيدة أسمهان. ضحكت، تمنيتها ألا تتوقف عن الضحك وعن الغناء، الذي استطاع أن يخفف عني إحساسًا بالخوف سيطر علي وأنا أمام براد حفظ الجثث. فجأة تخيلت قيام الموتى في هبة واحدة من براداتهم عراة ضاحكين راقصين من حولي، برد جسدي، لم أدر كيف ناديت على المرأة التي لم أنتبه حتى وجدتها تسقيني كأس شاي ساخن، وتضع على رأسي كمادات باردة، استفقتُ وإذا برأسي على فخذها وهي تقرأ عليّ الفاتحة مكسورة. قلت لها: شكرًا.
قالت لي: اسمي شاهي، شاهيناز واختصارًا شاهي.
اعتقدتُ أني مت، ومن لحظتها شعرت برباط متين يشدني إلى هذه المرأة، رباط الموت.
في المساء، قبل نهاية فترة العمل بنصف ساعة تقريبًا، جاء السيد سليمان أوجلان، بدا منشغل البال، مشتت الذهن، قال لي: هي الحرب اندلعت مرة أخرى في الشرق الأوسط، بين العرب وإسرائيل.
لم أجب.
أنا لا أحب الحرب، ورثت هذا الإحساس عن أمي التي تكره كل ما له علاقة بالعسكر، وهي التي فضلت أن تلقي بنا أنا وأخي مازار في الغربة بدلاً من أن ترانا نلبس لباس العسكر، وربما نجند في حرب الرمال الثانية.
اختفى صوت المرأة، وقد تمنيته ألا يسكت، ألا يخبو، ومعه اختفى صوت المذياع، الذي لم يتوقف عن إذاعة أخبار الحرب، وتمنيته أن يسكت.
قال لي السيد سليمان أوجلان الذي بدا أصغر كثيرًا من عمره الذي رأيته عليه أول مرة في غرفة ابن البلد: لقد أمرت الإدارة بتجهيز الغرفة التي كان يقيم بها مولاي الشريف والموجودة على سطح البناية، بعد أن أخذنا الموافقة من السلطات المحلية، يمكنك ابتداء من ليلة الغد أن تبيت فيها.
الواقع أنني كنت أفضل البقاء عند ابن البلد، أحسن لي من المبيت في غرفة بعمارة لا يقاسمني فضاءها سوى الموتى. أحاصرهم في النهار بالماء، ويحاصرونني في الليل بصمتهم الصارخ.
لم أكن أعرف بأن شاهي هي الأخرى تقيم في غرفة على سطح بناية المؤسسة، غرفة تجاور غرفتي، الباب للباب، وحين علمت بذلك اطمئن قلبي، وشعرت بنوع من الراحة.
ما إن دفعت باب الغرفة حتى وجدت المرأة تتبعني وترحب بي جارًا عزيزًا، قائلة: أنا شاهي، شاهيناز، لا تقلق يا....
قلت لها: اسمي أنزار ولي أخ اسمه مازار.
قالت: اسم بطل من أبطال حكايات ألف ليلة وليلة. وضحكت، وتقدمت داخل الغرفة.
جلست قبالتي وبدأت تتحدث عن مدينتها السويداء، وعن سلطان باشا الأطرش الذي هزم الجيوش الفرنسية وحرر سوريا: لستم أنتم الوحيدين الذين طردتم فرنسا، طردناها نحن الدروز من قبلكم.
وضحكت، ضحكتها جميلة وأسنانها مرتبة ونظيفة، ثم شرعت في الحديث عن خصائص الدين الدرزي وعن كتاب الحكمة المعتمد لديهم، ويشمل مائة وإحدى عشرة رسالة، وعن مصحفهم المسمى: "المنفرد بذاته"، وهو كتاب يجمع ما بين تعاليم القرآن وأفكار من الفلسفات الشرقية الهندية والصينية ومن الفلسفة اليونانية، تغير حالها وهي تعرض أفكارًا تفصيلية عن هذا الدين:
ديننا ياأنزار يعتمد على سبع وصايا هي:
1. صدق اللسان.

2. حفظ الإخوان.
3. ترك عبادة العدَم والبهتان.
4. البراءة من الأبالسة والطغيان.
5. التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان.
6. الرضى بفعل مولانا كيف ما كان.
7. التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان.

أعجبني حديثها وثقافتها الواسعة، ولكنني كنت بين الحين والآخر أشعر برجلي تتنملان جراء إحساسي بأني سأنام الليلة فوق جثث مصطفة في براد كبير. كان جسدي يبرد ويسخن، والمرأة لا تتوقف عن الحديث في تفاصيل عقيدة التوحيد، وأنا أتمناها ألا تتوقف، أعجبتني أفكارها عن صيام الدروز وهو مفهوم روحي، حيث الصوم هو عدم ارتكاب أعمال الشر لا الصوم عن الأكل، والصلاة هي خلوة، وأن لا حج إلى الكعبة..

كنت خائفًا من أن تتركني وتذهب، هذا السطح مخيف، وهذا الصمت من حولي يشبه صمت المقبرة التي كنا نهرب إليها كي ندخن سيجارة خفية عن الوالد.

انسحبت شاهي من غرفتي فور وصول صديقة لها. تعانقتا، قبلت الواحدة الأخرى على الفم، ثم تسللتا إلى داخل الغرفة المجاورة التي كانت تقابل غرفتي.

تمددت على السرير، شعرت بتعب عميق، وبأشياء غريبة تدور في رأسي، ولأول مرة بإحساس شوق طفولي لأمي، شعرت وكأنني لم أرتو من أمي بالقدر الذي يجعلني قادرًا أن أقاوم هذا الفراغ من حولي. شربت نصف علبة الحليب باردًا، قرأت الفاتحة، وتمنيت لو عادت شاهي لتمنحني سيجارة من تبغها الخاص، ولتحدثني عن زعيمهم الديني الذي اختفى منذ قرون ولا يزال انتظار عودته قائمًا.. هرب النوم عن عيني.

الليل في آخره، وحديث شاهي مع صديقتها متبوعًا بضحكات عالية يصلني من غرفتهما. تمنيت لو أني كنت رفقتهما حتى أخفف عني رصاص هذه الوحدة وهذه الأفكار السوداء.

لست أدري كيف استسلمت للنوم ممددًا على السرير وحذائي في قدمي.

قمت باكرًا، غسلت وجهي بماء بارد، حضرت قهوة سوداء، شربت فنجانين على عجل، نظرت من هذا السطح. لا يظهر من المدينة سوى بعض العمارات العتيقة الهرمة، عمارات يسكنها العمال المهاجرون، نـزلت السلالم حتى الطابق الأرضي، أنا لا أحب ركوب المصعد، بـي حالة تشبه الفوبيا.

كما في الأيام المسابقة لا شيء يوحي بالجديد في المؤسسة، وجوه بعض الإداريين، وساحة ومدخل وأشكال الموت. حين دخلت الجناح ارتجفت ركبتاي، فكرت في مغادرتي المكان والتخلي عن هذا العمل، لكن دخول شاهي يسبقها ضحكها الهستيري أنساني نفسي، قبلتني على وجهي مرتين، وقالت لي: أنت متعب تعب الميت، ألم تنم الليلة؟

وتذكرت بأنني أسكن اسم ابن عمي الميت، أنني أحيا في ميت!

كانت في قمة نشاطها، أخبرتني أن العرب انهزموا في الحرب مع إسرائيل، توقفت سيارة الحماية المدنية في الساحة. كالعادة، أدخلوا الجثة إلى الغرفة التي بدت لي هذا اليوم رطبة كالقبر، تساءلت: من الميت؟ أنا أم هؤلاء الذين يمرون أمامي؟

جاءت شاهي، حاملة قنينة في يدها، قالت لي: اشرب قليلاً سيخف توترك.

شربت دون أن أسأل عن المشروب، بالفعل حين أفرغت في بطني الكأس الثانية شعرت براحة، وما عدت أرى الجثث على تلك الصورة التي كنت أراها عليها، مخيفة وموحشة وباردة، لقد تصالحت معها أو كدت.
وبدأت تشغلني ديانة التوحيد لدى الدروز!
مع مرور الأيام أنقذني المشروب من برودة وصمت عشرات الجثث التي كنت أغسلها وأكفنها، وأكتب على الأكياس التي أضعها فيها عبارة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، و"الله أكبر".
كان أفراد عائلة الميت كلما جاءوا لاستلام جثة قريب لهم، أغدقوا عليّ ببعض الهدايا، كالألبسة والأوراق النقدية وأشياء أخرى.
لم أكن أتصور أن من وراء عمل كهذا كسبًا كثيرًا.
ما من دابة إلا وعلى الله رزقها.
أصبحت أشتري أفخم أنواع الويسكي وأقواها، والأنبذة والحشيش والأقراص المهلوسة، بهذه الأمور كنت أقاوم وحدة السطح والبعد عن الأهل، وبرودة الجثث التي كان بعضها يجيئني تارة بدون رأس، وتارة بدون عينين، وأخرى بدون عضو جنسي، وأخرى بدون ساق أو بدون يد.. جثث طحن جزء منها بسيارة أو جز رأسها خنجر أو تهشمت من سقوط عال.. مناظر بشعة وكان عليّ أن أقاوم هذه البشاعة التي أراها أمامي يوميًّا.
كنت أقاوم فداحة ما أرى بالفاتحة وآية الكرسي تارة، وبالحشيش والويسكي تارة أخرى، وأطلب من الله المغفرة.
هذه الليلة بعد أن شربت قنينة كاملة وبلعت بعض الأقراص، استيقظت في شهية إلى شاهي، كعادتها كانت مع صديقتها التي تجيئها ثلاث مرات في الأسبوع، كانت دقيقة المواعيد، تفطنت إلى أنها كانت تدق باب شاهي عند الساعة السابعة وأربعين دقيقة، من مكاني ممددًا على السرير كنت أتابع نقاشهما وصخبهما وغناءهما الذي يصلني واضحًا من الغرفة المقابلة؛ فشاهي لا تتوقف عن الغناء أبدًا، تغني وهي تغسل الجثث، تغني وهي في المرحاض، تغني وهي في الحمام، تغني وهي تصعد سلالم العمارة، تغني وهي في سريرها، وحتى وهي في أحلامها أو في كوابيسها.
كان الجو ساخنًا قليلاً، لا أعرف في أي شهر نحن، جاءتني الشهية، نظرت إلى العمارات التي تقابلني، وتمنيت أن أرمي بنفسي من هذا العلو لأطير عاليًا حتى قريتي "باب القمر" هناك. فجأة سكنني حنين إلى أبـي، الذي تركته طريح الفراش لا يشرب سوى القهوة، ولا ينظر سوى إلى الشمس يتبعها منذ طلوعها حتى غروبها، يغير مكانه بسحب هيدورة الخروف التي يجلس عليها، من مكان إلى آخر حتى لا تغيب عنه الشمس.
ومع إن أمي كانت فرحة لخروجي من البلاد، كان والدي حزينًا مطفأ، صامتًا لا يتكلم، عانقني وبكى مثل طفل. لم أكن أعرف قبل ذلك اليوم بأن الآباء يبكون!
لست أدري كيف تجرأت ودققت باب غرفة جارتي شاهي، لأول مرة أدقه، وقد مضى على وجودي في هذه الغرفة وعلى هذا السطح قرابة الستة أشهر أو أكثر، ما عدت أعرف العد، وحده عدد الجثث أحفظه جيدًا، فمنذ اليوم الأول وضعت لذلك سجلاً كبيرًا، أكتب عليه الاسم والبلد والتشويهات التي على الجسد إذا ما كانت عليه تشوهات، والساعة التي أدخله فيها الكيس البلاستيكي وأغلقه بالسحاب الخشن. قد أخطئ في كل شيء إلا في عدد جثثي، فذلك من سابع المستحيلات، وتلك وصية مولاي الشريف عاشق عيشوش.

انتظرت بعض الوقت، دقائق، لم تفتح لي شاهي الباب، ناديتها ولا من مجيب، وبحركة عفوية دفعته فانفتح، يبدو أنه كان مردودًا دون قفل. كانت عارية في سريرها تحتضن صديقتها التي مثلها كانت عارية أيضًا!
كانتا في قمة شهوتيهما، تصرخان كالذئبتين الجائعتين، تصعد من عينيهما نار الشبق. وقفت إزاء الباب وأخذت أتأمل المنظر وموجات النمل تصعد ركبتيّ الباردتين، ثم رجعت إلى غرفتي ككلب مقهور ألمُّ ذيلي بين فخذي.
حين دخلت سريري، كانت الشراشف باردة، أحسست وكأنني في كفن أو في كيس بلاستيكي كذلك الذي أضع فيه الجثث، سحبتُ السحاب عليّ، شددت الإزار حولي جيدًا، أحسست بأنني في قبر أنـزار ابن عمي الذي أسكن اسمه وأعيش بوثائقه في هذه الحياة، تمنيت لو أني ارتميت عليهما وولجتهما الاثنتين معًا. شعرت بنذالتي وفكرت في العودة إليهما لكنني ترددت، تسللت من الإزار كما تخرج الجثة من كيسها، قمت وأخذت قدحًا كبيرًا من الويسكي وقرصين مهلوسين من نوع (Ecstasy). كان صوتهما لا يزالان يسمعان وكأنهما عواء لذة ذئبية.
هذا الصباح وأنا أنـزل درجات السلم انتابني إحساس غريب، شعرت من جراء ذلك بجسمي ككرة قطن في الهواء، دخلت الجناح، وجدت زوجًا ينتظرني، رجل وامرأة كانا ينتظران استلام جثة قريب لهما، بعد إجراء بسيط والتدقيق في بعض الوثائق والتأكد من حجز الطائرة، سلمت لهما الجثة. كانت المرأة تبكي، وتقبل الجثة وهي داخل التابوت، لكن وهما يبتعدان شعرت وكأنني سلمت لهما جثة أخرى بديلة عن جثة قريبهما، وحين ابتعدا، شعرت بحزن كبير، ولكني قلت في نفسي، الإنسان يمكنه أن يقيم العزاء في نفسه حتى ولو أمام جثة ليست جثة الإنسان الذي في قلبه، لا بد من جثمان للعزاء.
لا بد من جثمان للعزاء.
جاءتني شاهي، فتبدى لي ثانية منظرها العاري وهي بين أحضان صديقتها التي تزورها ثلاث مرات في الأسبوع، والتي تدق بابها في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وقبلتني على خدي قبلتين، ثم قالت لي بخبث قاتل: إنها عشيقتي، كان عليك أن تتناول قدحًا حتى ننتهي من متعنا، متع الدنيا ياسيد أنـزار قصيرة ولذيذة فلا تفريط فيها، هي الجثامين التي تمر أمامنا تعلمنا كل يوم ضرورة خطف المتعة من فم الذئب، والذئب هو الزمن، هو العمر الذي لا ينتظر، ما كان عليك أن تذهب، كان يمكنك أن تدخل معنا في السرير، أن تشاركنا، لقد انـزعجت عشيقتي لخروجك كما لو أننا طردناك أو أن جسدينا لم يروقا لك.
كانت شاهي تتحدث بسرعة وثقة، وقد ذكرتني بكلام ذلك الفقيه الذي حفظني بعض أحزاب كتاب الله.. إنها حكيمة.
لبست القفازين وسكتُّ.

17

بـي رغبة جامحة إلى جسد شاهيناز، وشاهي بها نار إلى جسد صديقتها. أحب النساء اللواتي أكبر مني سنًّا، سكنتني هذه الرغبة من صباحات منظفة مبيتنا في الثانوية والتي كانت بعمر أمي، وكنت أفعل معها ما كانت تحب أن أفعله، وكنت أحب أنا الآخر أن أفعل معها ذلك الذي كنا نفعله، إذ أنتظرها في سريري بحجة أن بـي مغصًا ونعوي كالذئبين بوحشية عالية. وحتى اليوم، كلما شعرت بمغص في بطني أتذكر منظفة المبيت وأشعر على الفور برغبة جنسية تصعدني، هي التي جعلتني أحب مربى المشمش أكثر من العسل. شاهي هي الأخرى تكبرني بدزينة من السنين، لذا فشهيتي إلى جسدها عارمة، حزنت كثيرًا حين أدركت أنها تفضل فعل ذلك الشيء مع امرأة أخرى، مرات فكرت في أن أقتل صديقتها وأستولي على شاهي، كنت أعتقد بأن ما يحكى في كتب التراث عن ممارسة الجنس بين امرأتين هو كلام فارغ، ولا يعدو أن يكون لعب قيلولة، فالمرأة خلقت لتكون حرثًا للرجل، لست أدري لماذا وأنا أفكر في شاهي هذه الليلة وهي تزأر في الغرفة المجاورة بين يدي صديقتها، تذكرت حكاية امرأة لوط التي كان فقيه المصلى وهو يدرسني بعض أحزاب كتاب الله، يتهرب من رواية تفاصيل الحكاية، كان مختصرًا غير دقيق كما هي عادته في شرح قصص القرآن الكريم الأخرى، في الوقت الذي كنت أتمنى تفصيلاً يختصر، في اللحظة التي كنت أنتظر شرحًا يُغْمِض، مع حكاية امرأة لوط كان الفقيه عموميًّا، كلامه يدور حول شيء لا يصيبه فيُشكِل عليّ الأمر. وكما كان غامضًا في حديثه عن نساء لوط كان أيضًا غير واضح في الحديث عن رجال لوط، كنت أقول إن الرجل خلق للمرأة والمرأة خلقت للرجل، أما الحديث عن نوم الرجال مع الرجال فهذا خرف، مع أنني كنت ألاحظ الفقيه ميالاً إلى الأطفال. كنت أراقبه إذ كان يصر على إجلاس الأطفال في حجره؛ ليدربهم على كتابة الحروف الهجائية بالسمق على اللوح، أو ليقرئوا خلفه واحدًا واحدًا بعض آيات من الذكر الحكيم، وبمجرد أن يبدأ الطفل تحريك مؤخرته الصغيرة وهو جالس في حجر الفقيه، انسجامًا مع حركة رأسه نحو الأمام ونحو الخلف وهو يقرأ آيات كتاب الله، كانت رنة صوت الفقيه تتبدل، ويكثر لهاثه ويسيل لعابه وهو يهز الطفل أكثر وأكثر في حجره طالبًا منه أن يقرأ بصوت عال..

لماذا ياترى أفكر في كل هذا الأمر وأنا أدخل غرفة تغسيل الجثث؟ كان عليّ أن أغسّل أربع جثث جيء بها ليلة البارحة دفعة واحدة، يظهر أنها جميعًا من عائلة واحدة، ضحايا حادث سير كما تدل على ذلك التشوهات والكسور الكثيرة، جثة من بين الأربعة كانت معجونة تمامًا.

أنا لا أسأل عن سبب موت الذين أغسلهم، ولا أقرأ الملفات المرافقة، ولا يهمني ذلك، لكني ومع مرور الوقت وتعمق خبرة العين، بدأت أعرف السبب من خلال النظرة الأولى إلى الجثة: موت بالسرطان أو بالسم أو بحادث طريق أو اعتداء إجرامي أو انتحار أو شيخوخة... كل جثة تنطق بموتها، وكل ميت له قصته.

قصص الموت كقصص الحب، لكل واحدة عطرها وألمها ونهايتها.

أتذكر ميمون ديك جدتي المحرر، وأذكر يوم موته، كانت جدتي حزينة، غسلته وكفنته كما يكفن صبـي صغير، ثم دفنته تحت شجرة التين قدام قبر جدي، وفي المساء أحضرت قارئ القرآن، قرأ

عليه كثيرًا ومنحته فلوسًا كثيرة. وفي اليوم التالي اختفت جدتي، خرجت ولم تعد، لم تستطع تحمل فراقه.
حين تخيفني جثة ما أو يزعجني منظرها المشوه، أنادي على شاهي، تجيء تجلس بجواري، تأخذني في حضنها، أشم فيها رائحة صديقتها أو عشيقتها، تسمح لي باللعب بفخذيها وبردفيها العريضين، كنت أقوم بذلك وهي تشرب الويسكي شرابها المفضل أو تدخن سيجارة حشيش، حضورها الغائب كان يساعدني على التخلص من خوفي ومن قلقي.
في جامعة السوربون التي سجلت فيها بقسم علم الاجتماع، وجهني أحد الأساتذة، إذ عرف بمهنتي وهي "غسال الموتى المسلمين" إلى زميل له لمتابعة مذكرة التخرج، بروفيسور متخصص في "سوسيولوجيا الموت"، لكني حين سألت عن الأستاذ قيل لي بأنه مسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يقضي ثلاثة أشهر من السنة الجامعية هناك كأستاذ زائر يدرس مادة "سوسيولوجيا الموت" في أكبر جامعاتها. انتظرته حتى عاد، وطلبت مقابلته. بعد أسبوع من الانتظار، كان لي ما أردت. حين قابلته، كان الأستاذ يلبس قميصًا ورديًّا وربطة عنق زهرية ويربط شعره بمطاط وقد تدلى في شكل سالف طويل على ظهره. كان شبيهًا بالفنانين أو نجوم السينما، حين رأيته قلت في نفسي: كيف يكون رجل بكل هذه الأناقة متخصصًا في الموت؟ أليس الموت عدو الحياة؟!
قبل أن أباشره بالحديث، كان بروفيسور الموت جالسًا خلف مكتبه وهو يرد على مكالمة هاتفية، يتكلم ويلعب بالخيط الأسود لجهاز هاتف تقليدي، تذكرتُ والدي الذي كان يقول لي ويكرر: عليك أن تكون ذات يوم طبيبًا كبيرًا ومشهورًا؛ فالبلد يحتاج إلى من يعيد الحياة إلى مرضاه الكثر، تحتاج إلى من يحارب الموت الذي يحصد الصغار والكبار في شكل أوبئة تقضي كل موسم على أسر كاملة، بل على قرى بأكملها.
حين بدأت أفكر في وصية أبـي، أردت أن أنسحب من مكتب البروفيسور الذي طالت مكالمته، أن أتراجع عن دراسة الموت؛ فالموت لا يُدرس. الموت يُثير الرعب، صوت والدي يُصفر بقوة في أذني كصافرة الإنذار، يدعوني إلى الابتعاد عن الموت والذهاب إلى الحياة، وهو الذي ظل طوال حياته يحب أمي ويغازلها أمامنا، وظلت أمي تغار عليه حتى وقد جاوز الثمانين، وظل عاشقًا للأحصنة التي لم يخل بيتنا منها طوال حياتي في ذلك البيت الكبير. حين هممت بمغادرة المكتب، قفل البروفيسور الهاتف وحيّاني بابتسامة وضحكة قائلاً: أنت طالب تريد أن تكتب مذكرة تخرج في موضوع الموت، أليس كذلك؟ قال ذلك وهو يقلب رزمة من رسائل بريدية على مكتبه. أردت أن أقول له: لا، لكني قلت العكس، قلت: نعم. بهذه الـ"نعم" التي تلفظت بها دون تأمل ولا تمعن، شعرت بأنني أخون أبـي.. دخلت في باب الخيانة الكبرى.
بعد أن أخبرته بطبيعة عملي الذي هو مصدر قوتي اليومي، أي غسّال الموتى المسلمين، قال لي البروفيسور السوربوني الأنيق: هذا عمل مدهش، يساعدك على تحرير رسالة نموذجية، أنت لن تكتب مذكرتك من فراغ، أنت تتحدث عن الموت من داخل الموتى، شيء جميل... قلت بيني وبين نفسي: آه! لو يعلم بأنني أعيش منذ أول يوم في المدرسة في جلد ميت، فأنا موجود في الحياة بسبب ميت... أخرج سيغارًا كبيرًا كالخشبة، بهدوء وضعه بين أسنانه، عض عليه ثم أشعله كما يشعل الحطب، ظل صامتًا قليلاً وهو يقلب رزمة رسائل بين يديه متأملاً بعض الطوابع البريدية على

الأظرفة المختلفة الألوان والأحجام، ثم واصل الحديث: أنت قادم من بلد جاك دريدا وألتوسير وجمال الدين بنالشيخ وبنجامين ستورا وشوراكي...
شعرت بنوع من الافتخار أن تذكر بلادي مقرونة بمثل هذه الأسماء الكبيرة من عالم الفلسفة والشعر والتاريخ.
قال لي البروفيسور وهو يثني على جودة ترجمة جمال الدين بنالشيخ لفصول من مقدمة ابن خلدون وكتاب ألف ليلة وليلة: قوتكم أنتم تكمن في أنكم لا تقيمون مسافة ما بين الموت والحياة، ما بين دم الضحية ودم العذرية، ما بين الإمتاع والحرب. تفرحون لشيئين: ولادة فارس وولادة شاعر. لا مسافة لديكم ما بين الموت والحياة، الأمران مختلطان ومتقاطعان، كما هي الآخرة والدنيا متقاطعتان لديكم، الواحدة تحيل على الأخرى مباشرة، وبينهما برزخ.
حتى آخر لحظة كنت أرغب في تسجيل موضوع مذكرتي حول "إشكالية الصحة في الوسط الفلاحي الجزائري"؛ حتى أكون قريبًا من حلم أبـي عاشق الخيل والأسفار، لكن البروفيسور لم يترك لي مجالاً ولا الفرصة لعرض ما أريد البحث فيه، بل قال لي: لماذا لا تتخصص في "سوسيولوجيا الموت"؟
لأول مرة أسمع بهذا المصطلح الغريب والمزعج: "سوسيولوجيا الموت" «la sociologie de la mort» رددت المصطلح مرات في فمي فما استسغته، دار في دواليب رأسي، أثار فيّ فضولاً، كدت أنفجر ضحكًا. كنت أعتقد أن هناك سوسيولوجيا المدينة والريف وسوسيولوجيا المثقفين والثقافة و... لم يخطر ببالي أن للموت سوسيولوجياه!! فجأة اغتالت صور الموتى الذين يمرون أمامي يوميًّا في المغسلة مشوهين وبمناظر مقززة الضحكة من على فمي. سكت.. بردت! فكرت في صورة شاهي وهي تعوي في أحضان عشيقتها.
أبدى البروفيسور السوربوني الأنيق جدًّا اهتمامًا كبيرًا بـي، وهو الذي له في مساره وسيرته العلمية عدةُ كتب، يفوق عددها العشرين مجلدًا، والتي توجت بعدة جوائز وتكريمات وترجمات في لغات العالم الكثيرة، استطعت أن أميز عناوين بعضها والتي كانت مصطفة على رفوف خزانة زجاجية خلف مكتبه المتواضع. قرأت بعض هذه العناوين المعقدة لم أفهم منها الكثير، لم أفهم شيئًا. كان هذا الأكاديمي فرحًا وهو يأخذ بيدي، أنا التائه، ليوجهني في اتجاه الموت، بل إنه اقترح علي وبحماس كبير أن أقوم بدراسة ميدانية عن الأموات الذين أغسلهم يوميًّا، من خلال ذلك أفسر بنيويًّا وسوسيولوجيا جملة من أسرار الموت. كان يتحدث وهو ينظر إلى سقف الغرفة تارة، وإلى عيني تارة أخرى قائلاً: البحث في شكل آخر بسمة انطفأت على فم ميت، هذا مهم جدًّا، شكل الأصابع وهي تطلق الحياة وتقبض على الموت، هذا مهم جدًّا جدًّا جدًّا، شكل العضو الجنسي لماذا يتقلص ويفقد شكله وحجمه، هذا مهم وإشكالي، وشكل الخصيتين اللتين تفقدان وزنيهما تمامًا، هذا غريب ومثير ومهم، نعم مهم جدًّا، والشعر وعن رائحة الميت.. عالم غامض يدعونا لفهمه والتساؤل عنه ومقاربته مقارنة سوسيو- بنيوية..
كنت أتتبع حديث البروفيسور بدهشة، وكان بين دقيقة وأخرى يستقبل مكالمة هاتفية يرد على بعضها بالفرنسية وأخرى بالإنجليزية وأخرى بالإسبانية والألمانية والإيطالية.. كان ينتقل من لغة إلى أخرى دون عقدة أو تردد أو تلكّؤ.
بإشارة من يده دعاني أن أجلس على كرسي قبالته، وبإشارة أخرى إلى سكرتيرته وحتى دون أن يستشيرني طلب لي فنجان قهوة معصورة.

بين مكالمة هاتفية وأخرى، استطعت أن أفهم منه أن علينا أن نلتقي خارج المكتب؛ حتى يتسنى له شرح خطة العمل التي يقترحها عليّ في كتابة مذكرة التخرج، خاصة وأنه ممن يحب الجزائر ويحب ابن الجزائر الكبير جاك دريدا. لم أكن أعرف بأن الفيلسوف جاك دريدا من مواليد الجزائر العاصمة، وأنه لم يغادرها إلا وهو في سن المراهقة. شعرت من خطابه أنه مصر على مساعدتي في بحثي، ثم دعاني لأزوره في بيته. ودون أن يطلب رأيي، سلمني رقم هاتف منـزله وكذا عنوانه، قائلاً: سأنتظرك نهاية الأسبوع، على العشاء، ولكن عليك أن تصل قبل ساعة العشاء حتى يتسنى لنا الحديث في مشروع المذكرة جيدًا.

وافقت على زيارته، أخذت الورقة المكتوبة بخط يده، عليها عنوان إقامته ورقم الهاتف، وانسحبت من مكتبه وهو لا يزال يتكلم في الهاتف بالألمانية.

عدت إلى غرفتي على السطح، كنت أتمنى لو أنني أجد شاهي لوحدها كي أنام في حضنها قليلاً، وأسمع عن دين الدروز وعن نبيهم ومصحفهم قليلاً.

18

للمرة الألف أفكر في زيارة أخي الذي تبعته حتى هذا البلد الذي يحاصرني بالجثث وسجائر الحشيش وشاهي السحاقية والويسكي، لكني وللمرة الألف أيضًا كلما فكرت في الذهاب إليه في المدينة التي يقيم فيها بالشمال البارد الماطر الغائم، ترددت؛ فأنا لست بقادر على أن أفاتحه عن طبيعة عملي كغسال للموتى المسلمين في باريس، ولم أفهم أيضًا لماذا لم يقدم أخي مازار من جهته على زيارتي وقد مضى على وجودي أزيد من سنة.
منذ وصولي إلى هذه المدينة، أهاتفه كل نهاية أسبوع من خلال الهاتف العمومي الموجود بالمخدع عند مدخل المؤسسة على رصيف الشارع غير بعيد عن موقف الحافلة. وهو أيضًا لا يتردد في كتابة رسائل إلي، ومرات يرسل لي نسخًا عن تلك التي يبعثها للأهل أو تلك التي تصله منهم.
الشهور تمر، وشوقي إلى أخي مازار يزداد أكثر فأكثر، كلما حاصرتني الجثث ومناظرها المرعبة فكرت فيه، هو توأمي، وبمجرد استعادة ملامح وجهه أتذكر صباح ذلك اليوم الذي ساقني فيه إلى مدير المدرسة الابتدائية لتسجيلي باستعمال شهادة ميلاد ابن عمي الميت، والذي له نفس الاسم ويكبرني بسنتين.
لماذا في كل مرة أفكر في أخي تهجم علي صورة منظفة مبيتنا في الثانوية، والتي تشبه مونيكا أم القديس أوغسطين؟
اليوم يوم جمعة، علي أن أهاتف البروفيسور السوربوني الذي يشبه الممثلين السينمائيين، وأعتذر له عن عدم إمكانيتي زيارته يوم غد السبت، ليست لدي رغبة في حديث عن الموت في عطلة نهاية الأسبوع، عليّ إذن أن أختلق أي كذبة حتى أتخلص من هذا الموعد مع "علوم الموت"، كالإصابة بنـزلة برد أو زيارة غير منتظرة من قادم من البلد أو... خرجت إلى الشارع لأهاتفه من مخدع الهاتف العمومي، وحين وضعت القطعة النقدية وركّبت الرقم، لم أجد في رأسي أي كذبة، كل الكذب هرب دفعة واحدة، رن الهاتف مرة واحدة ثم جاء الرد على صوت امرأة، صوت هادئ وجميل، قلت لها: أتمنى أن لا أكون مخطئًا في الرقم، أرغب في مكالمة البروفيسور، وقدمت لها نفسي. قالت لي وقد أدركتُ على الفور ومن لكنتها بأنها أجنبية، من الشرق أو من الجنوب: لا تقطع، أنا زوجته. لم يترك لي مجال المناورة قائلاً: إننا بانتظارك (مستعملا صيغة الجمع)! شعرت بلساني قد يبس ولم أجد قولاً للفكاك من جملته، فأجبت: نعم، غدًا في الساعة السادسة مساء.. نعم، قالها وأقفل الخط.
ليلة الجمعة شربت كثيرًا بمعية شاهي، كنا في غرفتها، في قمة النشوة اكتشفت بأن لها صوتًا متميزًا في أداء غناء فلكلوري على إيقاع درزي حزين تارة ومثير تارة أخرى. حاولت طوال السهرة أن أحرك نارًا في جسدها نصف العاري، لكنني وجدته كتلة لحم بارد، كانت تأخذني بين ذراعيها وتقبلني دون حرارة، أتعرى في سريرها فتلاعب جسدي كما تلاعب أجساد جثث النساء المسلمات وهي تقوم بغسلهن.
تمنيت لو أنها واصلت الحديث عن نبيهم الدرزي المنتظر، تعجبني حكايات الأنبياء المطرودين من بلدانهم والمطاردين من قبل أقوامهم، لكني نمت على سريرها وفي فراشها، غطتني، حين استيقظت في الصباح، وجدتها نائمة إلى جواري عارية تمامًا وباردة تمامًا، قبلتني على فمي ثم

قامت لتقف بجسدها تحت مرشة الحمام، كنت أشاهدها تحت الماء في رغوة صابون عطره الليموني يصل حتى أنفي، وبخار لذيذ يتصاعد فيغطي المرآة الكبيرة شيئًا فشيئًا فيختفي جسدها في البخار.
اليوم يوم سبت، أشعر بكسل أسبوعي، أبقى في السرير حتى العاشرة أو يزيد، أفكر تارة في أخي مازار وتارة أخرى في أختي هاجر، وأستعيد إيقاع صوت عمتي فاطنة في أسطوانتها من فئة 33 دورة.
شربت القهوة من يد شاهي، قهوة درزية بالهيل، عادة تحضير القهوة الدرزية كل يوم سبت هي صلاة وذكرى لأمها، شربت فنجانًا ثم ثانيًا دون أن أغادر السرير، سحبت خلفها باب الغرفة وخرجت دون أن تخبرني أين ذهبت، ولم يكن يهمني ذلك.
بعد خروجها ظللت بعض الدقائق في السرير ثم انسحبت منه، لملمت ملابسي التي التقطتها من تحت السرير ومن فوق المكتب والكرسي الوحيد في الغرفة، سترت نصفي بفوطة حمام ثم تسللت إلى غرفتي التي تقابل غرفتها على هذا السطح الذي يطل على جزء من باريس المُطفأة.
لم يجد الله أي مكان آخر ليرميني فيه، ونحن الذين نكرر صباح مساء أرض الله واسعة، سوى هذا السطح الغامض، وفي هذه الغرفة الغريبة وأمام غرفة شاهي الباردة، الثلجية، السحاقية الرقيقة! لماذا ياربي هذا العذاب؟ قلت ذلك في نفسي وأنا أعود إلى غرفتي التي لم أعد أطيق البقاء فيها أكثر من عشر دقائق، كلما دخلتها واجهتني صورة أخي أو صور الجثث المشوهة، فلا أقاوم ذلك إلا بالشراب ولف سيجارة حشيش وراء أخرى، شاهي هي التي كانت تمولني بهذا التبغ العجيب دون أن أسألها ولو مرة واحدة من أين تجيء به.
رميت بجسدي تحت المرشة، كان الماء الدافئ وهو ينـزل على رأسي يحدث موسيقى غريبة، لأول مرة أسمع صوت مونيكا الأخرى، أقصد شفية، صديقة الثانوية التي طردني والدها بمجرد أني سألت عن مصالي الحاج، وهي تقرأ لي شعرًا وتعزف لي بعض المقاطع من الموسيقى الأندلسية، التي كنت أصفها بالموسيقى البورجوازية.
يا ترى أين هي شفية التي كنت أناديها مونيكا فتضحك مني، وتضحك لهذا الاسم الذي اخترته لها، وبغنج أنثوي تخفي عني الاعوجاج الخفيف في فمها حين تبتسم وحين تضحك وحين تغني، أو وهي تقرأ شعر ابن هانئ الأندلسي أو ابن قزمان.
كنت أحب فيها ما تحاول أن تستره فيها، زمة الفم المائلة نحو اليمين قليلاً، كنت أشتهي رؤية ميلان فمها بشفتين ممتلئتين وهي تتكلم أو تقرأ أو تغني، كأنما في ذلك تهرب من قبلة أو تبحث عن قبلة.
تنازلت عني والتزمت رأي والدها. خائنة شفية أو مونيكا الصغيرة، موقفها هو الذي جعلني أعشق النساء الأكبر مني سنًّا.
كلما فكرت في خيانة مونيكا فكرت في وفاء سيدة التنظيف وعطر الجافيل يصعد شهيًّا من جسدها.
حين انتبهت، كانت الساعة قد شارفت على الرابعة مساء، وموعدي مع البروفيسور في الساعة السادسة، إذن علي أن أستعد للخروج. لبست الأسود قميصًا وسروالاً وجاكيته، لبست ذلك لأن منظفة مبيت التلاميذ كانت تحب وتفضل الأسود على الألوان الأخرى، أنا شخصيًّا لم أعشق يومًا ما اللون الأسود، كنت أرى فيه البؤس والتشاؤم والحزن، حتى إنني كنت أسمع والدي يقول: إذا ما

خرج الإنسان صباحًا من بيته وصادف في طريقه قطّا أسود اللون، أو طائرًا أسود أو بشرًا أسود، فما عليه سوى أن يعود أدراجه، فهذا اليوم يوم نحس عليه.
مع ذلك لبست الأسود تحية لمونيكا منظفة مبيتنا في الثانوية، ثم تذكرت صوت المرأة في الهاتف، ترددت قليلاً، ثم لست أدري لماذا غيرت ملابسي، ولبست قميصًا أزرق وجاكيته بنية، وخرجت مسرعًا حتى لا أعيد النظر في ملابسي.
نـزلت السلالم حتى الطابق الثالث، انتظرت المصعد، كنت أتوقع أن تخرج منه شاهي فتغير رأيي، فأتراجع عن الذهاب. لكن لم يكن هناك أحد بالمصعد سوى رائحة الأدوية الفاسدة ممزوجة بعطر شاهي، عطر قوي وحامض قليلاً مخلوط بعرق عشيقتها.
خرجت بسرعة إلى الشارع، كنت أريد أن أتخلص من هذه البناية ومن أشباحها، شعرت برئتي تأخذان دفعة واحدة كمية كبيرة من الهواء، سرت راجلاً مسافة ثلاث محطات ميترو، شعرت بالسعادة وأنا أمشي، ثم انتبهت إلى أن وقت الموعد قد حان، فعلي أن أدخل نفق الميترو. كالجرذ تسللت، سار القطار بـي بعض محطات لم أعدها، ثم بدلت قطارًا آخر، وصلت المحطة المقصودة في أقل من أربعين دقيقة، كالجرذ خرجت من النفق، وجدت الحياة هادئة في هذا الحي شبه الراقي، في مقاطعة باريس 16، بحثت عن اسم الشارع، عثرت عليه دون كبير عناء، ثم سرت فيه وأنا أتابع الأرقام وأراقبها على مداخل البنايات، وصلت إلى رقم 142، نظرت إلى البناية تأكدت من أنها هي حيث يسكن البروفيسور، نظرت إلى ساعتي وجدتني متقدمًا على وقت الموعد بعشرين دقيقة، مشيت حتى رأس الشارع، ثم عدت حتى المحطة، تفحصت البناية جيدًا، عمارة من ثلاثة طوابق، تفتح على حديقة عمومية، بابها الخارجي من زجاج، عليه جهاز بصفيحة أرقام وحروف، تذكرت أن البروفيسور كتب لي على ظهر الورقة الكلمة السرية لفتح الباب، أخرجت الورقة تأكدت من أنها موجودة، ثم تذكرت صوت المرأة التي جاوبتني في الهاتف، ربما هو الصوت الذي جاء بـي إلى هذا البروفيسور! ربما أيضًا لأن رنته تشبه رنة صوت منظفة مبيت التلاميذ صاحبة عطر ماء جافيل المدهش!
أخرجت الورقة وركَّبْتُ الكود، انفتح الباب، وجدت نفسي في رواق شبه مظلم، بحثت عن زر إنارة، فلم أعثر عليه، تقدمت خطوتين في الظلام، فجأة انفتح باب المصعد وخرجت منه امرأة استغربتْ وجودي في الظلام، شعرت بنفسي كالسارق، مدت يدها إلى زر فأنير المكان، نظرتْ إلي، كاللص تحاشيت النظر إليها، ثم دخلت المصعد، وبسرعة ضغطت على الرقم ثلاثة، سد باب المصعد وسد باب العمارة في الوقت نفسه.
وجدت البروفيسور عند عتبة الباب في انتظاري وهو يراقب عقربـي ساعته تحت ضوء مصباح السلم الخافت، استقبلني مواصلاً حديث الجامعة الذي كان قد بدأه الأسبوع الماضي، قائلاً: أنت ابن ثورة تحرير مات فيها المليون ونصف المليون من البشر، فأنت ابن الموت، ابن الدم، أنت من كيانك وتركيبتك السيكولوجية جزء من موضوعك، سوسيولوجيا الموت. وتذكرت زوج عمتي وعمي الشهيدين. كان يتحدث ونحن لم نتخذ لنا بعد مكانًا في صالون مصنوع من جلد عتيق، بدت عليه بعض علامات الاهتراء والعتاقة.
جاء صوت السيدة من غرفة مقابلة للصالون حيث نقف، قائلة: ادعه للجلوس أولاً.
أدركت أنه صوت السيدة التي ردت علي في الهاتف. المرأة يفضحها صوتها وعطرها وحبها وخيانتها.

كان البروفيسور يتكلم عن الثورة الجزائرية وعن بيان 121 الذي وقعه كثير من المثقفين الفرنسيين الذين ساندوها، ثم دخل في تفصيلات عن الفرق بين مواقف سارتر ومواقف كامو. سكت قليلاً، فتعجبت لصمته، وكأنما هو آلة تشتغل بالكهرباء فوقع عنها انقطاع في التيار، رفعت نظري إليه، كان ينظر جهة مكتبته التي تملأ جدران الصالون كله، حيث الكتب في فوضى ودون ترتيب، أو هكذا بدت لي، ثم توجه إلى رف كتب فسل واحدًا منها دون تعب في البحث، كأنما هذه الفوضى هي النظام بعينه في رأسه. استدار وهو يفتح الكتاب قائلاً: هذا فيلسوف كبير ابن الجزائر وقد نسيته بلاده ومثقفوها وجامعيوها، إنه جاك دريدا، نسي أنه قد سبق وأن حدثني عنه في أول لقاء بمكتبه بالجامعة.

لم أكن مطلعًا على كتابات جاك دريدا ولم يصادفني اسمه إلا قليلاً، بل نادرًا. الذي كنت أعرفه هو ابن دريد، وهو لغوي وشاعر ومعجمي عاش في القرن الثالث الهجري بين البصرة وعُمان وبغداد، أذكر أن أبـي كان يملك كتابًا له عنوانه: "كتاب الخيل"، فيما أذكر. وقد حاولت قراءته في خلواتي بمصلى جدي الحاج عبد المؤمن مزيان فلم أستطع لتعقيدات في لغته ومصادره وأسماء الخيل فيه.

قال البروفيسور: إن جاك دريدا من مواليد مدينة الجزائر، وهو من حي الأبيار فيها، ولا يزال يكن لهذا البلد كثيرًا من الحب والنوستالجيا ويتحدث عنها أينما حل وارتحل، بل إن كثيرًا من أفكاره الفلسفية هي نتاج علاقته المركبة مع الجزائر أرضًا وتاريخًا ولغة وعشقًا.

دخلت السيدة، وقد سبقها عطرها، وجدتها قصيرة، وبقدر ما بدت لي كذلك زاد البروفيسور في الطول قليلاً إذ وقفت إلى جنبه وهي تحييني طالبة مني الجلوس. كان البروفيسور يتحدث عن أحد كتب جاك دريدا ويفصل بعض مراميها الفلسفية والسيميولوجية مستعملاً مصطلحات كبيرة ومعقدة، أكبر من رأسي بكثير.

سحبت السيدة على حبل فانـزاح ستار كبير من القطيفة المخملية كان يخفي منظرًا لم أكن أتوقعه أبدًا، من خلال الباب الزجاجي الكبير بدت حديقة معلقة من الجهة الأخرى للشقة، نحن في الطابق الثالث. أشكال من النباتات والأزهار والنخيل القزم وبعض الصباريات الصحراوية التي تقاوم الغربة في باريس من على هذا السطح.

لم تكن السيدة تتابع ما كان يقوله زوجها البروفيسور عن جاك دريدا، وكأنما قد سبق لها سماع هذه المحاضرة عشرات المرات، كان يبدو أكبر منها سنًّا بربع قرن على الأقل، حين التفتُّ إليها محاولاً التحرر لبعض الدقائق من رشاش كلام البروفيسور وجدتها تنظر إلى حذائي، لملمت رجلي تحسبًا من أن تكون جواربـي بها رائحة فاسدة، أو لربما أكون قد دست على خرية كلب، فشوارع باريس غارقة في أوساخ كلاب بورجوازييها ومثلييها وعجائزها. ثم تذكرت رائحة عطر ماء جافيل على جسد سيدة تنظيف مبيت التلاميذ وصباحاتنا ومربى المشمش ومغص البطن وصوت العويل، الذي يجيء مكللاً ذلك الشيء الجميل والساخن الذي كنا نفعله في السرير!

حين دعتني السيدة إلى التفرج على الحديقة، بعناية أعاد البروفيسور كتاب جاك دريدا إلى مكانه على الرف، وفتح بابًا صغيرًا يوصل إلى الحديقة المعلقة، أدهشني منظر النباتات وترتيبها؛ فهي على عكس الكتب التي في كامل الفوضى.

تمنيت أن يظل البروفيسور صامتًا كي أستمتع ولو قليلاً بهذا المنظر الطبيعي المدهش، حديقة معلقة في السماء، انتبهت الآن إلى أن السيدة كانت تحمل في ذراعيها قطة، تربت على فروها

بحنان عميق، والقطة تنظر في عيني سيدتها كأنما تقرأ فيهما شيئًا غريبًا، والسيدة بدورها تنظر إليّ وأنا أحاول أن أهرب من شهب نظرتها. لست أدري لماذا كلما رفعت عيني الذئب إليها وجدت فمها يميل إلى الاعوجاج نحو اليمين قليلاً فأسرح بعيدًا، إلى عالم مونيكا التي خدعني أبوها بأن طردني لمجرد أني سألت عن شيخ اسمه مصالي الحاج.
لكنه نطق بعد أن اعتقدت أنني ارتحتُ من درسه ومن مصطلحاته التي لم أفهم منها إلا قليلاً، بدأ يحدثني وفي كل مرة يُشهد السيدة التي في كل مرة يَذْكُرها باسمها: "عزيزتي صافو"، كيف أنه جلب هذا النوع من النبات من مصر، وأنه كان يستعمل في قبور الملوك والأمراء الفراعنة، ثم يخرج كتابًا خاصًّا بتاريخ هذا النبات والملوك الذين كانوا يستخرجون منه عطرًا ودواء. وهذا النوع الثاني الذي جلبه من الصين، وكان أفضل نبات تقدسه أسرة تشينغ وهي آخر السلالة الإمبراطورية التي حكمت الصين من 1644 إلى 1912، وقد زينت بها مقابرها الثرية. وهذا نوع آخر جلبه من الأندلس واسمه زهرel chico Boabdil، أي أبو عبديل الصغير، وأنه كان من مفضليات آخر أمراء الأندلس أبـي عبد الله محمد الثالث عشر، والذي استسلم لفرديناند وإيزابيلا يوم 2 يناير 1492، وسلم لهما مفاتيح غرناطة. كان هذا الورد يستعمل في صناعة أكفان الرجال الذين كانوا يموتون في تلك الحروب، التي خاضها لأعوام طويلة ضد أبيه أبـي الحسن علي بنسعد وضد عمه أبـي عبد الله محمد الزغل. وهذا نوع آخر جلبه من بابل وكان أساسيًّا في تحضير عطر ملوك حضارة الرافدين، وقد قامت حروب بين العرب والفرس والهند بسبب هذا النبات. وهذا نوع آخر جلبه من جبال الجرجرة حيث كان البربر يلفون فيه موتاهم من سلالة الكاهنة، ويروى أن الكاهنة رفضت لف جسد كسيلة فيه، ولم يفهم الناس لماذا، وظل ذلك لغزًا في تاريخ البربر ولم يتحدث عن هذا الأمر المهم جدًّا ابن خلدون في كتابه: "تاريخ العرب والبربر وما جاورهما من ذوي السلطان الأكبر". وقد أثارني سكوت ابن خلدون عن هذا الحدث وهو مؤسس علم العمران الذي برع في دراسة عمارة المدن وعمارة المقابر وعمارة اللغة.
كان بالحديقة المعلقة التي، حسب قول البروفيسور، مساحتها مئة وستة وثمانون متًرا مربعًا، ثلاثمائة وخمسة وستون صنفًا من أصناف النباتات التي جيء بها من كل القارات، عددها بعدد أيام السنة، لم نتمكن من الوقوف على أصناف أخرى فقد عاجلنا الليل بالسقوط فجأة، ولم نعد نرى ولم نعد نميز بين هذه المخلوقات النباتية العجيبة التي لكل واحدة منها قصة مع الموت. وقد فهمت أنه يمنع منعًا باتًّا إضاءة الحديقة بضوء كهربائي؛ فهذا يفسد خاطرها ويثير أعصابها وربما يجعلها تنتحر، وربما تصاب المدينة كلها بلعنة أو على الأقل تسقط كبيرة على رأس البروفيسور.
عدنا إلى الصالون، كانت السيدة صافو جالسة دون أن تتكلم، أو إن زوجها البروفيسور لم يفسح لها نفسًا للكلام، جلستها فيها كثير من الأرستقراطية، في البداية بدت لي كالتلميذة الغبية وهي تستمع إلى زوجها بإعجاب، بدا لي غباؤها أكبر من غبائي بمكيالين، لكني حين دققت النظر إليها شدتني صورة زم الشفتين المائلتين في اعوجاج مثير وجميل نحو اليمين، وكأنما كانت بهذا الاعوجاج الذي فيه منكر واستخفاف تريد أن تبدي استهزاء فاضحًا بما يقوله البروفيسور. لم أرفع عنها نظري، وجدتني لاصقًا فيها، ما عدت أسمع حديث البروفيسور الذي كان قد وصل في حديثه إلى الكلام عن نوع من النبات الوردي، الذي يدخل بشكل أساسي في تحنيط الأموات، وهو الذي استعمل في تحنيط جثة لينين وماو تسي تونغ. فجأة انتبهت وقد شعرت بدوار في رأسي فإذا بالسيدة صافو تختفي من أمامي لتأخذ مكانها سيدة التنظيف في مبيتنا الداخلي بالثانوية، إلهة

الشهوة، كانت جالسة نفس الجلسة التي كانت تجلسها سيدة التنظيف التي بعمر أمي على حافة السرير قبل أن نفعل ذلك الذي كنا نفعله، ونظرتها تشبه نظرة الأخرى، هي شبيهة بنظرة القطة في أيام تفجر رغبتها الجنسية، لكن صافو أصغر سنًّا من سيدة التنظيف، التي علمتني ذلك الشيء الذي كنا نفعله عاريين، ومن يديها عشقت مربى المشمش. أردت أن أسألها من جاء بسيدة التنظيف والشهوة ومربى المشمش إلى هذه الشقة في هذه الليلة؟ من بعث بها من تفاصيل السنوات الماضية؟ ربما الكأس التي في يدي لعبت برأسي قليلاً!

سكت، حاولت أن أركز ذهني وأشغل نفسي بكلام البروفيسور الذي عاد للحديث عن زوجته قائلاً: إن لصافو صوتًا جميلاً، وإن الحفلات الأسرية التي أقامتها في كثير من الدول بدعوة من بعض النوادي، والجمعيات الخيرية التي تنشط لصالح أطفال الصومال وإرتيريا كان لها صدى مميز في الإعلام الأميركي والأوروبـي؛ فقد تحدثت عنها الواشنطن-بوست والباييس الإسبانية ولوموند الفرنسية وريبوبوليكا الإيطالية وأحرنوت الإسرائيلية والأهرام القاهرية، وشرع في فتح درج ليعرض أمامي بعض قصاصات الجرائد التي تتحدث عنها حيث المقالات مؤثثة بصور جميلة... كنت أنظر إلى صافو وهي تنظر إلي والبروفيسور يتكلم العلم الكبير، الذي أكبر مني ومنها بكثير. صب لي البروفيسور كأس نبيذ ثانيًا أو ثالثًا، دون أن يسألني فيما إذا كنت أرغب في ذلك أم لا، مكتفيًا بتعليق قصير: إنه دم المسيح!!

ثم واصل حديثه عن صافو التي عادت لتجلس مكان سيدة التنظيف وعطر ماء جافيل. نفس الجلسة الإغرائية العامرة بلذة مربى المشمش، ونفس النظرة المعلقة ما بين السذاجة الملائكية والإيروتيكية الشيطانية، قائلاً بعد أن رفع نخبها: إن صافو من بلدة صغيرة ضائعة في التاريخ والجغرافيا اسمها السعيدية بالمغرب الشرقي، فيها ولدت وبها درست، وعلى يد أساتذة مغمورين تعلمت الموسيقى الأندلسية، تعلمت ذلك على الأصول، معجبة بصوت الشيخ الطاهر الفرقاني وبرينات الوهرانية، وتقرأ بنهم من الأدباء إدموند عمران المليح والطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا. بحرقة غادرت مدينتها بعد ليلتين من انتهاء حرب حزيران بين العرب وإسرائيل، والإعلان عن توقيف النار. ولكونها مغربية يهودية وبدافع الانتقام الأعمى، فقد هجم أهل الحي على بيت أهل صافو وأحرقوه وأحرقوا ما به على آخره، مما اضطر الجميع إلى مغادرة البلدة إلى الجزائر، التي حدودها لا تبعد عن هذه القرية سوى أقل من كيلومترين.. سكت البروفيسور، غيرت صافو من جلستها، أنـزلت ساقًا ووضعته على الآخر، وتفقدت زمة شفتيها نحو اليمين كأنما أرادت أن تثيرني أكثر، أو لتنتقم هذه المرة من مونيكا التي ضاعت مني بين خوف أبيها من مصالي الحاج، وحلمها في أن تكون طبيبة بنظارتين ومئزر أبيض وستيتوسكوب ينـزل على النهدين ليدغدغهما ويشعرها بزهو العلم. خيانة وجبن مونيكا الصغيرة فتح لي باب حب النساء الأكبر مني سنًّا.

صب لي كأسًا أخرى وهو يثني على هذا النبيذ الذي جلبه معه في آخر زيارة له إلى جنوب إفريقيا. لم أكن أعرف بأن جنوب إفريقيا ينتج نبيذًا ممتازًا، أنا أعرف هذا البلد من خلال زعيم له يسمى نلسون منديللا نـزيل سجون حكم الأبارتييد، وفريق كرة الريكبـي التي تهز العالم وتفتك كل الميداليات.

قال البروفيسور: إن للجزائر نبيذًا جيدًا، ولكن يبدو أن النظام الاشتراكي يريد أن يستبدل الكروم بزراعة القمح، وهذه واحدة من علامات إفلاس الزراعة في هذا البلد الذي يريد أن يقيم نظامًا اقتصاديًّا وسياسيًّا على الفلاحة والفلاحين.

نظرت إلى ساعة معلقة بالصالون، لقد اقتربت من الحادية عشرة ليلاً، وعلي ألا أضيع الميترو.
بمجرد أن رفعت نظري إلى الساعة، فهمت صافو تخوفي من أن يفوتني الميترو الأخير. قامت، وعلى الفور أنـزلت بعض الأكل المحضر سابقًا، تم تسخينه على عجل، لم تكن لي شهية الأكل، كنت أتمنى لو أن البروفيسور واصل سرد قصة صافو التي نسيها وغادرها إلى قصة النبيذ الجزائري، والثورة الزراعية وأفكار وبحوث عالم الاجتماع البروفيسور بيير بورديو عن الريف الجزائري، وعن الفقر في بلاد القبائل.
حكاية صافو كحكاية النبيذ الجزائري، كلاهما اقتلع من تربته. هي طردت باسم ذنب ارتكبه آخرون، وباسم حرب لا دخل لها فيها، ونبيذ جزائري تم اقتلاع كرمه من تراب الأرض التي لا تقبل سوى هذه الجذور، ولا ترتاح إلا لعروقها متأصلة فيها.
حكاية اقتلاع النبيذ الجزائري كحكاية مطاردة صافو بين الحدود، باحثة عن وسادة تضع عليها رأسها، وتسكن فيها أحلامها وموسيقاها، واعوجاج زمة فمها المثيرة وصمتها الساخن.
قلت في نفسي: ياسبحان الله! الفرق الوحيد هو أن الإنسان قادر على الشكوى والاحتجاج، أما الأرض ونبيذها فلا أحد يفهم لغتهما.
شربت كأس نبيذ آخر، ونظرت إلى القنينة ذات الشكل المتميز والمهندسة إتيكاتها، والتي بولغ في فن كتابة اسم حقل الكرم الذي منه عصرت، بجنوب إفريقيا، خليج الكاب، نبيذ كونستاس «Vin de Constance».
النبيذ الأصيل يشرب من لونه ومن جمال شكل القنينة التي يعبأ فيها، ومن نظرات المرأة التي تشاركك الشرب والحديث ومؤامرة الصمت.
ابتسمت لأنني فجأة بدأت أرى قنينة نبيذ كونستانس الجنوب-إفريقي الفارغة تقريبًا في وقفتها تشبه صافو التي أكتشف الآن بأنها ليست بالقصيرة، بل إنها مثل القنينة التي تفنن في وضع شكلها فنان تشكيلي عبقري، فنان مبدع وغير عادي. أعتقد أن جمال النساء يقاس بذات المقياس الذي به يقاس جمال شكل قنينات النبيذ الأرستقراطي.
تعتق الخمرة كما تعتق النساء، وسيدة تنظيف مبيتنا كانت معتقة.
وأخيرًا نطقت صافو، وكأنما شعرت بأن قد بدأ التعب يظهر على البروفيسور، فكان عليها أن تملأ الفراغ الهائل الذي يخلفه صمت البروفيسور، الذي يبدو أن حدود صوته هو منتصف الليل، كان بصوت المرأة نغم عصفور خرافي لا يعيش إلا في الأساطير، قالت:
".. كان عمري ثماني عشرة سنة، كنت في السنة النهائية ثانوي تخصص أدب وعلوم إنسانية، كنا على أبواب اجتياز امتحان البكالوريا، كنت مستعدة لذلك بعد تحضيرات شهور كاملة، لكن الحرب أفسدت كل شيء، حرب حزيران 67، فجأة، وبعد الإعلان عن توقيف النار، وجدنا بيتنا محاصرًا من بعض عشرات الغرباء الذين جاءوا من خارج المدينة الصغيرة الساحلية. في البداية حاول بعض الجيران صدهم، لكنهم تراجعوا إذ خافوا على حياتهم وحياة أبنائهم؛ فكان علينا أن نرحل. هربنا من باب خلفي ساعة قبل اقتحام البيت وإشعال النار فيه وبما فيه. لم يخطر ببالي ولثماني عشرة سنة أنني سأغادر ذات يوم هذه المدينة الصغيرة التي كبرت فيها، وفي ظل مسجدها الكبير الذي لم يكن يبعد عن بيتنا سوى بعض أمتار لعبت، وأنني لن أسبح ثانية مع صديقاتي وأصدقائي في بحرها الجميل، ولن نلعب برملها النظيف الذهبـي، وأننا لن نسرق ثانية حبات الفواكه حامضة

حتى قبل أن تنضج من الخوخ والمشمش من أشجار تلك البساتين، التي تنبت بسلام على ضفتي نهر يقسم أرض الله إلى بلدين: الجزائر والمغرب..".
وهي تحكي كانت زمة فمها تزداد ميلانًا نحو الأيمن، فتذكرني بمونيكا فأرتجف وأشتاق إلى مربى المشمش، ليس أي مربى مشمش!
"... ليلاً هُرِّبنا، وأُدخِلنا الترابَ الجزائري عبر مسالك سرية، ومن خلال طريق غير شرعي أوصلنا إلى قرية صغيرة تسمى مرسى بنمهيدي. أخذتنا سيارة أجرة حتى مدينة تلمسان، وأقمنا بعض الأيام هناك عند عائلة يهودية من أقاربنا تسكن حيًّا اسمه حي يغمراسن، هي الأخرى كانت تستعد للمغادرة على إثر تهديدات وصلت بعض أفرادها، ومظاهرات عنيفة لا تكاد تتوقف إلا لتبدأ حيث الاعتصامات في الساحات الرئيسية وفي الشوارع مرددة: "الموت لليهود". قضينا في مدينة الحاخام أبراهام النكوة أيامًا لم نتخط فيها عتبة البيت الذي أوينا إليه، ثم انتقلنا إلى وهران التي بدت لي متسامحة وغير آبهة للحرب ولا لليهود ولا للمسلمين، ومن مرفئها ركبنا الباخرة لترسو بنا بعد ليلتين في مدينة مرسيليا".
قلت لصافو وقد بدأ البروفيسور يرتخي ويغمض عينًا ويفتح أخرى: لكل غربته ياسيدتي صافو، شعرت بشيء غريب وأنا أنطق باسمها، ولكل غربة سببها ياسيدتي، فذات الطريق البحري ركبتُه أنا من بعد هجرتك بعشر سنوات، نحن ياصافو في الهم سواء، لا فرق بين يهودي ومسلم إلا بالتوقيت وشكل المطاردة، فاليهودي مطارد من المتطرفين المسلمين والغوغاء المدفوعة من قبل السياسيين الشعبويين، والعربـي أو البربري هارب من بلاد تخنق كل الحريات وتصادر الرأي باسم الاشتراكية، أو باسم الدين المتطرف، أو باسم الاستعمار.
جاءت لحظة انسحابـي، قمت، أخذت معي بعض الكتب التي اقترحها علي البروفيسور للقراءة من مكتبته الخاصة، كلها تدور، من عناوينها قرأت ذلك، عن الموت وأشكال الاحتفال بها في العالمين الشرقي والغربـي، بما في ذلك طقوس الدفن والعزاء والحرق والبكاء والشعر والغناء والموسيقى، حاملاً حزمة الكتب بين يدي شعرت وكأنما أحمل جثة ثقيلة متفسخة للغسل الإسلامي.
رافقتني صافو حتى الباب، كان صوتها وهي تقول لي ليلة سعيدة يوقظ في صورة سيدة التنظيف وعطر جافيل التي كلما اعتقدت أنها سقطت من ذاكرتي، تظهر لي ثانية كالمسيح في مخلوقات أتقاطع معها هنا أو هناك، مخلوقات حسية أو مثالية.
لم أستطع أن أنظر خلفي حتى لا أفقد ولا أقلق ولا أخون صورة سيدة عطر جافيل وطعم مربى المشمش المدهش التي استيقظت بقوة في رأسي، نصبت عيني بين قدمي منتظرًا وصول المصعد الذي سمعته يتنفس كأنما به تعب وهو يتسلق الطوابق الثلاثة، انفتح الباب وبلعني ليبصقني قدام الباب، فيتلقفني شارع يكاد يكون فارغًا.
قبل أن أدخل أول محطة للميترو، نظرت إلى الكتب التي بين يدي فشعرت بها تتحرك كجثة تلفظ أنفاسها الأخيرة، نظرت ذات اليمين وذات اليسار، ثم وضعت حزمة الكتب على الرصيف، تركتها هناك وتدحرجت إلى نفق الميترو. نظرت إلى ذراعي وقد تخلصت من الحمل الثقيل فوجدتني خفيفًا وقد استعدت بعضًا من حريتي وأنفاسي.
أقسمت ألا أدخل جامعة السوربون ثانية!
طز في السوربون وفي سارتر وفي دريدا وبورديو وجمال الدين بنالشيخ، وعاشت سيدة تنظيف مبيت الثانوية!

19

عدت إلى غرفتي، الساعة تجاوزت الواحدة صباحًا، كؤوس النبيذ الجنوب-إفريقي لا تزال تنعشني، فتمنحني إحساسًا بخفة العالم من حولي، دوخة رقيقة، لم أنتبه إلا وأنا على السطح. قبل أن أفتح الباب، وقفت للحظات أتأمل المدينة التي أراها لأول مرة في مثل هذا الوقت، إن لها حضورًا مختلفًا، ثم فتشت عن السماء فوق رأسي، التي لا يظهر لها أثر من جراء الدخان الكثيف، وأسراب غيوم التلوث التي تصعد من كل الجهات، ومع ذلك لأول مرة شعرت بحب كبير لله وبالرغبة في الذهاب إليه، حنين جارف، فكرت في إلقاء نفسي إلى الله، أرمي بهذه الجثة نحو الأسفل إلى الشارع كي تصعد عاليًا إلى ملكوته، وحين اقتربت من الحافة ولم يبق بيني وبين الطريق إلى السماء إلا رمشة، سمعت شاهي تعوي كالذئبة، تصورتها بين يدي عشيقتها، فنسيت على التو الصعود إلى الله، وفضلت الذهاب للتفرج على جسدين أنثويين في لحظة بهاء المتعة وذوبان الجسد. كان صوت شاهي الدرزية ممزوجًا بموسيقى البلوز الأمريكي من خلال صوت ماجيك صام Magic Sam، فتنمل جسدي كلية وعلى الفور تذكرت عواء سيدة التنظيف بعطر جافيل المنعش، المنبعث من جسدها وهي عارية في سريري، وأنا أمص ثدييها المنفوشين وهي تعصرني وتقول كلامًا غير مفهوم.

إني أحب مربى المشمش.

كنت أضحك حين أفكر في قوة ذكاء الدولة الاشتراكية التي لم تجد اسمًا لسجائرها الوطنية سوى أن تطلق عليها اسم: "المؤتمر الثاني الأفرو-أسيوي" الذي انعقد بالجزائر العام 1965.

وهذه صورة علبة السجائر الوطنية الأفرو-أسيوية:

ثم قلت وأنا أضحك بهستيريا: لأن مؤتمراتنا السياسية هي دخان وسراب، فهذا أحسن تعبير عليها. السلطة والتبغ يلتقيان في شيء أساسي هو التسبب في مرض السرطان للمواطن البسيط.

كنا اثنين وثالثنا قهوة بالحليب ومربى المشمش والخبز وسرير ينتظرنا، كنت أنظر إليها وهي صامتة ومذياعها الصغير مدلى في عنقها، يستقر على مطار نهديها المتعبين، ربما هي تفكر في الحارس الليلي الذي خانها. لسيدة التنظيف ومنبع عطر جافييل حدس الذئبة التي تعرف كيف

تفترس ومتى تفترس ومن فريستها، أخرجت من كيس بلاستيكي قنينة نبيذ، شربت من القنينة مباشرة، كانت تجرع وتخفي القنينة تحت السرير حتى دون أن تسحبها من الكيس البلاستيكي الملفوفة فيه، لأول مرة أراها تشرب نبيذًا وفي مثل هذه الساعة من الصباح، مدت يدًا مرتجفة، مثلها مددت يدًا مرتجفة، وأبعدت صينية القهوة عن السرير، وضعتها أرضًا، قبلتها كثيرًا، ومن فمها مباشرة سقتني بعض جرعات النبيذ، كان جسدها يتقد قليلاً قليلاً، يُجمر على نار هادئة تصعد من قنينة النبيذ الوطني.
تلك كانت أول مرة أشرب فيها نبيذًا.
لكل شيء بداية.
من ذلك الصباح الذي امتد حتى آخر النهار دون أن أغادر سريري، أصبحت أعشق الأنبذة الرديئة جدًّا، هي الوحيدة التي تسكرني وتعطيني وجعًا في الرأس عند الصباح، وجع أستلذه أكثر من تلذذي سكرة الليل. أحب النبيذ الرديء جدًّا لوجع الرأس الذي يخلفه في صباح اليوم التالي.
جودة الأنبذة، عرفت ذلك في ما بعد، تقاس بمستوى لذة وجع الرأس الذي تخلفه في الصباح التالي.
الأنبذة الفرنسية المروضة في المخابر والقناني الجميلة والمحاطة بالأطباء والخبراء والذواقين لا تثيرني كثيرًا لأمر بسيط: إنها لا تمنحني متعة وجع الرأس في صباح اليوم التالي. أعشق الأنبذة المتوحشة، أعشق الصداع الذي تخلفه في رأسي، وكان نبيذنا الأول ذلك الصباح بصحبة سيدة تنظيف مبيتنا في الثانوية وحشيًّا. شعرت في جسدها رائحة بخار الحمام التركي، كانت نعومة جلد جسدها تتماهى مع شراسة النبيذ الرديء الرائع، وارتكبنا العواء العالي، لأول مرة وأنا أسمع سيدة التنظيف ومنبع عطر جافيل تعوي تذكرت ما روته لي أمي في تلك القصة القائلة: ... إن نار الغيرة اشتعلت ذات مرة في قلب أجمل امرأة في القبيلة، فما عادت تأكل ولا تشرب ولا تمارس الجنس مع عشيقها، وهو الحال الذي دفع بالرجل العاشق إلى البحث عن سبب هذه الغيرة، ليتوصل في الأخير، من خلال عجوز وظفها لذلك، إلى أن المرأة عشيقته تسكنها غيرة من ذئبة! إذ إن المرأة التي كانت على جمال خارق والتي تملك زوجًا من العيون لا مثيل لهما بين عيون نساء القبيلة، تكتشف بأن لذئبة الليل زوجًا من العيون أجمل وأكثر إثارة مما تملك هي، وهو ما أصاب المرأة بحالة من الكآبة والصوم عن الجنس، وحين أدرك العاشق مصدر الغيرة التي هي سبب الكآبة وجفاف الرغبة الجسدية لدى عشيقته، احتال على الذئبة التي كانت تزور خيام القبيلة كل ليلة، فطلع عليها وطلب منها صلحًا بينها وبين عشيقته، وبالتالي يسمح للذئبة العيش بين أبناء القبيلة دون أن يعتدي عليها أحد، ولكن كل ذلك بشرط واحد هو أن تتبادل الذئبة زوج عينيها بزوج عيني العشيقة. قبلت الذئبة، وهكذا تسلمت العشيقة عيني الذئبة وتسلمت هذه الأخيرة عيني العشيقة، ومن يومها أصبح للمرأة حدس الذئبة وعواؤها، وللذئبة ذكاء المرأة.
حين عوت الذئبة، ذئبتي في فراشي بمبيت الثانوية، فرغت ما فيّ من ماء زلال لزج في جسدها وغفوت، وحين استيقظت وجدتني أرتجف خوفًا من أن ينبت لها طفل في الضلع الأيسر أو الأيمن، أما هي فكانت مستلذة صداع الرأس جراء النبيذ الرديء.
لماذا كلما فكرت بأنني تحررت من هيمنة صورة سيدة التنظيف التي بعمر أمي شعرت بحزن، ثم فجأة أنتبه فأجدها قد عادت لتسكن رأسي وتثير صداعًا يشبه شعرية صداع النبيذ الرديء جدًّا؟!
سيدة تنظيف مبيت التلاميذ.. لن أذهب إلى الله هذه الليلة، سأؤجل سفري إلى يوم آخر.

ولم أنتحر لأني أحب مربى المشمش كثيرًا.
دفعت باب الغرفة، جلست على طرف السرير الذي تناثرت على حوافه وعند أقدامه ملابس داخلية، وعلب سجائر، وقناني بيرة مقلوبة على السجاد الذي عليه بقع كثيرة. على الطاولة بقايا عشاء من شريحتي لحم وتفاحة معضوض طرفها وعلبة ياوورت ورؤوس بطاطا مقلية... جلست أراقب حركات شاهي وعشيقتها وهما عاريتان إلا من نار فحيحهما، لم تعيراني أي انتباه، كانتا في سماء أخرى، السماء الثامنة، على برزخ. فجأة، نسيت المشهد العاري أمامي وبدأت أفكر في رزمة كتب البروفيسور التي تركتها على الرصيف، تصورتها كقنبلة زرعتها في مكان لاغتال مارٍّ ما، هي كتب للاغتيال وليست للقراءة، كانت شاهي تراقبني بنصف عين وبما بقي تغرق في روضها العطر، فجأة سقطت عليّ فكرة رائعة وشعرية! لماذا لا أغتالهما، وأتخلص منهما ومن هذا العذاب الذي يثيرانه فيّ ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع، ثم أمارس معهما ما أرغب فيه وهما جثتان باردتان، ففي برودة موتهما حرارة أعظم من حرارة حياتهما التي لا نصيب لي فيها!
حين خمد عواؤها، أشعلت شاهي بشهية سيجارة، برمتها من تبغها الخاص، وهي لا تزال ممددة على السرير، تسللتُ ما بين الشراشف، واتخذت لي مكانًا بين الذئبتين، احتضنتني شاهي بحنان دون أن تتخلى عن سيجارتها، ثم سحبت منها نفسين عميقين ثم غرستها ما بين شفتي، أخذت منها نفسين أو أكثر، أعدتها إليها مصّتها ثم أعادتها إليّ، سحبت منها نفسًا وأطفأتها في مرمدة زجاجية كانت موضوعة على طاولة صغيرة عند رأس السرير، استدارت نحوي لاعبت عضوي وبدأت تعض عليه دون إيذاء، واقتربت الثانية وتناولت خصيتي بين شفتيها ولسانها بكل رفق ونعومة وأمان.
استفقت، موعد ساعة الإيقاظ ثابت في رأسي، أنا لا أحتاج إلى منبه خارجي يوقظني، المنبه موجود في الرأس.
انسحبت إلى غرفتي التي تقابل غرفة شاهي، تعجبت لأن غرفتي لم يغير مكانها! إنها لا تزال على السطح. تركت شاهي نائمة بيتم على سريرها، عشيقتها كانت قد غادرت السرير من قبلي، دخلت تحت المرشة، سال الماء باردًا ثم دافئًا، أيقظ ما بقي في نائمًا، ارتديت ملابسي وشربت قهوتي على عجل، اليوم يوم أحد، هو يوم مناوبتي الشهرية. أكره يوم المناوبة، يبدو لي أطول من أيام شهر مجتمعة، وأعتقد دائمًا أن الناس تفضل الموت أيام نهايات الأسابيع، حيث لا أحد ينتبه لموتهم.
نـزلت، استقبلتني رائحة الأدوية الفاسدة المنتهية الصلاحية في المصعد، كما كل صباح أشعر برغبة في القيء بمجرد الدخول إلى هذا المصعد. كانت المؤسسة شبه هادئة، لا شيء يتحرك فيها سوى بعض حراس المدخل الرئيسي المناوبين الذين يتحدثون بينهم بصوت عال، وبعض المارة من الشيوخ يجرون خلفهم كلابهم للتجول في جو الأحد الكئيب.
أكره يوم الجمعة في بلاد المسلمين.
وأكره يوم الأحد في بلاد المسيح.
وأمقت يوم السبت في بلاد أبناء موسى.
ما فضل لنا من أيام الأسبوع سوى أيام البوذية والكونفوشيوسية وعبدة الشيطان ودين التوحيد عند الدروز، وتلك هي أيام الحياة التي لا نفاق ولا صلاة تنتهز طريقًا كاذبًا إلى الله.
جناح جثث النساء لا حركة فيه.

بدأت أشعر بنوع من الإشفاق على الجثث التي تنتظر نهاية الأسبوع كي تغسل يوم الاثنين، وتذهب بعد ذلك إلى ذويها للدفن عبر الطائرة أو عبر الباخرة.
هذا الصباح نظرت إلى الجثث المصطفة بانتظام في الثلاجة، منها من غسّلتها ومنها من تنتظر، بدت لي ملونة، تذكرت كلام مولاي الشريف الذي قال لي: يابني، للموت ألوان كثيرة، حين يطول بك المقام هنا ستكتشف ذلك.. الحي مصاب بعمى ألوان الموت!
ها أنا ذا أرى لكل جثة لونًا.
فكرت في ترك كل شيء، والصعود إلى غرفة شاهي كي أخبرها بأنني زرت البارحة البروفيسور الذي سيشرف على أطروحتي الجامعية، والتي سأعدها في اختصاص "سوسيولوجيا الموت". ثم قلت في نفسي: ما دخل شاهي في هذا الموضوع؟ ربما ستحدثني عن كيفية دفن أبناء الطائفة الدرزية؟ إن لهم مع الدفن طقوسًا أخرى، مقابرهم بنايات بطوابق، ودفن الأنثى ليس كدفن الذكر، مع أن دينهم ضد الزواج بأكثر من امرأة، تعدد الزوجات محرم لديهم.
لم أدر كيف، حتى وجدت نفسي أدفع باب شقتها على السطح، نظرت إلي وهي لا تزال في فراشها وسيجارة أخرى بين شفتيها، أشارت لي بالاقتراب منها دون أن تتكلم، اقتربت تسللت إلى فراشها الدافئ، ولأول مرة سمحت لي بإيلاجها من الخلف، كانت مرتاحة لذلك، لكن بمجرد أن أفرغت، بدأت تبكي بكاء مرًّا قائلة بصوت مختنق: ما كان علي أن أفعل هذا، فقد خنت عشيقتي سولاف، الخيانة شيء قبيح، منكر لا منكر بعده، وبكيت أنا الآخر وتذكرت أنني خنت أنا الآخر سيدة تنظيف مبيت التلاميذ ومنبع عطر ماء جافيل.
بكيت وشعرت برغبة عارمة في مكالمتي أخي مازار الذي تعودت الكلام إليه هاتفيًّا كل يوم أحد.
انسحبت من السرير، رفعت سروالي وأعدته إلى مكانه على إليتي، حيث كان منسدلاً أسفل الركبتين، ربطت الحزام، نظرت إلى شاهي التي كانت لا تزال ممددة في السرير، ظهرها إلي ووجهها إلى الحائط، فتجلى لي فيها ظهرُ سيدة التنظيف واللذة.
أشعر بأن شاهي تستمتع بجسد عشيقتها أكثر وبشهية أعمق كلما أحست بأني أراقبهما، مراقبة الذئب للفريسة، إذ تشتعل النار التي بداخليهما وتتصاعد بشكل سعيري مثير، فيه عنف ورومانسية، بشكل غريب يفرز الجسدان قوة ونارًا لا مثيل لهما، ويفرز اللسانان لغة لا يفهمها إلا من يعيش هذا الجحيم الرحيم. أنا أيضًا أصبح يثيرني هذا المنظر العوائي بين شاهي وعشيقتها، إذ أصبحت أنتظره كل ليلة أو على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع؛ فهو يذكرني بسريري في مبيت الثانوية، ويذكرني أيضًا بطعم مربى المشمش، وبالموسيقى الصاعدة من ترانسيستور منظفة المبيت.
أسحب باب الغرفة من خلفي، وأنزل تاركًا ورائي شاهي عارية وفي حالة اختناق وبكاء جراء شعورها بالذنب؛ لأنني ولجتها، وقد ارتكبت بذلك خيانة أو خطيئة كبرى يجب طلب غفرانها من سولاف ومن الله.
عدت إلى جثثي، متعب يوم الأحد هذا، لا أحد يتحرك من مسكنه قبل العاشرة، تبدو المدينة مهجورة وحزينة، فجأة تتوقف سيارة الحماية المدنية، منظر أعرفه منذ سنة ونصف تقريبًا، الحقيقة إنني لم أعد أحصي الأيام، رسائل أبي الذي بدأ يفقد بصره وهو الذي كان له نظر الصقر وسمع الندى، أدركت ذلك من تبدل طريقة كتابة حروفه، هي وحدها من يذكرني بما مضى علي من سنوات بين عالم الأموات هذا.

وضعوا الجثة على المصطبة الخشبية والتي لأول مرة سمعت جغجغة مفاصل قوائمها، رأسي يغلي، نمل يتسلق جمجمتي، بطريقة لا إرادية سحبت السحّاب بعنف، أخرجت الجسد الذي بدا لي أصغر من حجمه العادي، استدرت لتناول أنبوب الماء، فتحت الصنبور، قبل أن أفرغ عليه الماء الدافئ للغسل، تحركت الجثة في سكونها، استدارت كأنما لم تكن ترغب في إعطائي ظهرها كما فعلت شاهي، تزحزحت الجثة قليلاً وخاطبتني قائلة: أنا مازار ياأنـزار، أنا مازار أخوك، ألم تعرفني؟ لقد رضعنا من ذات الثدي الأمومي وكبرنا في ذات الحضن، أنت أخي! ألا تذكر أنني أنا الذي سجلتك في المدرسة أول مرة، باستعمال شهادة ميلاد ابن عمنا أنـزار؟ قمت بذلك ياأخي أنـزار لأنك لم تكن قد بلغت بعد سن المدرسة، سنتها كانت تنقصك سنتان كي يسمح لك بالتسجيل، هل تذكر؟ ثم ضحك، هي ضحكته التي أعرفها من بين آلاف الضحكات، ضحكة متقطعة ولكنها منسابة تخرج من حلق معسول.

بحثت عن فاتحة الكتاب على لساني، لم أجدها، ضاعت الفاتحة ومثلها ضاعت آية الكرسي، ولم أجد شيئًا أستند إليه، لسان الفتى نصف ونصف إيمانه، هكذا علمني الأستاذ المصري الإخواني الذي كان يدرسنا الفقه بدلاً عن الأدب العربـي، ويعلمنا كره جمال عبد الناصر ويقول لنا بأن العلمانية كفر لا أشد منها كفرًا.

كان الأستاذ المصري الإخواني يستبدل في معلقة زهير كلمة "فؤاده" بكلمة "إيمانه"، وكنت أقول له ياسيدي إن زهير بنأبـي سلمى عاش وكتب هذه المعلقة قبل مجيء الإسلام، فكان يرد علي بنوع من الجفاف والاحتقار: يقال إنه أدرك الإسلام وعمره كان قد قارب القرن، وقد أمر هو نفسه بتغيير الكلمة، وأكثر من ذلك فدراسة الشعر الجاهلي حرام أصلاً في بلاد الإسلام الجزائر التي حاربت الكفار المسيحيين وانتصرت عليهم، لا يقرأ الشعر الجاهلي إلا من يعيش الجاهلية الجديدة.

وكنت أسكت، نكاية فيه كنت مصرًّا على حفظ أكبر قدر ممكن من الشعر الجاهلي، وقد حفظت عن ظهر قلب معلقات كل من امرئ القيس وطرفة بنالعبد وعمرو بنكلثوم.

هربت من الصوت، هو صوت أخي يزلزلني، ويذكرني فجأة بموت جدتي التي دخلت كفنها وماتت وهي تشرب القهوة، أخفيت عيني براحة كفي اليمنى كي لا أرى عري أخي مازار! ولكني مع ذلك سرقت نظرة خاطفة لأتأكد من أنه هو مازار الذي سجلني في المدرسة الابتدائية، والذي لم يكن يخشى محاورة المدير قصير الطول. ما في ذلك شك، فالذي بين يدي ممدد على المصطبة هو أخي مازار، مازار ما في ذلك شك! رميت فوطة على وسط جسده كي أستر عريه، لقد نحف قليلاً وزاد طوله بعض الشيء، لكنه لم يفقد لون عينيه اللوزيتين ولا ضوءهما ولا الشامة السوداء التي على عنقه، جهة اليسار أسفل الأذن.

قلت له: أعتذر لك ياأخي مازار، فاليوم لم أستطع مكالمتك في الصباح، ولكني كنت سأقوم بذلك بعد خروجي من هنا.

لم يجبني.

فجأة بدأت الغرفة تدور في رأسي كالخذروف المجنون بمصطبتها وثلاجتها الكبيرة ذات "القجور" الكثيرة، حيث كل واحد منها تنام به جثة تنتظر أهلها، أو تنتظر قرار الشرطة والمحاكم لإخلاء سبيلها نحو ترابها، ثم لاحظت بأن أبواب قجور براد حفظ الجثث الكثيرة بدأت تفتح الواحدة تلو الأخرى، ومنها تقفز الجثامين التي لم يتسلمها بعد أهلها للقيام بواجب العزاء والدفن.

جثث ضائعة مثلي.

شعرت بظلمة في عيني، دوى صوت سيدة تنظيف المبيت بقوة في أذنيّ، ثم ما عدت أسمع شيئًا!

20

في غفلة من الجميع نحف جسد هاجر كثيرًا، وتبدل لون عينيها من الأسود إلى الأخضر العكر، فقدت جزءًا من هدوئها ليلة الدخلة، ساعة زغردت النساء وهن يرقصن بمنديل عذرية أختي سكينة الصغرى، منديل أبيض من حرير بنقط دم حمراء تحت ضوء المصابيح التي رتبها عمي سليمان، كانت سكينة آخر العنقود في البنات. خطفت هاجر المنديل من بين يدي امرأة كانت شبه غائبة في رقصتها وهي تحدق في بقعة الدم، ثم حملته بين يديها وشرعت في الرقص، كانت حركاتها غريبة ولكنها منسجمة، تشبه حركات أمي في رقصتها المعروفة: رقصة الحميمة، حين ترقص أمي لا يمكن التمييز بين حركات الصلاة لديها وحركات الرقص، كل شيء فيها يكون غائبًا، غيبوبيًّا، سابحًا في عالم آخر.. التوحد.

ليلتها نظر الناس إلى هاجر، وقد نسوا أن بالغرفة التي في ركن الباحة تتمدد سكينة التي فضت بكارتها قبل قليل.. اختفى منديل الدخلة الملطخ بالدم وزغردت هاجر.

وعادت النساء للغناء والرقص. من بعيد، كان عمي سليمان بعينيه الزرقاوين الأندلسيتين يراقب بدقة حركات هاجر، وكأنما أوحي إليه بشيء قد يسقط فوق رأسها بين لحظة وأخرى. اختلطت زغاريد النساء المتزوجات بالعازبات، ثم فجأة، قليلاً قليلاً، ارتفع صوت مؤذن صلاة الفجر، لم يكن بصوته أي شيء مثير أو متميز، ومع ذلك توقفت النساء عن الرقص وصمتت عن الزغاريد وعن الغناء، وعلا اسم الجلالة فوق كل صوت.

لم ينتبه الحضور كيف انسحبت هاجر من حلقة الرقص ولا كيف غادرت بيت سكينة الزوجي الجديد، فجرًا مشت وحيدة عائدة إلى البيت الكبير، حين دخلت هاجر قرية باب القمر كانت الشمس قد أرسلت أولى أشعتها.

نهار حار في الأفق.

لكن فجأة تغيم الجو وتلبدت السماء، وبدأ مطر يسميه الفلاحون بـ"غسالة النوادر" يسقط، مطر أحمر، يغسل القرية من غبار الصيف ويعلن بداية الخريف، يكون ذلك عادة في شهر أوت.

شعرت هاجر بنوع من الخوف وهي تشاهد السماء حزينة وباكية بدموع ترابية اللون، لم تجد سوى غرفة عمي سليمان كي تحتمي فيها، الأمطار تتساقط بحبات كبيرة تحدث صوتًا على سطوح الاسطبلات المغطاة بالصفيح.

كان عمي سليمان ممددًا على مطرح من الإسفنج واضعًا يديه تحت رأسه محدقًا في سقف الغرفة، وكأنما أيقظ فيه صوت المطر حنينًا إلى شيء ما.

قال لها دون أن يلتفت إليها، وكأنما كان ينتظر مجيئها، وحتى دون أن ينـزل عينيه من سقف الغرفة ولا أن يسحب يديه من تحت رأسه: كنت أعتقد أنك ستظلين إلى جانب سكينة حتى اليوم الثالث.

لم ترد عليه، ولم يكن ينتظر جوابًا، وكأنما كان يدرك ما تريد قوله، تزحزح قليلاً إلى الطرف الآخر من المطرح، ليخلي لها طرفًا من الفراش، كأنما أدرك بأنها تريد أن تتمدد إلى جواره.

تمددت إلى جنبه، انتبه أنها كانت حافية، بمعنى ذلك أنها جاءت من بيت سكينة إلى هنا حافية. لم يعلق، وضعت يديها تحت رأسها، وحدقت في سقف الغرفة كما يفعل هو، كانت تريد أن تعرف في

ماذا يفكر؟ قد نفهم الأفكار من خلال توقد العينين واتجاه النظر.
ظلا صامتين.
المطر يسقط فيحرك شيئًا في القلب.
ظلا صامتين.
فجأة، دون أن تنـزل عينيها من سقف الغرفة قالت هاجر لسليمان، وقد بدأ الليل ينـزل من السماء التي غشتها سحابة سوداء: أريد عرسًا وعريسًا ياسليمان.
لم يتفاجأ سليمان لكلامها، وكأنما كان ينتظر أن تقول هذه العبارة.
ثم عادا إلى صمتهما وقد مضى يوم.
اختفى ضوء النهار نهائيًّا، وعاد الليل في النـزول بسرعة، والمطر الصيفي لا يزال يهطل وقد تغير لونه قليلاً من الأحمر إلى الرمادي.
وظلا ينظران إلى السقف دون كلام.
تحسست رقبتها، ثم كررت العبارة ذاتها: ياسليمان، أريد عريسًا وعرسًا، لقد بقيت وحيدة، وقد رحلت أخواتي جميعهن إلى أزواجهن.
وانفجرت بكاء.
دوى رعد في طرف السماء.
وتبعه برق، أغرق الغرفة للحظات في نور وهاج.
تحسس سليمان رقبته هو الآخر. أراد أن يتكلم لكنه شعر بلسانه كقطعة خشب باردة في فمه، فواصل الصمت. لكنها فهمت ما يدور في رأسه وقالت: أعرف أنك مثلي تفكر في مازار وأنـزار.. أليس كذلك؟
لم يجب، لا لسان لسليمان، ما في فمه إلا الخشب أو الحجر، وكان بالفعل يفكر في مازار وأنـزار.
لم يتفاجأ لتعليقها، فكأنما هو يعرف بأنها تعرف بأنه يفكر في مازار وأنـزار اللذين يحبهما كثيرًا، وقد طالت غيبتهما في بلاد الفرنسيس.
أضافت وقد بدا له بأن صوتها قد تغيرت حباله، تقطعت أو تهدجت أو تشوشت، قالت: بـي شوق إليهما. ثم سكتت.
شعر سليمان بتنمل في دماغه، وبرغبة في الطيران.
ثم سال لسانها بالكلام، بدأت تحكي له عن مرآتها ذات الوجهين، وجه مكبر والثاني عادي، والتي اشترتها من البائع المتجول صاحب الأميرة مقابل ثلاث حبات بيض دجاج، والتي كانت تستعملها خفية عن أخواتها لتنظر إلى تفاصيل ملامحها، وإلى لون عينيها الذي يتغير بين المساء والصباح، بين الشتاء والصيف، بين موعد العادة الشهرية والأخرى.
قالت: أنا الأخرى كنت أريد أن أكون جميلة، أنتظر بين سقوط ليل وطلوع نهار مجيء رجل يأخذني بين ذراعيه، ويعصرني ويجعلني ألهث من الرغبة وأصرخ كالذئبة، جسدي يريد حقه.
ثم انهارت بكاء، دون أن ترفع عينيها المنصوبتين في اتجاه السقف.
عادا للصمت بعض الوقت، والمطر لا يزال يهطل، هل كان يهطل في الواقع أم في رأسيهما؟
استدارت قليلاً هذه المرة في اتجاه سليمان ثم بادرته: أعلم علم اليقين أنك تفكر في ساقي الذي لم يدخله خلخال طول العمر، وفي المقابل نخره مرض الخنـزير. لم يرد، ولكنه بالفعل كان يفكر في

ذلك، كان يستعيد صورة ساق هاجر الذي كان يسكنه الدود، دود أزرق يتكاثر بشكل عجيب في الموضع الذي يصله مرض الخنـزير..
.. كان يوم عمر الدونجورو الحَدّاد يومًا لا كالأيام، كان عمي سليمان يجلس إلى جانب الحداد عمر الدونجورو وهو يوقد ناره بهدوء في مجمر كبير، ثم من لهبها يشعل سيجارته، يغرس الخنجر الذي يشبه المنجل الصغير الذي يستعمل في قطف عناقيد العنب في جمر النار التي تتأجج قليلاً قليلاً، حين احمر المنجل وأصبح بلون قطع الجمر، بحذر وهدوء سحبه من اللهب، كشف عن ساقي هاجر بعد أن طلب من الجميع مغادرة الغرفة. كان عمي سليمان الوحيد الذي ظل بجوار عمر الدونجورو يساعده إذا ما احتاج إلى شيء طارئ أو خدمة بسيطة، وضع المنجل على الساق المكشوف، جرف قطع اللحم التي منها يخرج الدود الأزرق، شخشخ اللحم الحي ومشى المنجل حتى العظم، طلعت رائحة كرائحة الشواء، بصعوبة صرخت هاجر والتي كمم فمها بفوطة أُمِرتْ أن تعض عليها لمقاومة شدة الألم...
أدار عمي سليمان وجهه، أخفى عينيه في راحتي كفيه، أنـزل نظره من السقف وبكى.
قالت له دون أن تلتفت إليه: أيبكي الرجال أيضًا ياسليمان؟ أتخيفهم مناظر العذاب كمنظر جرف اللحم من ساق مصاب بمرض الخنـزير ياسليمان؟ لم يتحرك سليمان، بل زادت دموعه انهمارًا.
في الخارج أو في الداخل، المطر لا يزال يهمي. يبدو أن الليل انتصف. قالت هاجر في نفسها: إن سليمان يستعيد صورة الساق وألمها كي يقيم عزاء لذلك اليوم ويدخل ساعة أخرى، ساعة اللذة.
استعادت صوتها وقالت له: أريد عرسًا وعريسًا ياسليمان، لقد اختفى الألم من ساقي، ولكنه استوطن قلبـي، وهذا أكثر إيلامًا وأعمق وجعًا وأبقى ندبًا، أريدك ياسليمان عريسًا.
بدأ سليمان يفكر في ميمون ديك الجدة البتول المحرر، ثم قال في نفسه: هو الكائن الوحيد الذي عاش ضد قدره، كان أكبر من قدره وأعظم من قدر تاريخ الدجاج وجميع فصائل الطيور.
هذه المرة سحبت هاجر يديها من تحت مؤخرة رأسها، وسحبت نظرها من سقف الغرفة واستدارت إلى سليمان، زحزحته من أفكاره ودحرجته من سقف الغرفة قائلة: أريدك أن تحررني كما حررت جدتي البتول ديكها ميمون.
وعانقته.
توقف المطر في الخارج أو في الداخل، وشعرا بنفسيهما كما لو أنهما على نار مجمر الحداد عمر الدونجورو، كان جسداهما يشويان. نار تحرير الجسد من الدود الأزرق، ثم شعرا بنفسيهما كما ديك الجدة محررين من الموت.
الديك الذي لا يذبح هو أكبر من الموت.
طبع قبلة على خدها، قالت له دون أن تتكلم، وفهم ذلك جيدًا دون أن يسمع كلامًا، بأنه أول رجل يقبلها دون أن يفكر في عجزها أو في ساقها الذي لم يلبس خلخالاً يومًا.
قالت له دون أن تتفوه بكلمة، وفهم هو كلامها كله دون أن يرد بكلمة: أريدك أن تفض بكارتي، أريد عرسًا، أريدك عريسًا، أنت الوحيد الذي رأى ساقي بدودها وقلبـي بدوده، ولم تنفر مني، ولم تتقيأ، ولم تعطف علي عطف القويم على المعوق، أنت لست عمي، أنت الديك المحرر.
أخذها بين ذراعيه، استسلمت له كما كانت ترغب وتشتهي، استسلم لها كما كانت تريد. دقائق وصعد صراخها، كان صراخًا كصراخ الديك ميمون المحرر.
قبلته، ثم أخرجت خلخالاً لبسته في رجلها ورفعت عباءتها حتى بدا ساقها المشوه، وخرجت.

لا مطر على الإطلاق في الخارج. الجو حار قليلاً، وغبش الفجر بدأ ينثر ضياءه على القرية، أخذت طريقًا إلى الساحة الرئيسية في القرية، حين وصلت كان الناس قد بدأوا يتوافدون على المكان الذي فيه يقام السوق الشعبـي الأسبوعي، من المداشر والقرى المجاورة يجيئون راجلين أو على ظهور دوابهم، جلست عند باب السوق قبالة المطحنة تمامًا، كانت تنظر إلى الفلاحين وهم يسحبون على حبل طويل لتشغيل محرك المطحنة، أضحكها الموقف.
في البدء لم ينتبه إليها أحد، ثم شيئًا فشيئًا بدأ البعض يتجمع حولها، وكلما اقترب منها أحد تسأله بصوت عال: أين مازار وأين أنـزار وأين سليمان؟ وظلت تكرر هذا السؤال حتى خلا السوق، وعاد الناس إلى منازلهم وسكت محرك المطحنة، ولم تبق إلا هي عند باب المطحنة.
سكنت هاجر المكان وكأنما وجدت فيه منذ أن وجدت المطحنة بمحركها الذي يدور يومًا واحدًا في الأسبوع، أو كأنما وجدت هنا قبل أن توجد المطحنة، لم يفكر أحد في إعادتها إلى البيت الكبير، وكأنما كانوا يعتقدون بأن تواجدها في السوق هو من أمر السماء، أصبحت تهيم في الأسواق الشعبية التي تقام في القرى المجاورة وفي فمها عبارة واحدة تكررها من الصباح حتى الليل: أريد مازار، أريد أنـزار، أريد سليمان. وحين يخلو السوق من باعته ومشتريه تعود إلى مكانها عند المطحنة لتنام كما ينام المحرك.

21

أنا مازار أخو أنـزار.
حين دخلت عليه، وجدته وحيدًا بساحة المصحة، يرتدي بذلة زرقاء مخططة ونعلاً مطاطيًّا. كان أنـزار يلعب ببطة بلاستيكية يرميها في حوض ماء، تتحرك البطة ثم يضحك ويضحك، يعانقها ثم يقبلها ثم يعيد إلقاءها في الماء. لم أكلمه، ولم يكلمني، نظر فيّ نظرة غريب لغريب ثم واصل لعبه بالبطة، وواصل ضحكه، أنا أيضًا وجدت نفسي ألعب معه وأضحك، وأنافسه في رمي البطة في البحيرة!
الممرضات نظيفات المظهر، يذهبن ويجئن بابتسامات عريضة مرسومة على وجوههن مخلوطة بحيرة.
تتوسط المصحة التي اسمها Frantz Fanon فرانتز فانون غابة مترامية الأطراف، أو بالأحرى محمية طبيعية واسعة، لا يوجد بها طريق مزفت ولا سكة حديد توصل إليها، كل ما هناك طرق ترابية ومسالك تقطع مشيًا على الأرجل، أو على العربات التي تجرها بغال، أو على ظهور الأحصنة وعلى الدراجات الهوائية الخاصة.
ناديت عليه: ياأنـزار، أنا أخوك مازار، جئت للاطمئنان عليك.
رفع نحوي زوج عينيه ذي اللون اللوزي الذي تبدل إلى أزرق بارد، ثم نطق: أين هي شاهي الخائنة؟
ثم عدنا للعب بالبطة البلاستيكية، يرميها في الماء فأخطفها، وأرميها فيسرع للقبض عليها، ونضحك.
لم أتكلم، أو بالأحرى لم أعرف كيف أجيبه عن شاهي، ومن هي شاهي هاته؟ ثم عدنا للعب بالبطة البلاستيكية، وفجأة توقف عن الضحك.
كانت الساعة الثانية عشرة، منتصف النهار تمامًا، ودون أن ينظر إلى ساعة، أو يسمع منبهًا، قال لي: هذا وقتي. ثم جاءت الممرضة سحبته بلطف من يده ثم قادته إلى الداخل، والبطة البلاستيكية لا تزال بين يديه. سمعته يقول: عطر جافييل، أحب مربى المشمش، وهو يعانق الممرضة، وهي تقبله على عنقه ورقبته.
فكرت في الذهاب لرؤية شاهي زميلته في العمل، أن أسألها كيف حصل لأنـزار هذا الانـزلاق إلى العالم الشفاف، وهي التي أخبرتني بالهاتف عن هذا الذي حصل، ثم أجلت ذلك إلى وقت آخر.
حين اختفى أنـزار خلف زجاج غير شفاف، نظرت حولي وجدتني وحيدًا، شعرت وكأنني أنا الآخر أنـزلق شيئًا فشيئًا إلى ملكوت العالم الشفاف، عالم الهشاشة، خفت أن تجيء ممرضة لتلحقني بأنـزار أخي، فخرجت مسرعًا، مغادرًا المكان دون التفاتة، مع أنني كنت أتمنى لو قبض عليّ وأبقيت إلى جوار أنـزار، راجلاً أعود أدراجي قاطعًا المحمية حتى قدم الجبل، حيث آخر موقف للحافلة العمومية، وهو نهاية الطريق المعبد وبدايته، على مد البصر كانت عشرات قطعان البقر والأغنام والخيل والحمير تسرح في الضواحي بكل حرية، بساتين المحمية التي يسمح فيها بالرعي. أعجبني منظر قطعان الحيوانات وهي غارقة في الحشيش وفي الطمأنينة التي تشبه الصلاة.

عدت إلى غرفتي في هذه المدينة الصغيرة رانفيل Ranville التي أقيم فيها، وبها يفتخر أهاليها كونها أول مدينة نـزل بها مظليو التحالف وحرروها ليلة 5 إلى 6 من جوان 1944. لأول مرة، متأثرًا ربما بطمأنينة الأبقار والخيل السارحة في المحمية التي بها المصحة التي يقيم فيها أنـزار، فكرت في الصلاة، ولكني تراجعت، خفت من أن أنـزلق أنا الآخر إلى عالم الهشاشة، لذا صببت لي قدحًا من مشروب الكالفادوس ثم ثانيًا ثم ثالثًا، شربت كل ذلك على نفس واحد. منذ نـزلت هذه المدينة بنورماندیا السفلى وأنا لا أشرب سوى الكالفادوس الذي يتم تقطيره تقليديًّا من شتى أنواع التفاح، تمارس هذه الأسرة الفلاحية العريقة التي أقمت عندها حرفة التقطير أبًا عن جد، منذ قدومي إلى هذه البلاد، بإلحاح من أمي التي كانت تخشى علي أن أصبح عسكريًّا، أوتني وأوكلت إلي مهمة الإشراف على حظيرة الخنازير، من يومها أصبحت فردًا من أفرادها.
حين شعرت برأسي يتنمل جراء الشراب قوي الكحول، هجمت علي صورة أختي هاجر التي تركتها في باب القمر تنتظر عروسها، وتنتظرني شاهدًا على عرسها وراقصًا في فرحها، هي تعرف بأن أهل القرية يحبون رقصي، وهم معجبون بطريقتي الخاصة في رقص العلاوي. كانت هاجر خجولاً، نادرًا ما ترقص وحين تقوم بذلك لا تقوم به إلا معي أو مع عمي سليمان الذي تحبه ولا تخفي حبها له، وهو ما أثار كثيرًا من الكلام الملغز حول علاقتهما. تأخذني من يدي فنرقص، وكانت تتحاشى عيون أبـي من أن ترانا نتهادى كطفلين. أنا الآخر كنت أحب رقصها، وكنت أخشى على ساقها من أن يعود له ذلك الورم الذي يسميه العامة من أهل القرية "مرض الخنـزير"، الذي كان السبب في عدم زواجها. تلك كانت اللحظات الوحيدة التي تنسى فيها هاجر تشوه ساقها فترقص كالحمامة، ولكني وخوفًا على ساقها من الإيذاء ومن عيون الذين يحيطون بنا، كنت كثيرًا ما أضطر لقص الرقصة قبل نهايتها مدعيًا الخجل أو أي سبب آخر.
"مرض الخنـزير"جعل أختي لا تلبس خلخالها في الأعراس ولا في الحفلات العائلية، وكان لها خلخال بربري الصنعة من الفضة الصافية!
كلما دخلت حظيرة الخنازير التي أشرف عليها في هذه المزرعة الموجودة على بوابة رانفيل من بلاد نورماندیا، أجلس بين رؤوس الخنازير الصغيرة منها والكبيرة، أحدق فيها وهي غارسة رؤوسها في جرن العلف البلاستيكي، وأصرخ ملء فمي فيها بعد أن أشرب قنينة من الكالفادوس: أأنتِ من أصبتِ ساق هاجر بسوء فشوهتها وهرَّبتِ الخطّاب من حولها؟
ترفع الخنازير دفعة واحدة رؤوسها من جرن العلف، تنظر إليّ باستغراب وإشفاق ثم تعود لعلفها، وكأنما كانت تقول: لقد جُنَّ سيدنا.
حين أفكر في باب القمر أفكر في هاجر، هي أختي وأكثر، هي ليست أختي فقط، إنها تسكن مكانًا أكبر من مساحة القلب، مرات أفكر في علاقتها بعمي سليمان، أفكر في ذلك بعين الشيطان فألعن الشيطان وأشرب الكالفادوس وأعتذر للخنازير، التي بدأتُ مع مرور الوقت أعطف عليها وأحب ذكاءها، وأعجب بحنان الأم الخنـزيرة وعطفها على صغارها. كنت أعطي كلَّ خنـزير اسمًا، أطلقت عليهم أسماء أولاد البلد، أسميهم واحدًا واحدًا وأضحك، هذا باسم عمي سليمان، وهذا باسم أخي أنـزار، وهذه باسم فاطمة وهذه عائشة وهذه سكينة وتلك الزهرة، وهذه العجوز جدتي البتول، وهذه عمتي فاطنة الغريبة الأطوار وهذا عشيقها سليمان-الناي وهذا سليمان الطبال، وهذا جدي بلحيته المصبوغة بالحناء، وهذا جارنا عبد القادر، وهذا فقيه موسم الصيف ورمضان وهذا وهذا وهذا... إلا اسم أبـي يحيى لم أكن قادرًا أن أمنحه خنـزيرًا... لماذا؟ لست أدري!

كنت أقوم بإعطاء خنازيري هذه الأسماء ليس احتقارًا لأسرتي ولا استخفافًا بأبناء قريتي ولكن كي لا أنساهم، ألصق أسماءهم على هذه الحيوانات كي تظل على لساني مرات كثيرة في اليوم، وأنا أقوم بإطعامها أو تنظيفها أو مرافقتها للبستان المفتوح قدام الزريبة، ومع مرور الزمن أخذت الخنازير تتبدى لي شبيهة في أشكالها وأحجامها وأصواتها بأبناء قريتي، تمامًا بتمام.
حالة أنـزار الصحية بدأت تشوشني، ومنظره وهو يلعب بالبطة البلاستيكية لم يبرح رأسي، وهو ما زاد شربـي للكالفادوس، ثم تساءلت: لماذا كنت ألعب معه بالبطة البلاستيكية؟ خفت من نفسي وأصبحت أغلق الأبواب عليّ وعلى خنازيري بمجرد شعوري بغياب الشمس، التي لا وجود لها في هذه المنطقة إلا قليلاً، تظهر لبعض الساعات في السنة. بدأت أفكر أنا الآخر في شراء بطة بلاستيكية كي ألعب بها في جرن الماء الذي تشرب منه الخنازير، كنت أرغب في أن أضحك كما يضحك أخي أنـزار. بعد أيام لاحظت بأن بعض رؤوس الخنازير نحفت، ربما حزنًا على حالي، وحزنتُ لحالها أيضًا، وأجهضتْ لأول مرة خنـزيرة فبكيتُ لوضعها ولمرض الكآبة الذي أصابها.
مع ذلك قررت دون سابق تخطيط الذهاب للقاء شاهي، أتعرف عليها وأطلب منها إذا ما كان بإمكانها مرافقتي لزيارة أنـزار أخي، زميلها في العمل وجارها على السطح، ربما سيخفف ذلك من حاله المتردي فيترك البطة البلاستيكية ويعود إلى الجامعة.
لقد سبق لأنـزار أن حدثني عنها مرات في الهاتف، ببعض الإيحاء الذي يخفي بعض الإعجاب أو ما يشبه ذلك، ربما لم يكن يقصد ذلك ولكن تأويلاتي هي التي جعلتني أفكر في ذلك، أعرف أن رأس أنـزار في الكتب وأنه لا يخرج من المكتبة الجامعية إلا ليعود إليها، لا أعتقد أن امرأة مثل شاهي ستنسيه محاضراته الجامعية ومشروع بحثه الذي حدثني عنه في الهاتف، والذي ينوي تسجيله والمتصل بموضوع: "أمراض الفقر في العالم الثالث: الجزائر نموذجًا"، أو "إشكالية الصحة في الوسط الفلاحي الجزائري" أو ما يشبه ذلك، وهو موضوع مذكرته التي ينوي تقديمها لكلية الطب.
لا جديد في الرسالة التي وصلتني هذا الأسبوع من باب القمر، وهي آخر رسالة بيد والدي، إذ ذيلها بما يلي:
"يا فلذة كبدي... ولأني بدأت أفقد السيطرة على القلم وبدأت أخون جمال حروف كتاب الله، وما عدت أميز عطر الحبر وألوانه، قررت أن أعتزل الكتابة بخطي يدي إليك حتى لا أشوه الكلمات، التي معناها ليس فقط في مضمونها، إنما معناها أيضًا في شكلها... والسلام".
لقد ازداد حال والدي سوءًا، واشتد عليه المرض، وأصيب بالرجفان في اليد اليسرى ثم اليمنى، وبالهذيان حيث لا يتوقف عن ذكر اسم أنـزار طالبًا إحضاره، ولم يعد يقوى على الخروج ولا على الأكل ولا على قراءة القرآن أو الشعر، وإنهم نقلوه مرتين إلى طبيب عيادة القرية المركزية، وإن هذا الأخير قال لهم: إن أجله قد قرب، وأعطاه أقراص تنويم.
هو آخر مكتوب من أبـي يحيى بنعبد المؤمن مزيان الكومي.
ها أنا ذا في أثر أنـزار.
اليوم يوم أحد، المؤسسة ببناياتها الثلاث تبدو فارغة مهجورة، الحارس المناوب عند الباب يتثاءب والساعة عند منتصف النهار تقريبًا، ينقص قليلاً أو يزيد قليلاً، أتقدم في اتجاهه، يسألني بصوت متكاسل عن سبب الزيارة في هذا اليوم، أراد أن يقول: هذا اليومُ النحسُ، هو لم يقل ذلك لكني

فهمت من حركات عينيه ذلك، حين قلت له بأنني جئت لزيارة السيدة شاهي، رفع عينيه وحكهما بظاهر كفه، ثم دقق النظر ثانية وقال: سأهاتفها.
لم يطل الحديث بينهما إذ سمح لي بالدخول بعد أن دلني على سكنها على السطح، وقبل أن يخلي سبيلي قال لي: ألست السيد أنـزار؟ لقد تغيرتَ قليلاً؟
لأول مرة يشعرني أحد وفي يوم أحد بأن هناك شبهًا بيني وبين أخي أنـزار، شبهًا يجعل الناس تخلط بيني وبينه، يخلق من الشبه أربعين وأكثر.
وتذكرت البطة البلاستيكية وندمت لأنني لم أشتر واحدة مثل تلك التي كان يلعب بها أخي أنـزار، كان لونها أحمر.
لم أجب على استفسار الحارس، وتقدمت نحو باب البناية، تسللت إلى المصعد خشية أن يلحق بـي ويبدأ في السؤال، توقف المصعد في منتصف الطريق وعلي كي ألج إلى السطح أن أتسلق بعض السلالم راجلاً، كما أوصاني وشرح لي حارس يوم الأحد. وحين خرجت من المصعد وجدت الحارس الذي تركته عند الباب أمامي وقد ركب مصعدًا آخر، أو إنه تسلق السلالم بسرعة تفوق سرعة المصعد الذي يبدو بطيئًا وأنفاسه متهالكة، نظر إلي بحدة ثم قال: هل شفيتَ ياسيد أنـزار؟ والله قلقنا عليك كثيرًا، الحمد لله على عودتك، ستفرح بك السيدة شاهي، لقد حزنتْ كثيرًا لغيابك، ومنذ غادرت المؤسسة لم تتوقف عن البكاء، كانت لا يمر يوم إلا وذكرتك بخير، الحمد لله على سلامتك.
كان يتحدث وأنا أحاول أن أتخلص منه وقدماي تبلعان درجات السلم مثنى وثلاثًا، حين شعر بأنني لا أجيب عن أسئلته الملحاحة، ضغط على زر المصعد، انفتح الباب ثم اختفى الرجل. شعرت براحة كبيرة، تنفست هواء باردًا وأنا أمشي الخطوة الأولى على السطح، الغرفة التي سكنها أنـزار أخي هي دون شك هذه، إنها مقفلة، انتبهت إلى أن الجو مشمس، وأن السماء زرقاء، وكأنما الله قريب من قلبـي وأنا على هذا السطح.
ترددت للحظات قبل طرق باب غرفة شاهي، ثم فكرت في أن أنـزل العمارة وأغادر دون أن أرى هذه السيدة التي لم يسبق لي أن رأيتها، كيف لي أن أدق باب سيدة لا أعرفها؟ هو هكذا أنا خلقت في تردد، دائمًا في أخذ ورد مع قراراتي، من على بعد خطوات من باب الغرفة، سمعت رنين الهاتف، وسمعت حوارًا أو ما يشبه ذلك، كان صوت امرأة ولكن غنته قريبة من غنة صوت رجل يرد على مكالمة هاتفية. قلت في نفسي: سيُلبسني هذا الرجل تهمة علاقة مشبوهة مع السيدة شاهي. وقررت مغادرة السطح فورًا، وإذ أنا أهم بمغادرة السطح والالتحاق بالمصعد في الطابق الذي تحت، سمعت صوتًا مرتبكًا، هو نفس الصوت الذي كان على الهاتف: الحمد لله، ها أنت تعود ياأنـزار، كنت متيقنة أن الأمر عابر وأنك لن تغيب طويلاً. كانت تجري كي تقبض علي فاتحة ذراعيها على وسعيهما وكأنني طفلها الذي تريد احتضانه، مسكت بـي عانقتني بقوة، ولم تتوقف عن تقبيلي على وجهي وفمي وعنقي ويدي، وهي تردد: "اشتقت إليك، لقد تركتني للسطح ولفراغ السماء طويلاً وكثيرًا، ليس من حقك فعل ذلك ياأنـزار، ياجاري العزيز"!
أردت الإفلات من حضنها فما استطعت، قاومت ذراعيها فلم أفلح، وأخيرًا أسلمت نفسي إليها، ولم تتوقف عن التقبيل والتهليل. قلت ستستدرك خطأها والإنسان خطاء، والله خلق من الشبه أربعين وربما أكثر، وستعرف بأنني لست أنـزار أخي جارها وزميلها في العمل، بل أنا مازار الذي يحب

رقص أخته هاجر ويسمي خنازيره بأسماء أبناء قريته قرية باب القمر، وأنني لست مثل أنـزار فأنا لا أملك بطة بلاستيكية حمراء اللون!
سحبتني وهي لا تزال تحتضنني بقوة وحنان إلى غرفتها وهي تقول: انظر ياأنـزار كم هي السماء صافية اليوم، هو يوم عودتك السماء تحتفل بك، بعد أن تركتَ السطح مباشرة، وقد لاحظتْ سولاف تأثري المزلزل لغيابك، ومعه حصل لي خمول وخمود في الرغبة الجنسية، قاطعتني متهمة إياي بأنني أحب الرجال لا النساء، وأنني أخون أقلية السحاقيات، وأنني كنت أقيم معك علاقة جسدية وعشقية. لم أكذب عليها، فقد صارحتها بأنك ولجتني مرة واحدة ومن الخلف. أنا لا أكذب، ما في قلبـي على لساني ياأنـزار، وبذلك انتهت علاقتنا نهائيًّا. منذ اختفاء سولاف دخلت في عزلة، قاطعت المدينة، وحاصرت نفسي في انتظارك وفي السجائر وسماع الموسيقى والنبيذ وقراءة كتاب التوحيد لطائفتي الدرزية.
جلست قبالتها على طرف السرير الذي لا تزال أغطيته في فوضى، وكأنما قد غادرته للتو، نظرت إليّ وهي تتكلم دون انقطاع في حالة تشبه الهذيان، بين الحين والآخر تقبلني مرددة: لقد نحفت قليلاً ياأنـزار، سأطعمك ما يجعلك تستعيد جسمك ووزنك كاملاً وأكثر. إذا كنت ترغب في مؤخرتي سأعطيك إياها، المهم لا تغادرني.. لا يمكنني أن أعطيك قلبـي إنه لسولاف، هو ملكها، حتى وإن ذهبتْ إلى جزر الوقواق.
لم أتكلم، ولم أستطع الرد عليها، ما كان باستطاعتي قتل فرحها بعودتي وأخي أنـزار فيّ. سكت، وقد بدأت أشعر وكأنني لست أنا، بل أنا آخرٌ، أنا أنـزار ولست مازار، وأن مازار لا وجود له على الإطلاق، هو كذبة وفقط، هو خنـزير من خنازير حظيرة في ريف مدينة صغيرة تسمى رانفيل، حررها مظليو قوات التحالف في أول ليلة من الإنـزال بنورماندیا، وحده أنـزار الموجود، الحيُّ، والدليل على ذلك شاهي التي تقسم وتحلف بيمينها على طريقتها التوحيدية الدرزية بأن أشرب فنجان قهوة من يدها، قبل أن أحدثها عما حصل لي خلال غيابـي الذي طال في مصحة فرانتز فانون.
أخذت تذكرني بقهوتها التي كنت أحبها لأنها تضيف إليها شيئًا يشبه دقيق الفلفل الأسود أو الهيل؛ فيعطيها نكهة لا مثيل لها. قلت لها أذكر ذلك ياشاهي، بدأتُ ممارسة عسل الكذب، ثم شعرت كأنني أخون أخي أنـزار فترددت؛ أنا شخص متردد دائمًا، سكتُّ، المرأة تحب أخي وأنا أتورط معها قليلاً قليلاً، وفي ذلك أحس وكأنني أخون أخي أنـزار، وأخون أختي هاجر التي أحب الرقص معها وأحب ملامحها الحزينة دائمًا.
لماذا لم أقتن لي بطة بلاستيكية حمراء؟
تكون المرأة أكثر جمالاً حين تكون حزينة.
هناك عند قدم السرير ذي الأغطية الفوضوية قط سمين، لم يحرك ساكنًا فيه منذ دخلتُ، مرة واحد نظر إليّ لبرهة وباستغراب كأنما اكتشف كذبـي، وأدرك بأنني لست أنـزار، ثم أغلق عينه اليمنى ثم اليسرى وعاد إلى نومه الهني. أعجبني نومه وراحة باله وعدم اكتراثه لا بالأحياء ولا بالحياة.
قالت لي شاهي وقد شعرت بأنني أُخذت بالقط النائم: هذا القط جيء به مع جثة امرأة وجدت ميتة، كتبت الجرائد عنها بأنها كانت ممثلة مسرح ومعارضة سياسية لنظام البعث في بغداد، تعيش لاجئة سياسية في باريس منذ فترة، وقد وجدت مقتولة، وحسب التحريات فقد قتلت على يد أحد أبناء قبيلتها من الأكراد، الذي تحركت فيه حمية الشرف إذ علم بأنها على علاقة مع فرنسي مسيحي،

وأنها نسيت لغتها وتبنت لغة الفرنسيين، وخانت دينها. يقال إن أبناء القبيلة الذين ولدوا في نفس سنة ميلادها جمعوا مالاً لشراء ما يلزم من سلاح أبيض وآخر ناري، وبطاقتي طائرة من الدرجة الأولى لشخصين، وحجز غرفتين في فندق ذي خمس نجوم لمدة أسبوعين؛ احتياطًا للعملية التي تم التخطيط لها بدقة في جبال بلاد الأكراد، لتنفذ في حي أوبرفيليي بضواحي باريس. عثرت عليها الشرطة مذبوحة دون رأس؛ إذ نقل الرأس إلى قريتها كي يحتفل بالقصاص منه هناك، وعثروا على القط بجوارها دون أكل ولا شراب مدة ثمانية أيام، وهي المدة التي تعفن فيها جسدها حتى صعدت الرائحة في العمارة وأخبرت الشرطة وتم كسر الباب واكتشاف الكارثة. وجدوا القط يبكي وقد نسل شعره من الجوع، وكأنه لم يغادر مكان جثة الضحية ولو للحظة واحدة، حين جيء بها إلى مؤسستنا لغسلها ووضعها في البراد؛ انتظارًا لوصول أحد أبناء القبيلة أو الأسرة لاستلامها، وإعادة ما بقي من جثة الخائنة كي تدفن هناك تحت طلقات بارود الفرح والرقص وانتصار جنود الشرف، كان القط يلتصق بالتابوت ويموء مواء البكاء الغريب، وحين مسكته في حضني، نظر إلي وأنا أحقق النظر في الجثمان، بكيت، كنت أبكي على القط لا على المرأة، فمن كثرة ما مر علي من الجثث بالآلاف لم أعد أنتبه إلى مآسي الموتى، بل ما يثيرني هو مآسي الأحياء. وكان هذا القط الحي المتألم على موت سيدته الجميلة هو ما أثارني في المشهد، أما قصص الثأر والشرف لدى العرب والأتراك والأكراد والدروز فكثيرة لا تحصى، ولم تعد تحركني.

يسمى القط موليير نسبة إلى الكاتب الفرنسي المسرحي الكبير، سمي كذلك، كما تقول شاهي؛ لأن سيدته التي اغتيلت كانت ممثلة مسرح من طراز متوسط حسب ما كتب عنها في مجلة المسرح، وكانت في كل مسرحية تطلب من مخرجها أن يضيف دورًا ثانويًّا صغيرًا لقط، لتصحب معها قطها موليير، حتى لا تتركه وحيدًا في الغرفة.

حدثني، تضيف شاهي، أحدُ المخرجين الذين جاءوا للصلاة على روحها في هذا المغسل، أن القط موليير كان يقوم بأداء أدواره في مسرحيات الإعجاب والعشق بطريقة مدهشة، كان قادرًا على تغيير صوت موائه ومعها يتغير وبشكل غريب وآلي لون عينيه، كان في كل مسرحية يبدي عشقًا غريبًا بسيدته، حتى إن البعض كان يعتقد بأن القط ما هو إلا عشيق مسخ في شكل هذا الحيوان اللطيف الرومانسي، وهو ما كان يثير غيرة عشيق الفتاة الكردية الممثلة. ومرات كثيرة أدى ذلك إلى شجار بينها وبين العشيق الذي تأكله الغيرة من عيني القط ومن موائه الجنسي، فهي لا تستطيع النوم إلا والقط بين نهديها، وهذا ما كان يثير قلق العشيق ويعتبر ذلك مزاحمة له في نهدين يريد أن يمصهما لوحده كل ليلة.

قالت لي شاهي: ياأنـزار، إن القط موليير لم يتخط عتبة الغرفة منذ أن أحضرته إلى هذا السطح، فهو في حالة حزن وحداد مستمر، يضع أنفه عند الباب يشم رائحتها ثم يعود إلى النوم وتأمل الحياة، حياة أخرى قد لا نفقه جوهرها نحن البشر الأغبياء والأنانيين، وأنا على يقين أنه وبمجرد أن يتلاشى ما تبقى من رائحة سيدته في هذا المكان سيرمي بنفسه من هذا العلو إلى الأسفل. إني أقرأ ذلك يوميًّا في عينيه.

كانت شاهي تتكلم وقد امتلأت حزنًا، وكان موليير يسمعها فيغرق في نوم أكثر عمقًا حتى شطآن الشخير، وكأنما كان يدرك بأنها تتحدث عنه وعن نهايته المحتملة والقريبة قرب الهاوية من السطح، وكان فرحًا مرتاح البال لأن مصيره مرسوم بدقة، فهو الذي يحدد موته يوم لا يبقى في هذا المكان عطر لسيدته.

كانت شاهي مهتمة بـي بشكل أوحى لي بأنها كانت على علاقة عميقة بأخي أنـزار، وقد بدأت تحدثني عن الموظف الذي عوضني، أي عوض أخي أنـزار، قائلة إنه رجل لم تمر عليه سوى ثلاثة أشهر حتى جاءت الشرطة فسحبته من بين جثامين الموتى؛ إذ قيل لي إنه كان يعمل مع جماعة متطرفة تقوم بتخطيط لتفجيرات في أماكن من مدن العالم باسم الثورة الإسلامية العالمية. ولتدارك التأخر الكبير في غسل الجثث وتسليمها إلى ذويها، والقيام بالإجراءات الإدارية والتأمينية الضرورية، فقد كلفني السيد سليمان أوجلان بمتابعة جناح الرجال أيضًا.

لم أرد أن أتكلم خوفًا من أن تفضحني حبالي الصوتية التي ربما لا تشبه تلك التي في حنجرة أخي أنـزار، فتصاب السيدة شاهي بسكتة قلبية إذ تدرك بأنني لست أنـزار، وأنني لا أملك بطة بلاستيكية حمراء اللون.

حين سقط ليل يوم الأحد، وكم هي حزينة مساءات أيام الآحاد حد الكآبة التي تثير فيّ حرارة الدمع والضياع، لست أدري من أين جاءني هذا الإحساس الغريب، أنا أعرف الأيام من روائحها ومن غيم سمائها ومن أصوات أطفال الجيران في البناية المجاورة. حين سقط النهار عدت إلى غرفة أنـزار، رافقتني شاهي وفتحت لي باب الشقة، فهي منذ أن بدأ أخي يعيش حالات من الهستيريا والهلوسة وضاعف من تناول الحبوب والكحول، صنعت لها نسخة ثانية من مفتاح الغرفة كي تتفقده وتسعفه إذا ما احتاج إلى ذلك. كانت تسبقني، تمشي أمامي، لاحظت أن خطوها فيه نوع من العرج، وذكرتني على الفور بأختي هاجر، التي كانت تخفي عرجها بافتعال غنج في المشية. فتحت الباب، أضاءت الغرفة، شعرت بشبه رطوبة تطلع منها، وبرائحة أخي أنـزار، تلك الرائحة التي أحملها في أنفي منذ كنا صغيرين، منذ أن رافقني لأسجله في المدرسة الابتدائية مستعملاً شهادة ميلاد ابن عمنا الميت الذي يحمل نفس الاسم. كانت أغطية السرير بفوضاها كما تركها منذ أن نقل إلى المصحة، وكأنما غادرها للتو إلى المرحاض أو لشراء علبة سجائر من مكتب التبغ أسفل العمارة. وقفت، ونظرت إلى الغرفة التي توحي بأن حياة كانت في هذا المكان، وكأنها لم تتوقف.

كانت شاهي فرحة بعودتي، أنا الذي أسكن أنـزار وهو الذي يسكن ابن عمنا أنـزار الميت. نظرت إليها أنا الآخر وقد أدركت فرحتها، وحز في نفسي أن أصرح لها بحقيقتي التي هي أنني لست أنـزار إنما أنا مازار. لم أرد أن أقمع فيها فرحتها بعودة أنـزار في مازار؛ فقررت أن أخفي كل شيء وأن ألعب اللعبة إلى آخرها. على كل هو أخي الذي أحبه والذي تقاسمت معه كل شيء، فالثياب التي كان يشتريها لي أبـي بمجرد أن تصغر قليلاً يلبسها، وحتى أمي كانت مرات كثيرة تقول لنا: كأنني ولدتكما ساعة واحدة.

مع ذلك كانت هناك أشياء تميزني عن أخي منذ سن المراهقة، فأنا كنت عصبيًّا لا أحب المدرسة، في حين كان أنـزار يعشقها. كنت أنتصر على كل أترابـي من شلة المدرسة والحارة، وكان هو من يُهزم أمام الجميع، وربما انهزامه هو الذي جعله يفضل قراءة الكتب، والاعتناء أكثر فأكثر بتعلم فن الخط، والاستماع إلى الأغاني الرومانسية كأغاني عبد الحليم حافظ وأم كلثوم وجاك بريل وإيديت بياف... كنت أقول له المدرسة للبنات، والقراءة لمن لا يعرف كيف يوجه اللكمة لخصمه، لذلك بقدر ما كنت أجده إلى جانبـي للقيام بتحرير بعض واجباتي في الإنشاء باللغة الفرنسية، التي كنت أكرهها والتي في المقابل كان أنـزار يحبها ويحفظ كثيرًا من الشعر بها، وبها يقرأ الروايات وكتب الفلسفة المعقدة؛ بالمقابل لصنيعه هذا كنت أحرسه من كل من تخول له نفسه الاعتداء عليه،

بذلك أصبح كاتبي العمومي وأصبحت حارسه الخاص، الذي إذا ما حاول أحدهم الاعتداء عليه بمجرد ذكر اسمي ترتعد فرائصه فيتراجع، لذلك كنت أحب أخي أنزار، ولهذا أيضًا كان يحبني كثيرًا، وكنت إذا ما تغيبت عن المدرسة يشهد لي شهادة زور عند المدير، فيثق بشهادته لأنه لا يكذب وهو الأول في الامتحانات جميعها.
كنت بشيطنتي التي لا تحد أعوض أخي أنزار عن كل ما كان يرغب فيه، شريطة أن يريحني من ثقل الواجبات المدرسية، مقابل ذلك إذا ما رغب في أن أكسر أنف أحد التلاميذ، يجدني تحت الطلب، وإذا ما رغب في ركوب دراجة أحد الأتراب آخذها منه بالقوة، وأمنحها إياه لساعة أو أكثر قائلاً بثقة المنتصر دائمًا: اركبها ولا تخف. وحين أتفوه بمثل هذا الكلام، يركب أنزار الدراجة بكل أمان فصاحبها لن يحتج، يرضخ وينتظر متى آمره باستعادة دراجته.
كأن أنزار أخي مدللي، ومع أنه لم يكن بيننا سوى فرق سنوات قليلة، إلا إنني كنت أشعر أمام ضعفه وهشاشته أنني أكبر منه بعشر سنوات. كان يعتبرني في مرتبة الأب الثاني، لم يكن يعاملني بمثل ما كان يعامل به والدنا، فأنا مجرد صعلوك يحميه من الأشرار من مجايليه، أما والدي فكان رجل الحكمة يجعلنا نستمع بعمق إلى أقواله وحركاته وطريقة تعامله مع أمي وأخواتي وكتبه.
وحين كبر أنزار، كان كلما وقع في ورطة فكر في أنني سأنزل من السماء كي أحل له معضلته، ولكن ومع مرور الزمن وابتعاد بعضنا عن بعض، لم أعد أحل له مشاكله، وبدأ يطير شيئًا فشيئًا بجناحيه الخاصين، حتى نزل على هذا السطح ذات يوم كطائر غريب.
تمددت على السرير في غرفة أخي التي بدت لي شبيهة بتلك التي كنا ننام فيها صغارًا، لم يكن هناك سرير ولكننا كنا نتعانق في الشتاء تحت غطاء البورابح الصوفي بحثًا عن دفء، فجأة تذكرت ملامح وجهه الذي قابلني به دون أن يتعرف علي بالمصحة وهو يلعب بالبطة البلاستيكية، حتى إنه أغراني باللعب معه. فتشت في أركان الغرفة فعثرت بسهولة على قنينة ويسكي، شربت منها دفعة واحدة قرابة الربع، ثم شعرت بشيء يتحرك في الغرفة بعد أن أظلمت في عيني جراء الكحول، شاهدت صورة والدتي التي تهتم بنظافة جسدها أكثر من اهتمامها بأي شيء آخر، فهي لا تصلي؛ لأنها مهووسة بحب الجنس كما يحلو التعليق لعمتي فاطنة كلما شاهدتها في الحمام، الذي هو عبارة عن غرفة صغيرة بمجرى تحت العتبة يسمح للماء بالسيلان في اتجاه جذع شجرة التين.
أستعيد وجه أمي وهي غارقة في حزنها وحيرتها لتأخر زواج أختي الكبرى، وانتظار الأخريات زمنًا أكثر من اللازم قد يعرضهن جميعا للبوار.
نمت لم أفق إلا على صوت شاهي قائلة: ياأنزار، هل تعود إلى العمل اليوم؟
قلت لها حتى دون أن أخرج رأسي من تحت الغطاء الذي لا تزال فيه رائحة أخي: لا، ليس اليوم.
اقتربت مني، وضعت راحة كفها على جبهتي، كانت باردة، اشتعلت بكل ما في من دم ولحم وهواجس، ثم قتلت ناري إذ انتبهت إلى رائحة أخي التي تعمر خياشيمي التي تشبه خياشيم الحوت.
بمجرد أن رفعت الغطاء عن رأسي انتبهت إلى صورة أخي الموضوعة في إطار قريب من وسادتي، كان أنزار في الصورة وسيمًا بلحية ذات أربعة أيام، يشبه الفنانين ونجوم السينما، في ملامحه ابتسامة خبيثة وذكية، كأنما يريد أن يقتنص شيئًا ثمينًا من شخص آخر.. أنزار قناص ماهر!
صوت حذاء شاهي ذي الكعب العالي على الأرضية الإسمنتية وهي تغادر الغرفة يوقظ في إحساسًا غامضًا لشيء ما، نسيته أو اختفى في تلافيف الذاكرة التي تقاسمتها خنازير الحظيرة

الطيبة، أردت أن أستبقيها في الغرفة لكني خفت من ارتكاب ما لا يرضى به أخي، الذي كنت حاميًا له في الصغر من اعتداءات مجايليه الذين كانوا ينتصرون عليه دائمًا. لم يخلق للمعارك والعنف، كان رقيقًا، شفافًا وهشًّا، كما إن عطر شاهي لم يرق لي، كان قويًّا وفيه كثير من الحمض وعطر الفواكه.
قالت لي وهي تغادر: تركتُ لك مفتاح غرفتي على الطاولة، إذا ما أردت شيئًا للأكل فالبرّاد مليء، لا تتردد، قالت ذلك بفرنسية دون لكنة أجنبية.
بمجرد أن اختفى صوت حذاء شاهي على درجات السلم، أو ابتلعها المصعد، قمت من السرير، شعرت بدوخة في رأسي، رغبت في شرب فنجان قهوة قوي ثقيل. ما أثارني في أشياء أخي التي بالغرفة هو نظارة كبيرة سوداء تشبه تلك التي يضعها اللحام فوق عينيه اتقاء لشرر النار، تناولت النظارة وضعتها على عيني، كانت طامسة للنظر، اختفى الضوء مباشرة من أمام عيني، شعرت براحة عميقة، جلست على زاوية السرير ثم تمددت، هجم عليّ نوم خفيف، بعض دقائق، ثم قمت، توجهت مباشرة لغرفة شاهي، كان القط فوق السرير نائمًا، لم ينتبه لدخولي أو أن ذلك لم يثره، أردت أن أناديه باسمه لكني لم أجد له اسمًا، نسيت اسمه موليير، فناديته باسم أخي: ياأنـزار، فقام القط على الفور ونـزل من على السرير، اقترب مني تمسح برجلي، ثم طلب مني دون أن يتكلم أن أفتح له باب الغرفة، فتحت باب الغرفة، تسلل القط إلى السطح. حضرت لي فنجان قهوة، شعرت براحة في رأسي وأنا أحتسيه، كنت أحتسي القهوة وأنتظر عودة القط ولكن القط لم يظهر. قلت في نفسي: سيعود بعد لحظات. مرت اللحظات ولم يظهر، تركت باب الغرفة مفتوحًا ثم عدت إلى غرفة أخي، قلت في نفسي: ربما إنه هناك. لم يكن هناك، بحثت عنه في أركان السطح، لم أعثر له على أثر.
شربت من قنينة الويسكي بعض الكؤوس، ثم عدت ثانية إلى غرفة شاهي أخذت بعض الأجبان والخبز وقفلت عائدًا إلى غرفة أنـزار.
لم أنتبه إلاّ والمساء قد نـزل من السماء، سمعت صوت كعب حذاء شاهي على الدرجة الأخيرة من السلم قبل الوصول إلى الباب المؤدي للسطح. قلت هذه ساعة عودتها، خفت أن أرتكب ما يغضب أخي، فتسللت بين الشراشف وافتعلت النوم، وخاطبتني حتى قبل أن تضع رجلها على عتبة الغرفة: ألا زلت نائمًا؟ أتمنى ألا يكون نومك كما نوم الذين منهم عيشنا وقوتنا.
سمعت المفتاح يدور في الباب، اختفى صوتها، عرفت أنها دخلت غرفتها، ارتفع صوت المذياع أو جهاز التلفاز، قمت من السرير وفكرت في مغادرة المكان، وما إن هممت بالخروج حتى وقفت بالباب، قالت لي: لقد ذهب القط، كنت أعرف أنه سيذهب ذات يوم، ربما شدته غيرة من وجودك على هذا السطح.
لم تبد حزنًا على اختفائه، في حين انشغل أمري به طوال اليوم، خففت عني قلق اختفاء القط وتبدد خوفي عليه، فداهمتني رغبة إلى شرب قدح من الويسكي أو أي شيء يدوخ، يبعدني عن هذا المساء.
أردت أن أقول لها بأنني أنا الآخر سأغادر، سألتحق بالقط، باختفاء هذا الحيوان شعرت بالوحدة، إحساس غريب فأنا لم أشاهده إلا لساعات قليلة، وكان أغلب الوقت فيها نائمًا، لكن مع ذلك أشعر بحيرة كبيرة على طريقة اختفائه، فكرت أن أنـزل إلى الشارع للبحث عنه، أو أنشر إعلانًا صغيرًا في جريدة محلية، أو أكتب ورقة أنسخها وأعلقها في أماكن حركة المارة وأبواب العمارات في

الحي، ثم تراجعت وقلت: هو قط وشاهي تقول إنها كانت تنتظر اختفاءه، وكأنما كانت تشعر بأن وجوده هنا عبارة عن سجن له.
لماذا أهجس بهذا القط؟
ثم فجأة نسيت القط وأخذت أحدق في فخذي شاهي، وحين انتبهت إلى أنني أخون أخي أنـزار، وأخون هاجر ذات الساق المشوه نـزلت درجات السلم واختفيت.
اختفيت كالقط موليير.
وأنا أبتعد كنت أسمع صوت شاهي وهي تقول: الرجال كالقطط تختفي حين تداهمها الرغبة الجنسية ولا خوف عليها، تعود إلى ديارها بمجرد إطفاء لهيب الشهوة.
وأنا أبتعد عن المكان تذكرت بأنني مازار وأنني جئت لمقابلة شاهي كي ترافقني إلى المصحة لزيارة أخي أنـزار، وها أنا ذا أسكن جلد أنـزار وأنسى كل شيء.
وبدأت أبحث عن بطتي البلاستيكية.
كم هو مريح أن تعيش في شخصية إنسان آخر! تصبح اثنين وأكثر، تصبح الحرية والعبودية في الآن نفسه!

22

حين دخلت شقتي، وجدتني أفكر في القط أكثر من تفكيري في أخي أنـزار الذي يوجد في مصحة الأمراض العقلية فرانتز فانون، وأن له بطة بلاستيكية حمراء اللون.. شيء غريب! كنت متيقنًا أن شيئًا ما سيسقط من علِ، من بلكون واحدة من عمارات المصحة، مزهرية أو سطل ماء فارغ أو مملوء، أو حتى فنجان من خزف فارغ نسي على الحافة، شيء ما سيسقط على رأسه من هذا العلو فيعيد له الذاكرة كاملة، بل إنه سيوقظ ما كان نائمًا فيها من عناصر ويتم إعادة تشغيلها واستعادة مخزونها منذ الولادة، وأنه بذلك سيعود إلى حياته الطبيعية، سيرجع لغسل الموتى والتربص بشاهي في وحدتها الكاذبة على ذلك السطح القريب من السماء.
تفقدت حظيرة تربية الخنازير التي أشرف عليها، لم تكن على حالها، الخنازير لم تعد تكبر وقد فقدت من سمنتها كثيرًا. حين شاهدتني أحاطت بـي وشرعت في البكاء، لم أفهم لكني اعتقدت أن شيئًا مأساويًّا تراجيديًّا سيصيبني قريبًا، وأن هذه ساعة نعيي. مثلها شرعت في البكاء على نفسي أو على اللاشيء، مرات البكاء هو تصفية دم القلب، منحتها أكلاً، ولكنها ما قربت ذلك، بل إنها ظلت تنظر إلي بغرابة ما جعلني أسرع إلى الغرفة لأطل على وجهي، وجدت اللحية قد نبتت أكثر من المعتاد، ولكن تحت هذه اللحية وجدت وجه أخي بدلاً عن وجهي.
كنت أنـزار وغاب مني مازار.
إني أحب أخي. أحب أنـزار، إننا لا نجهر بحب الأخ؛ فنموت وفي قلبنا شيء عن هذا الحب الذي نقتله باسم الحشمة تارة، وباسم التنافس الفارغ تارة أخرى.
دخلت تحت مرشة ماء الحمّام علني أعود إلى أناي، مع أنني كنت مرتاحًا في جلد أنـزار أخي، ارتحتُ مني، سال الماء الدافئ فوق رأسي، حرك في ذاكرتي فجأة صورة القط موليير الذي اختفى بطريقة غريبة، أصختُ السمعَ، أقفلت الحنفية حتى أتبين الصوت جيدًا، فإذا بـي أسمع مواءه بالخارج. مواء قط شبيه بصوت أنـزار أخي، الجو برد ومطر خفيف يسقط وريح وصوت القط، صوبنت جسدي بسرعة ثم فركت شعر رأسي بغاسول مصنوع من صابون عطره كعطر الطين البلدي، لففت جسدي بفوطتين كبيرتين وثالثة على رأسي، وخرجت إلى فناء المزرعة أبحث عن القط موليير، قلت هذا القط يمكنه أن يخبرني عن سبب انحدار أخي إلى هذه الحالة السحيقة من الهشاشة، كان المطر قد اشتد أكثر، بحثت في أركان الزريبة ولم أعثر على القط، مشيت بعض أمتار وكنت أشعر بصوت القط يبتعد، حاولت أن أجري ولكن صوت القط ضاع في الاتجاه المعاكس الذي كنت أجري فيه، انتبهت فإذا بـي أجري حافي القدمين، قررت العودة إذ وجدتني شبه عار في الخارج وقد انفرطت الفوطتان من على جسدي، وكأنما بعض العيون تنظر إليّ بفضول واستغراب من خلف النوافذ وتضحك أو تطلب الشفاء لي من السماء، وتقيس أعضائي الحميمة بدقة لا متناهية.
كنت متأكدًا أن القط موليير سيدق باب شقتي مع آخر ساعة من الليل؛ لأن روحه من روح امرأة عاشقة صادقة.
قررت أن أزور أنـزار ثانية نهاية الأسبوع القادم، ثم تذكرت هارون ابن البلد الذي أقام عنده أسبوعًا أو أكثر لدى وصوله باريس، قبل أن يستقر في غرفته على سطح بناية المؤسسة التي

يشتغل فيها. قلت في نفسي: سأمر عليه ونذهب سويًّا لزيارة أنـزار. ثم تراجعت عن الفكرة؛ إذ شعرت بأنني بذلك سأحرج أخي وهو الذي دون شك لا يريد أن يصل خبر مرضه إلى الجهة الأخرى من البحر، ألا تسمع ساكنة باب القمر بأنه يقيم في مصحة للأمراض العقلية، ثم تخليت عن الفكرة، وقررت الذهاب إليه وحيدًا.
وأنا أضع رأسي على المخدة، وأفكر في الرحيل إلى أخي مع الصباح الباكر، سمعت خربشة أظافر على الباب، اعتقدت بأن خنـزيرًا خرج من الزريبة ويريد أكلاً أو ماء، ثم صعد صوت مواء القط، عرفت بأنه صوت موليير. قبل أن أقوم لفتح الباب، تساءلت: كيف تمكن من الوصول إلى هنا؟ فتحت الباب، إنه موليير! كان مبلل الفروة، تقدم ببعض الخطوات داخل الغرفة الدافئة ثم رفع مواء خفيفًا، اعتقدت بأنه جائع، بحثت عن جبنة فقطعتها قطعًا صغيرة في صحن ثم وضعته قرب المدفأة، لم تكن به شهية ولا به جوع. عدت إلى فراشي، صعد القط ونام عند قدمي، قلت في نفسي سنحلم نفس الحلم هذه الليلة، لست أدري لماذا فكرت هذا التفكير.. ونمت، ونام القط.
صباحًا، كنت متأكدًا أننا حلمنا ذات الحلم، أنا وموليير؛ لأنه ابتسم لي بمجرد أن فتحت عيني، لكني وجدت القط قد تغيرت ألوان فروته، فقلت إنه ليس موليير، القطط تتشابه. ولكنه نظر إلي وكأنه قرأ ما كان يدور في ذهني، ثم أرسل مواء فيه نوع من الغضب والاستنكار، حين طردت فكرة تشابه القطط من رأسي عاد إلى هدوئه.
هجمت علي صورة سليمان-الناي الذي كان لا يعرف سوى لغة العزف، بها يحاور عمتي فاطنة وجدي والبقية الباقية من أهل باب القمر.
وأنا في القطار السريع، انتبهت إلى شيء يتحرك في حقيبتي، فتحتها فإذا بـي أتفاجأ بالقط، نظر إلي بنوع من السخرية، حققت في عمق عينيه فإذا بـي أسمع صوت أختي هاجر تقول: أرواح القطط هي أرواح بني آدم.
القطط بسبعة أرواح.
على الرغم من المفاجأة التي مثلها حضور القط موليير في الحقيبة، إلا إنني شعرت بنوع من الاطمئنان لوجوده، مصاحبة وصحبة، قلت في نفسي، ثم بدأت أرتب في رأسي بعض الكلام الذي أواجه به أخي أنـزار، الذي أتمنى أن يكون قد تخلص من شغفه بالبطة البلاستيكية وبسباحتها التي تثير سيلاً من الضحك لديه.
أنا أيضًا أحب سباحة البطة البلاستيكية.
أولاً علي أن أصارحه بأنني قضيت ليلة في غرفته، نمت في فراشه، وشممت عطره، وأن الصورة التي له في الإطار جميلة جدًّا، وأنني شربت، دون أن أستأذنه، من قنينة ويسكي غير منقوصة ولا مفتوحة، وجدتها في الخزانة الزجاجية، وعليّ أيضًا أن أجد صيغة كي أفهمه بأن لا شيء حصل بيني وبين جارته وزميلته في الشغل شاهي الدرزية، التي كانت رقيقة معي لا لشيء إلا لأنها تقدره وتحبه وتتأسف لغيابه ولما حصل له، ثم تراجعت عن ذلك قائلاً: عليّ ألا أذكر اسم شاهي، أن أبقيها بعيدة؛ لأن ذلك سيقلق أخي كثيرًا. ثم قلت: سأقول له بأنني تركت شعر لحيتي يكبر خلال أيام الأسبوع، حتى ألقاه بوجه ملتح قد يذكره بلحية جدي. وكي أثني فرحه سأقول له إن حارس البناية، من كثرة التشابه بيني وبينك، اعتقد بأنني أنت وجاءني مهللاً فرحًا، وإن ذلك لدلالة على أن الجميع يحبك وينتظر عودتك. ثم خفت أن ينـزلق لساني وأقول له بأن شاهي هي الأخرى اعتقدت بأنني هو؛ فتراجعت عن هذه الفكرة التي قد تؤلمه وتجرح إحساسه.

ثم قررت أن أحكي له حكاية اختفاء القط من على السطح وبشكل غريب، وهو الأمر الذي لم يحزن جارته شاهي، وأنني حين عدت إلى شقتي وجدت القط بالباب قد تبعني، كيف؟ لست أدري! وأنني وجدته في حقيبتي هذه، وأن لا خوف على بطته منه، فهو لا يؤذي أحدًا، خاصة البط والخنازير.
وسأخبره أيضًا بأن مؤسسة إحصاء الموتى ضحايا حوادث السير تحدثت عن انخفاض كبير في عدد موتى الطرقات، وأمنحه المقال المقصوص من جريدة محترمة والذي وردت فيه هذه الإحصائيات، وأطلب منه أن يقرأه، والذي يؤكد بأن نسبة الوفيات قد تقلصت بـ13 في المائة، وإذا ما استمر التشديد على منع السياقة السريعة، فلا شك بأن هذا الوضع قد يؤدي إلى إغلاق قريب لكثير من مؤسسات غسل أو حرق الموتى في البلد.
وفكرت أيضًا أن أصارحه ولأول مرة عن طبيعة عملي الذي ظللت أتستر به عليه، أن أقول له وبكل شجاعة بأنني أشتغل مشرفًا على حظيرة خنازير، وأنها حيوانات لطيفة وذات تربية عالية، وهي نظيفة على العكس مما يروج عنها عندنا، وأنها لا تختلف عن الأحصنة والأبقار والأنعام، وأن الخنـزيرة الأم تحب جراءها حبًّا لا يختلف عن حب أمنا لنا، ترضعهم بانتباه وتشعر بلذة وهم يرضعونها وكأنها هي التي ترضع منهم. في عالم الخنازير لا يمكن التفريق ما بين الذي يمنح وذاك الذي يأخذ المنحة.
قررت أن أتسلح بالشجاعة العالية وأحكي له تفاصيل عملي، وأسرد عليه أسماء الخنازير ذكورًا وإناثًا، والتي جميعها تحمل أسماء أبناء قريتنا باب القمر، وهناك خنـزير ذكي وفيلسوف يسمى أنـزار، قررت ألا أخفي عليه شيئًا من عالم شغلي الذي أحبه كثيرًا. لقد أصبحت فردًا من أسرة الخنازير وأنا سعيد لذلك، وأحزن كثيرًا حين يجيء صاحب الزريبة ويأمر ببيع بعض الرؤوس للمسالخ، أبكي عليها كثيرًا ولا أنام الليالي، أشرب الكالفادوس المقطر تقليديًّا كي أتجاوز محنة غياب بعض الرؤوس التي هي أسماء لأبناء قريتي، وأنتظر أن تضع خنـزيرة جراءها فأعطيهم أسماء الذين رحلوا، وهكذا دواليك.
أقول له إنني أعيش بين أبناء قرية باب القمر.
أن أفتح له قلبـي وأصارحه بكل شيء؛ فسيخفف عليه هذا الاعتراف ثقل ما يحمله في داخله جراء طبيعة هذا الشغل، الذي يقوم به منذ جاء هذا البلد هاربًا مثلي من الخدمة الوطنية التي يؤديها أبناء الفلاحين، ويعفى منها أولاد المسؤولين. هذا السفر دفعته إليه أمي التي كانت تقول له دائمًا، ومنذ أن جاءه أول استدعاء للتسجيل في قوائم الخدمة العسكرية: عليك أن ترحل، أن تذهب إلى بلاد لا يستطيعون الوصول فيها إليك، أنا لا يمكنني أن أعطي ولدي للحرب، الأمهات يكرهن الحروب، ويكرهن ملابس العسكر ولا يحببن الرصاص الذي يقتل.
سأشرح له بأن تربية الخنازير ليست أكثر ولا أقل شأنًا من غسل الأموات، وسنضحك من بعضنا البعض، سنضحك لبعضنا البعض حتى نقهقه، لن يكون هناك غالب ومغلوب، وسنلعب بالبطة البلاستيكية الحمراء اللون.
لست أدري لماذا كنت أريد الحديث معه أيضًا عن علاقة عمي سليمان بأختنا هاجر، تلك العلاقة التي كثيرًا ما تناقلت نهايتها خنازير باب القمر بنوع من التشفي والسخرية. كنت أريد أن أقول له بأن هاجر كانت في لحظات تأخذني في حضنها وتقول لي وهي باكية، منهارة: أحب سليمان يامازار.. أعرف أنه عمي ولكن القلب أعمى يامازار.

ذات يوم وللتخفيف عن حالها صنعت لها حكاية كي أخفف عنها معاناتها، قلت لها: ياهاجر، لقد سمعت أمي تقول بأن سليمان ليس بأخ لأبـي، بل إنه ابن جدتي من زوجها الأول، جاءت به في بطنها، بسبعة أشهر، وأنها أخفته لفترة بعد ولادته وبعد ذلك نسي الجميع واعتقدوا أنه عمي، لم ينـزعج لذلك جدي الذي كان على استعداد لفعل أي شيء لإرضاء زوجته، التي سرق قلبها وهو على ظهر حصان يلعب بالبارود.
قبلتني، وبكت.
كانت هاجر تقول إن بسليمان رائحة غير رائحة العم، وكانت أمي التي تعرف كل شيء تداري الأمر وكذا والدي. أما جدتي التي كانت تكره هاجر وتشك في علاقة جدي بأمي فكانت لا تتوقف عن تأكيد بنوة سليمان لجدي.
أنا متأكد أن أنـزار سيفرح لهذا الخبر؛ لأنه أساس سعادة هاجر ذات الساق المشوهة بمرض الخنـزير.
لكني تساءلت وأنا أنظر إلى القط موليير الذي بدأ يضحك بصوت عال مني ومن هواجسي التي تشبه "هترفة" نائم "ضَرْبُو حْمار الليلْ"، هل سيثق أنـزار في كلامي المفكك هذا؟ أم إنه سيعتقد بأنني مجنون وعلي أن أدخل مصحة الأمراض النفسية والعقلية لأنافسه في اللعب مع البطة البلاستيكية؟!
كان القط موليير يقلب أوراق بعض الكتب التي أحضرتها معي لأنـزار، فهو يحب الروايات وكتب التاريخ المؤسسة على الدسائس. أذكر أنني كنت كلما انتهى من قراءة كتاب أجلس بجواره وأطلب منه أن يحكي لي الحكاية، كان فنانًا في السرد، مدهش اللسان، حتى إنني وأختي هاجر أصبحنا عبدين لعسل لسانه، تعطيه أختي البيض المسلوق وأسرق له أنا مشمشًا من بستان الجار، مقابل أن يحكي لنا مما يقرؤه. مرات، ومثلي أختي، كنت أشعر بأنه كان يكذب علينا كي نعطيه أكثر من البيض والمشمش والبرقوق، يضخم الأشياء ويهول الأحداث ويعدد العقد والمعارك والانتقام والغيرة، ولا تنتهي حكايات كتبه.
قلت للقط موليير كي أسكت ضحكته الهستيرية: سنجلب أنـزار ليعيش معنا، وسوف أدربه على مساعدتي في تربية الخنازير والبحث في إمكانية تحسين نسلها، وسأقترح عليه أن نحضر هاجر معنا كي تعيش مع خنازير الحظيرة وتتخلص من خنازير باب القمر، وسترى بأن هذه الخنازير لا تعطي مرضًا، بل تمنحنا السعادة وطمأنينة الحياة بكثرة إنجابها وبطريقتها الخاصة في ممارسة الجنس.
سيرد علي وكأنما يسحب أنفه من بين صفحات كتاب مثير: عيب ياأخي، ياابن أمي يامازار أن نشتغل مثل هذا العمل، ماذا سيقول عنا أهلنا هناك؟ نغترب ونهاجر من بلادنا ونمتحن وفي النهاية نجد أنفسنا في حضيرة الخنازير أو في مغسلة الأموات؟
ماذا ستقول عني هاجر التي تحبني وترى في صورة بديلة عن ديغول وفولتير؟ وماذا سيقول أبـي الذي لا يرفع عينيه عن كتاب الله وكتب سيرة النبـي عليه السلام؟ جميعهم سيقولون عنا إننا نأكل من مال حرام، فالخنـزير كالخمر سواء بسواء، شأنه قبيح عند المسلمين تربية وبيعًا وشراء وتوصيلاً، بل الخنـزير أكثر إيلامًا من الخمر لدى خنازير باب القمر وما جاورها.
حين وصلت المصحة كان الباب الخارجي مغلقًا، المطر لا يزال يسقط وقد اشتد أكثر، وقد بدت لي المؤسسة ببناياتها العتيقة المرمية في هذه المحمية الطبيعية غارقة في الماء حتى ركبتيها.

انتظرت قليلاً وقد احتميت ببلكون عمارة كئيبة، لقد نسيت المطرية وتلك عادة لا أستطيع التخلص منها، حتى حين أحملها معي أنساها في أول مكان أجلس فيه، في الحافلة أو في المقهى أو عند صديق أو وأنا أدفع ثمن الخبز لخبازة الحي المبتسمة دائمًا، جاء رجل يجري من بعيد وكأنما أشفق على حالي وهو يراني تحت المطر الربيعي هذا، فتح لي الباب وقد عرفني وتذكر المريض الذي كنت قد زرته المرة الماضية، وهو ينظر إلي تارة وإلى حقيبتي التي منها أطل القط موليير برأسه.
توقف المطر فجأة وطلعت الشمس، ابتسمت له وقلت: في بلادنا نسمي هذه الحالة ما بين الشمس والمطر بـ"عرس الذئب"! ضحك الرجل الذي لم تكن في فمه سن، ولم يضف شيئًا أو إنني لم أسمع جيدًا تعليقه؛ لأنني كنت أسمع في أذني مواء القط الذي عاد يموء بقوة في أذني.
خطوت بعض أمتار إلى الأمام وأنا خائف من أن يسقط شيء ما فوق رأسي من بلكون الجناح الذي أسير بمحاذاته، جناح غرف المقيمين.
استقبلتني سيدة في الأربعين، لم تكن في هذا المكتب في المرة الأخيرة التي زرت فيها أنـزار، طلبت مني اسم المقيم، لم تجد صعوبة في العثور على اسمه، ثم ألقت بنظرة على جدول مكتوب بالأحمر، ملصق على سبورة من حطب مقابلة لكرسيها الدوّار، ثم قالت لي إن أنـزار يرعى حمير المؤسسة.
يرعى حمير المؤسسة؟!
غريب؟
نحن رعاة الحمير أو الخنازير أو الموتى!
سألتها عن الاتجاه الذي يوصلني إلى مرعى الحمير؛ فأشارت لي بيدها الناعمة الرقيقة، والتي تلبس سوارًا من فضة بيضاء لامعة، وفي الأخرى ساعة يابانية، إلى طريق ترابـي ضيق بين الأشجار والنباتات البرية المتوحشة. شكرتها وقد أعاد القط رأسه إلى داخل الحقيبة بين الكتب.
تبعت الطريق وقد سطعت الشمس في السماء حارة، وبدت بعض القطرات على أغصان الأشجار وأطراف النباتات مثل بلور يشع أمام الأشعة الثاقبة.
استغربت كيف يمكن أن يكون أنـزار في هذه الغابة وهو الحساس الذي يكره طنين النحل، وفي الأنحاء كثير من مستعمرات تربية النحل.
توغلت في المحمية بعضًا من ساعة، لا شيء سوى بعض الحشرات وأصوات بعض الحيوانات وأنواع غريبة من الطيور، من بعيد شاهدت قطيعًا من الحمير وقد تجمعت في مكان واحد وفي شكل حلقة كبيرة، قلت في نفسي إنه قطيع أنـزار ما في ذلك شك؛ إذ لا يوجد مثلها في الأنحاء.
فهمت فيما بعد أنها سلالة من الحمير القبرصية المهددة بالانقراض نتيجة عقم غريب أصابها، والتي يتم حمايتها من خلال تنشيط تناسلها في هذه المحمية. اقتربت من القطيع حتى لم يبق بيني وبينها سوى بعض أمتار قليلة، انتبهت الحمر إلى وجودي، ولم يستفزها ذلك وعادت لما كانت عليه. اقتربت أكثر، حتى اتخذت لي مكانًا بينها في تلك الحلقة العريضة، وإذا بـي أمام أخي أنـزار، ومثلي أطلق لحيته التي بدت بشعر خمسة أيام أو أكثر بقليل. كانت مثل لحيتي تمامًا بتمام، وقد تخللها بعض الشيب في أطراف الحنكين وفي مقدمة الوجه، شيب مبكر. حدقت إليه النظر، لم يتزحزح، بل واصل حديثه لقطيع الحمير، أصخت السمع، كان يتحدث عن صورة الحمير في القرآن، وهو يقرأ ويشرح لها آية: "إنَّ أنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَميرِ". ثم انتقل للحديث عن

الحمير في الفلسفة اليونانية، ثم أخذ يتحدث عن رواية: "الحمار الذهبـي" لأبوليوس الجزائري، وهي أول رواية في تاريخ الإنسانية...
توقف عند الحديث عن رواية "الحمار الذهبـي" لأبوليوس كأنما قرأ في ملامحي شيئًا غريبًا، وقد استغربت كيف أنه استعاد تفاصيل هذا الكتاب الذي كان قد حكاه لي ولهاجر، ثم مرر يده على لحيته وحكها قليلاً ثم قال لي، وقد شعرت بتنمل في دماغي، وكأنني خفت أن يكون قد اكتشف رغبتي في شاهي أو شربـي من قنينة الويسكي التي وجدتها في غرفته.
أين القط موليير؟
قامت الحمر واحدًا واحدًا وتفرقت لترتع مما هو موجود في الأنحاء من عشب، بعض الذكور شرعوا في التراكل والترافس والتخاصم على من يحق له أن يركب ويلج أتانًا كانت في موسم إخصابها، وبقيت وجهًا لوجه مع أخي أنـزار. لم يتكلم ولم أتكلم. كان يبدو هادئًا ومتأملاً في المحمية التي حوله بسكونها وأشجارها وحيواناتها. استدار إلى الجهة الأخرى حين ولج حمار الأتان الساخنة، كان عضوه التناسلي كبيرًا كيد مذراة، ومثله استدرت استحياء وقد تذكرت ملامح وجه شاهي، لست أدري لماذا تذكرتها؟! ثم خفت أن يفهم أنـزار بأنني أفكر في شاهي، فبدأت أبحث عن صورة هاجر في رأسي وأفتح الحقيبة عل القط موليير يطل برأسه. جلسنا ملتصقين، ظهري إلى ظهره، كان هو ينظر جهة الشرق وأنا أنظر جهة الغرب، وقد شعرت بدبيب النمل في عنقي ومخي حين لمست ظهري ظهره، ثم شعرت بحرارة، وظللنا هكذا دون حديث حتى غابت الشمس وجاءت ساعة العودة إلى المصحة.
دون حركة منه أو نداء، تجمعت الحمر أمامنا، وقد بدا على الأتان التي هي في أيام حرارتها سعادة كبيرة، وبالمقابل بدا تعب في عيني الحمار الذي ولجها. قام أخي أنـزار وقمت أنا، سار قدام القطيع وسرت خلف القطيع، نـزلنا منحدرًا كبيرًا ثم صعدنا تلة عالية ثم منحدرًا وإذا بمطر خفيف بدأ يسقط، وبناية المصحة أنارت أولى مصابيحها الخارجية، شعرت باطمئنان وأنا أرى المصابيح قد كسرت هذا الظلام الذي سقط فجأة على المحمية الطبيعية، وكنت لا أسمع سوى حوافر الحمير تضرب على الأرضية الترابية. توقف المطر، أغلق أخي مطريته بطريقة عفوية ثم سار قدام مدخل العمارة، الحمير ذهبت في اتجاه وأخي ذهب في اتجاه آخر، وأنا وقفت إزاء الباب الخارجي لا أعرف ماذا أفعل وكيف أعود إلى خنازيري وحظيرتي؟ وأنا أفكر في أمري، سمعت شيئًا سقط من عل، أسرعت الخطو وكأني خفت أن يكون أنـزار قد سقط متعثرًا في شيء على طريقه، كان واقفًا شادًّا على رأسه، قربت منه، ابتسم لي دون أن ينـزل يديه من على رأسه الذي سال منه خيط دم خفيف، ثم قال لي: لا تنـزعج يامازار، لقد سقط على رأسي هذا الجسم الغريب، نظرت بين رجليه، كان الجسم هو القط موليير، عانقت أنـزار وعانقني وقد بدا لي حديثه عاديًا، ثم قال لي:
- أنت هنا؟ ألم تمت؟! استغربت كلامه.
- لقد غسلتك واسمح لي إن كنت قد كشفت على جسدك، يامازار.
- ها أنت ترى، ها أنا ذا أمامك، لم أمت!
أخذ وجهي بين راحتي كفيه وأخذ يقبلني بحرارة، ومثله أخذت أقبله، وضع ظهره إلى ظهري، كان ينظر جهة الجنوب وأنا أنظر جهة الشمال، صمتنا قليلاً، ثم ضحكنا فجأة ودفعة واحدة.
مدينة الجزائر في 29 أبريل 2013